هنري بنديه

رحلة الى كُردستان في بلاد مابين النهرين

سنة ١٨٨٥

دار ئاراس للطباعة والنشر



السلسلة الثقافية

*

صاحب الإمتياز: شوكت شيخ يزدين

رئيس التحرير: بدران أحمد حبيب

***

العنوان: دار ئاراس للطباعة والنشر – حي رابەرين – اربيل– كوردستان العراق

ت: ٢٢٣٢٠٢١ ص.ب: رقم ١

هنري بنديه

رحلة الى كُردستان في بلاد مابين النهرين

سنة ١٨٨٥

ترجمة وتعليقات

د. يوسف حبي

اسم الكتاب: رحلة الى كُردستان في بلاد مابين النهرين
تأليف: هنري بنديه
ترجمة: د. يوسف حبي
من منشورات ئاراس رقم: ٧٦
التصميم والإخراج الفني: شاخوان كركوكي
الغلاف: شكار عفان النقشبندي
خطوط الغلاف: الخطاط محمد زاده
تنضيد: نسار عبدالله
تصحيح: شاخوان كركوكي
الإشراف على الطبع: عبدالرحمن محمود
الطبعة الاولى: اربيل ٢٠٠١
رقم الإيداع في مكتبة المديرية العامة للثقافة والفنون في اربيل ٢٠٠١/٣١١



الرحالة هنري بنديه



رفيق الرحالة: إميل هاملن

مقدمة المترجم

العالم كبير، ويصعب على المرء أن يطّلع على سائر البلدان والمناطق، وقد كان الأمر أشدّ صعوبة في عهود لم تعرف وسائل مواصلات سريعة ومريحة كما هي عليه في أيامنا، لذا كان الإقدام على سفر طويل وبعيد يعني ركوب المشقّات والتعرّض للمشاكل والأخطار، فهو من الندرة بمكان، بل مغامرة حقيقية.

وقد يزودّنا الرحالة المغامرون بمعلومات قلما نعرف عنها الكثير من مصادر أخرى، لذا كانت الرحلات مفيدة، إضافة الى ما فيها من متعة وطرائف تزداد وتقل بحسب كفاءة الرحالة من عدة نواح.

ورحّالتنا هنري بنديه، فرنسي مغامر، أحب زيارة منطقة كُردستان فإبتدأ بالقسطنطينية (أسطنبول)، وقصد تفليس، وجفله، وتبريز، وأورمية، ووان، وجوليرگ، والعمادية، ووصل الموصل، ثم زار بغداد، وبعقوبة، وخانقين، وكرمنشاه، فطهران، وگيلان، والقوقاز، وقفل عائداً الى باريس.

لقد كانت رحلة بنديه سنة ١٨٨٥، وهذه من الأعوام المهمة في تاريخ المنطقة، وبوسع المعلومات التي يقدّمها، هو وغيره من رحالة، أن تكشف عن أوضاع ماتزال غامضة تاريخيا، وهو رغم أسلوبه الجاف، يطلعنا على أحوال المملكتين العثمانية والفارسية. ويعرف المتتبعون أن الفترة من العهود المغمورة التي مازالت بحاجة الى المزيد من الكشوف.

إستغرقت رحلة هنري بنديه من الخامس عشر من شهر آب (أوغسطس) ١٨٨٥ وحتى السابع عشر من شهر كانون الأول (ديسمبر) من السنة عينها. وبما أننا إكتفينا بترجمة القسم الخاص بالعراق، فينبغي القول بأن رحالتنا قطع الأقسام التي زارها من العراق خلال شهر، من ٤ تشرين الأول (أكتوبر) وحتى ٢ تشرين الثاني (نوڤمبر)، متوقّفا في الموصل وبغداد، ومارا بالمناطق الأخرى سراعا.

لم يكن بنديه وحده، بل كان يرافقه فرنسي آخر إسمه أميل هاملن، كما إحتاج الى أشخاص بصفة مترجمين، كان أولهم جيروم الإيطالي، والثاني سيمون (شمعون)،

والثالث بطرس، والرابع نانو، كما كان له طباخ وفّي إسمه يوفان، بالإضافة الى أدلاء القوافل وأصحاب الكلك والجذافين والشرطة والجندرمة والجنود.

اسم الرحالة الفرنسي Henry Binder وعنوان الرحلة في الأصل: Au Kurdistan, En Mésopotamie et en Perse, Maison Quontin, Paris 1887 أي: الى كُردستان، في (بلاد) مابين النهرين وفارس)، دار النشر كونتان، نشرها في باريس سنة ١٨٨٧، وزيّنها بمائتي رسم من عمل وطباعة كنساك Quinsac عن صور فوتوغرافية وتخطيطات قام بها الرحّالة ورفيقه، وأرفقها بخارطة ذات أربعة ألوان للحدود التركية والفارسية، وقد تصدّرت الرحلة صورة للرحالة بنديه من عمل رينيه جاكيه سنة ١٨٨٧ والرحلة مقدّمة الى الجنرال ف. بيرييه كومندور وسام الشرف، عضو المعهد والمكتب للمسافات، مدير المكتب الجغرافي في وزارة الحرب، نائب رئيس الجمعية الجغرافية، فقد كانت الرحلة بتوجيه من وزارة التربية الفرنسية، ولمهمة جغرافية آثارية. وقد إكتسبت رحلة بنديه أهمية خاصة بفضل الصور والرسوم التي كان يسحبها وللفنان أن يخرجها بشكل جميل وواضح، فكان لنا تراث توثيقي بالغ الأهمية، بعكس إنطباعات وملاحظات غير دقيقة ومحقّة سجّلت هنا وهناك.

جاء في مقدمة الرحالة ما ترجمته:

«إذ كنت أخطط لرحلة الى كُردستان، في بلاد مابين النهرين وفارس، وكنت قد وصلت توا من سفر طويل في جزر السندويج، وأنا في باريس، صيفا، في وقت يهرب منها كل الناس...»، إذا به يقع على ملاحظة يسجلها السيد ركلس، تحفزه على المغامرة، فيبدأ رحلته الى حوض الزاب الأعلى حيث يعيش الكُرد سكان الجبال، والآثوريون (النساطرة)، فكان – كما يؤكد هو نفسه– أول أوروپي جازف ونجح، بعد أن كان قد قام بالمجازفة السيد شولز، وخرّ صريعاً هو ورفاقه.

قبل مغادرته پاريس، يزور بنديه وزير فارس في پاريس الجنرال نزار آغا، ثم يجهز أمور الرحلة بسرعة، فهو متعوّد على الأسفار. أمتعته؟ حقيبة جلدية كبيرة، صندوق صغير، سريران صالحان للنوم في العراء من نوع أسرّة المخيّمات له ولهاملن، رزمتان من الأغطية والشراشف، وآلة تصوير. بينما يرسل عن طريق مرسيليا ما هو ضروري للتصوير من صفائح ومحاليل إضافة الى عتاد السلاح وعلب مأكولات، وقد كان من

المفروض أن يتسلمها في باتوم، غير أنها فقدت، كما سرقت منه في مكوس (گمارك) بغداد مجاميع جماجم وقطع وأغراض نفيسة حصل عليها في منطقة الزاب الأعلى وأماكن أخرى، وكان قد خصصها للمتاحف الفرنسية.

ورحالتنا أوروپي فرنسي، متعال، متغطرس، مع شيء من التعصب والتحامل على الشرق وأهاليه بشكل عام، وعلى الأتراك بشكل خاص. تهمّه بعض المظاهر وآداب المائدة بشكل مفرط، لكنه دقيق الملاحظة في أمور لايعنى بها عادة رحالون غيره، ويتحاشى تكرار ما سبقه إليه آخرون، لذا كانت رحلته مفيدة رغم نواقصها، إذ إنه يبتعد عن الموضوعية والعلمية أحياناً، على الرغم من محاولاته توثيق كلامه بالرجوع الى مصادر ومعلومات مستقاة من هنا وهناك.

لذا يطيب لي، بعد مرور أكثر من قرن على رحلة هنري بنديه الى بلادنا، أن أقدّم يومياته وإنطباعاته الى قراء العربية وأهالي المنطقة. وتوخيا للفائدة المرجوة قمت بالتعليق على أمور كثيرة، وشرحت بعض الأمور، وقد أشرت الى هوامش الرحالة الأصلية بوضع كلمة (الرحالة) بين قوسين، بينما تركت تعاليقي وملاحظاتي بدون إشارة خاصة.

ولما كنت قد إقتصرت على القسم الذي يخص العراق، كان لابدّ من التنويه بأن ما ترجمته بلغ ١٦٦ صفحة من صفحات الكتاب في الأصل الفرنسي، وبالضبط من ص١٦٧ حتى ص٣٣٣، أضفت إليها مقتطفات مستمدة من عدة مواضع من الرحلة، إتماماً للفائدة.

ولإعطاء فكرة كاملة عن الرحلة، قمت بترجمة وإثبات فقرات الفصول كلها، إذ أن عدد صفحات الكتاب هو ٤٤٨ ص، وأدرجت ثبت المواد في صدر الكتاب، بعد هذه المقدمة، بينما إكتفيت في آخر الكتاب بفهرس للمواد المترجمة.

آمل أن يفيد هذا العمل في الكشف عن تاريخ بلادنا وإنساننا بشكل أوفى لإيضاح واقعنا ومستقبلنا.

ي. ح.

محتوى مواد رحلة هنري بنديه

ندرج هنا المحتوى التفصيلي لرحلة بنديه بشكلها الكامل، مشيرين الى الفصول والفقرات التي قمنا بترجمتها الى العربية، ومحيلين القاريء في ذكر هذه الأخيرة الى فهرس الكتاب.

مقدمة

الفصل الأول: من قسطنطينية الى تبليس (تفليس)

السفر من القسطنطينية. القارب النمساوي. البحر الأسود. طرابزون. الوصول الى باتوم. المكوس (الكمارك) الروسية. المسيو دي لاشوم. تفليس. المسيو ماير. إعتماد ترجمان. تجهيزات أخيرة. الرحيل عن تبليس.

الفصل الثاني: من تفليس الى جفله

الرحيل عن تفليس. الوصول الى أكستافا. البريد الروسي؛ الترويكا (الجياد الثلاثة). المراحل الأولى، خصومات صعبة. ألقى حقيبتي. بحيرة كوكتجا، دير سيوانكا. جبل أرارات. أريفان. سُرقنا مرة أخرى. قصر سردارس. أتشميازين، أرمينية. الديانة الأرمنية. دير أتشميازين، المكتبة. اللغة والكتابة الأرمنية. الرحيل عن أريفان.

الفصل الثالث: من جفلة الى تبريز- تبريز

البريد الفارسي. السفر بالجياد (الچپر) والسفر بالقافلة (الكروان) – الكران والفرستك – الإلتقاء بقافلة. أخطاء في تقدير المسافات. إيران. دبي. صاحب جياد السفر (جبر خاني). التلغراف الهندو-أوروپي. مارند. كانو. سفيان. تبريز. المسيو برنيه. القنصلية الفرنسية. الأرمن المختياريون. المسيو مالبرتوي. السطوح. أعياد محرّم. الشيعة والسنّة والفرق الإسلامية، البابية، الكبرية. شارات خضراء. الجامع الأزرق. زيارة الى سيد المخ. جنود قصّابون. إعتماد طباخ. أخطاء السفر. إزدواجية الحكومة التركية. المسيو برنيه يحاول إقناعنا بالعدول عن السفر.

الفصل الرابع: من تبريز الى أورمية – أورمية

السفر من تبريز. بحيرة أورمية. جبرخان مغمور. ملاحظات بشأن البحيرة: كثافتها، جزرها، الملاحة فيها. ندرة العيون الصالحة للشرب. سراي الما. ليلة تحت أعمدة محطّة. وادي سلماس. الجرجاي. ديلمان. الخان من الداخل. مسيرة أيسي سو. كيئافيلان. سهول ملح على ضفاف البحيرة. التلغراف المحلي. الوصول الى أورمية. الآباء اللعازريون. المسيو رنار. المدارس والمنشآت الدينية. الشرطة في الشرق. حملة عسكرية. تنظيم قافلتنا. قلة فوائد الحماية. زيارة الى الوالي. البيزرة. خبز الرقاق (لافاش). تخوّفات الحكومة من الملالي. مراغا، الكهنة المتزوجون. النساطرة والكلدان. مار شمعون. الرحيل الى أورمية.

الفصل الخامس: من أورمية الى وان

السفر من أورمية. تشكيلة قافلتنا. قرية نازي. وصف قروين. كندرفان. تائهون. برديك قرية كردية. أواسن قرية جيورجية. طبيباً رغما عني. مضيق برديك. حصون. كلمة عن الكُرد. فوق القمة الحدود التركية الفارسية. ليلة لدى الكُرد. شجرة مقدسة. الزاب الأعلى. سهل باشكاله. إختفاء المياه. كلائي كيراني. مشاريع زراعية. باشكاله. الپاشا. التلغراف والتلغرافي. الأب ريتوري. طريق العربات بين باشكاله ووان. زيارة صحية. سوء نية أصحاب البغال. عائلة في سفر. تضميد البغال. مشهد الجبال ومنظرها. محمودية. القلعة. وادي خوشاب جاي. وان.

الفصل السادس: من أورمية الى جولميرگ

الوصول الى وان. الإقامة لدى الآباء الدومنيكيين. زيارة الى قنصل روسيا. تنقيبات في طوبره كالح. تحفظات الوالي نحونا. وان: البساتين، المدينة، صناعتها. السكان والجالية الأوروپية. صخرة وان، الكتابات. تأسيس وان. سمير أميس. عشاء لدى قنصل روسيا. صعوبة في سحب مناظر وصور. زيارة طوبره كالح والأطلال. سيارة المسيو كولباكين، رجل الأعمال التركي. بابا ماجان. بحيرة وان، أسماكها، مدودها. الجزر. إختامار. أرمينية وكُردستان. الإستغناء عن جيروم (الترجمان). عشاء لدى قنصل إنگلتره. الكُرد والسلب. إهمال الحكومة ردعهم. الحذر من الأجانب ومشاكساتهم. سيمون (شمعون) ترجماننا الجديد. السيدات الأمريكيات، إبنتهن. سفرة الى دير فاراش، المكتبة. الرحيل عن وان.

الفصل السابع: من وان الى الموصل

القسم الأول: من وان الى جولميرگ

قرى كُردستان. واد أرمني. أرميرو. بيجونكت. منابع دجلة، شميرام سو. أوكوتزفانك. جياد فارس وتركيا. توقف في السهل. صناعة اللباد. وسط الكُرد القراصنة. ضيافة أرمنية. حياة عائلة في قرية أرمنية في كُردستان. مهاجمون مرة أخرى ومتعرضون للنهب. العشر وأعمال زراعية، المحراث. أراض ملغومة. قوجانس. غابة متحجّرة. خيم الكُرد. جولميرگ.

القسم الثاني: من جولميرگ الى العمادية

من هنا تبدأ ترجمتنا للرحلة (أنظر الفهرس والمتن)

القسم الثالث: من العمادية الى الموصل

أنظر الترجمة بالنسبة للتفاصيل.

الفصل الثامن: الموصل – نينوى – خورسباد

أنظر الترجمة.

الفصل التاسع: من الموصل الى بغداد

أنظر الترجمة.

الفصل العاشر: بغداد

أنظر الترجمة.

الفصل الحادي عشر: من بغداد الى كرمنشاه

أنظر الترجمة.

الفصل الثاني عشر: من كرمنشاه الى طهران

الوصول الى كرمنشاه. الدكتور – الطبيب فوم. بيت فارسي. كرمنشاه، تاريخها. ساحة ميداني نو. عرض موسيقي عسكري يومي. ساعة شرقية. أغار حسن. حياة الفلاحين الكُرد وأخلاقهم. زيارة كهوف طاقتي بستان. قصر أيماديي. عشاء لدى

أغار حسن. الرحيل عن كرمنشاه. بيستون، الكتابات. سهنا. كينكوفر. ازاد باد. الوصول الى همدان، هجوم، جبرخاني. المسيو كارابيت. همدان، تاريخها. قبر أستير مردوخاي. قبر إبن سينا. الأسواق. ندافة وحلاجة القطن، أعياد بوريم. الرحيل عن همدان. خان ملاكرد. زيرى. ميريك. نوباران. رضا جاى. ساماماب. سافية. خاناباد. روبات كريم. الوصول الى طهران.

الفصل الثالث عشر: طهران

فندق بريفو. المسيو دي فوفيلليبه. السفارة الفرنسية. الدكتور الطبيب تولوزان. سلام. نزلاء الفندق. السفارات. قوافل كُردستان. السوسمنلية، رقصاتهم. الطاعون والكوليرا. الأربعينيات. وليمة الشاه. الإدارة الداخلية. المدرسة الحربية. أبناء الشاه. الطريق الكبير في طهران الى ريشت، ومن قزوين الى تبريز. مصطفى الممالك. الأرك أو قصر الشاه. زيارة القصر. عرش الطواويس. التكية. مسارح فارس. تنزيهة الشاه. حمايته. الأسواق. التحصينات. الأطراف: طوقان، طبيبه، أيشيرت آباد، قصر قاجار، تدجيريش. الرحيل عن طهران.

الفصل الرابع عشر: من طهران الى ريشت، أينزلي- گيلان

من طهران الى قزوين. قزوين. مازايراه. عنق خارازان. باجينار. الشاه. منجل. الزيتون. السفر الدائري. جسر منجل. رستم آباد. گيلان. البطائح. كودرم. الگيلانيون. ريشت. المسيو فلاسو. مناخ گيلان. دور القلزم. الشبه بين هذا البلد واليابان. السفر من ريشت. بيري بازار. مورد آب. أينزلي. الرحيل عن أينزلي.

الفصل الخامس عشر: باكو- تفليس- وادي القوقاز- باريس

شركة القوقاز والمشتري. لينكوران. باكو، وآبار النفط. حج زاردشتي (كبير). تفليس. الطريق العسكري. من تفليس الى وادي القوقاز. العودة (الى باريس).

من جوليرگ الى العمادية*

وادي وقرية جوليرگ. الإكرامية الفرنسية والإكرامية التركية (البقشيش). زيارة الوالي. الزي الكردي. جولة في القرية. السفر. قافلتنا (الكروان) وحماتنا. الزاب الكبير. عبور جسر. وادي تال. الحقول والزراعة في الجبال. قرى كردية: بيشرية، رابات. نهر (الأنتراد). قبور سريانية. توروب. جيسي وبيرج. بيلات-سو. أعمال فنية مهملة. دال. تحمس السكان. نصل الى الزاب الكبير. مخيّم على الضفاف. الجنينة. غابة كستناء وبلوط. المنّ. وادي (كلي) العمادية. بساتين العمادية.

تقع (جوليرگ) في عمق أخدود واسع[1]. يحيط بالمدينة جبل شاهق الى الجنوب الشرقي، بينما تحيط بها من الأطراف الأخرى، إنحدارات أكثر جمالا. تنساب المياه من الجبال في أربعة جداول، تلتقي في أثنين، حتى تبلغ الجنوب من الوادي، فتنساب بواسطة فتحة متعرجة لاخدود ضيقّ، مشقوق في الصخر، مشرف على الجبل. تنتشر في الوادي باقات أشجار مزهرة تتخللها بعض البيوت.

وفي الزاوية الجنوبية من الوادي، وعلى صخرة صلبة طولها ثلاثمائة متر وعرضها ثمانون أو مائة متر، تقع مدينة حقيقية، نصفها مهمل، مكونّة من حوالي مائة بيت. وقد كان ثمّة قلعة تهيمن على الصخرة، فيما مضى. ويقع اليوم، غير بعيد عنها، جامع، هو أشبه بحصن صغير منه الى مسجد، شبيه بما رأيناه في مدخل وديان (برديك) الضيقة.

فور وصولنا، سألناهم أن يدلونا على مسكن القائمقام[2]. لم يكن في البيت، لكنني لقيت هناك ضابطا تحت أمرته عشرة رجال، فقلت له إنني سآتي لكي أزور الوالي غداً صباحاً، وإني أبحث الآن عمن بوسعه أن يضيفني. فقادني الى محلة يسكنها كُرد من الأرمن والسريان. تقع هذه المحلة خارج المدينة، وسط الحقول، على

* إنه القسم الثاني من الفصل السابع من الرحلة.

(١) تقع جوليرگ Djoulamerg الى الجنوب من بحيرة وان Van وجبالها ضمن سلسلة جبال طوروس في تركيا، وهي مركز أمّارة الحكارية.

(٢) يكتبه بنديه هكذا: Kaimagan.

جبل صغير يشغر وسط الوادي تقريباً. البيت الذي سنسكن فيه مبني بسقف مشترك ضمن مجموعة بيوت أخرى[3]. ويتكوّن منزله من غرفة يتقدمّها مدخل، وبواسطة سلم ننزل الى البيت الواقع في الأسفل.

هذه الغرفة الصغيرة والواطئة قذرة، تعشش فيها كل أنواع الحشرات، ورغم ذلك حللنا فيها.



طباخ الرحلة: يوفان

وبينما كنا نجفف ثيابنا، كان يوفان[4] يقوم بإعداد دجاجة مع قرنبيط ورز، وقد بدت رائحة الطعام لذيذة، فنحن منذ خمسة أيام لم نتناول لحماً طريّاً، وهذه هي الليلة الثانية عشرة ننام فيها بكامل ثيابنا على أسرّة مخيمات. السكان المحيطون بنا لطاف وطيبون، في الظاهر على الأقل[5]. يأتي الحرس[6] ليسألونا إكرامية (بقشيشا). لقد كانوا خدومين، لذا أعطيتهم إكرامية أعلى من المعتاد، لكنهم كالعادة لايرضون، بل يعيدون المبلغ قائلين: إنهم يفضلون عدم إستلام أي شيء. لقد تعودنا على طريقة مثل هذه. إنهم سيعودون بعد قليل لكي يطالبوا بالمبلغ. فهؤلاء الناس لم يتعودوا على أن يعامَلوا بسخاء، لأن الأتراك الذين يسافرون مقتّرون أكثر مما قد نتصور، لايدفعون أي شيء لهؤلاء الفقراء المساكين عدا

(٣) لنذكر أن المنازل في القرى الكردية هي ملاصقة لبعضها، يكسوها سقف مشترك هو بمثابة غطاء مصنوع من الطين (الرحالة).

(٤) يكتبه رحالتنا هكذا Yovan ونظنه تحريف (يونان) الإسم الشائع في مثل هذه الأوساط، وقد وردت صورته ص٧٨ من الرحلة، وهو خادم بنديه وهاملن وطباخهما إبان الرحلة.

(٥) يتحفظ بنديه في الرحلة كلها من سكان المنطقة وأهالي البلد، بل من الشرقيين بشكل عام، فيعكس هكذا صورة غربي متغطرس وأجنبي متعال، ويقدم إنطباعات مضحكة أحياناً.

(٦) يستعمل رحالتنا لفظة Zapatie للدلالة على الحرس والشرطة والجندرمة، وقد ترجمناها بهذه الكلمات، وسيشرح لنا بنديه نفسه الفرق بين هؤلاء وبين الجنود في الهامش ٢١٠.

ضربهم بالعصي. ورغم ذلك فهي عادة أفضل مما لدينا، لأنها ليست هذه الإكراميات التي نعطيها من حين الى آخر، إنما ضربات السياط والعصي تجعلنا أن نطاع ونحترم بشكل أفضل.

٣٠ أيلول (سبتمبر ١٨٨٥)

لقد سقطت الأمطار طوال الليل، وثارت عاصفة هوجاء، ولحسن حظنا يمنع سقفنا تسرّب الماء. يأتي سواس البغال لكي يعدّوا ما يلزم. أكلّف سيمون[٧] بالذهاب لرؤية فيما إذا كان في السوق بعض أصحاب الحيوانات ممن يستطيعون أن يوصلونا الى العمادية، فيعود دون أن يجد أحداً.

يصل الوالي مع رئيس الحرس، فنقدم له ككرسي لوحا فوقه بساط فرو. يقوم كأقرانه بإبداء العروض الأشد صرامة. إذ نقول له بأننا بحاجة الى جندرمة لمواصلة طريقنا، يجيبنا: «الفصيل كله (أعني عشرة خيالة وعشرين مشاة) تحت أمرتكم، وسنرافقكم نحن بأنفسنا، إذا ما طاب الأمر في أعينكم». عليه أن يرسل إلينا أيضاً أصحاب البغال الذين يعرفهم. يوفان يقدم الشاي، ثم ينصرف هؤلاء السادة. الطقس رديء، ونحن مشغولون في كوخنا بترتيب لوازم كثيرة، وتنظيم أمتعتنا وثيابنا. يحملون إليَّ أزياء وأقمشة كنت قد طلبتها بالأمس. أشتريت من قروي زيّ الأعياد[٨]. لكنني إذ أرسلتها الى فرنسا من بغداد، سرقت مع الأسف من قبل المكوس (الكمارك) التركية، ومعها ضاعت نفائس أخرى، كصندوق جماجم كنت قد رفعتها ليلا ببالغ الخطورة من مقبرة كردية وكنت قد خصصتها للمتحف الطبيعي (في باريس).

نستغلّ فرصة صفاء الجو لسحب مناظر أجزاء مختلفة من الوادي، ولكي أرسم،

(٧) يكتبه Simon ونظن إسمه الأصلي (شمعون)، ترجمان رحالتنا في هذه المرحلة من السفر بعد الإستغناء عن الإيطالي جيروم، وسيبقى مع بنديه ورفيقه حتى الموصل.

(٨) هذه أسماء الزي: جلفار = بنطلون. جابيك = كنزة مع أرادان. يلك = كنزة محفورة الأردان. جابكين = كنزة مزخرفة. كياساري = جاكيت قصيرة (سترة). قولو كياساري = سترة من فرو الخروف. شاريك = حزام. كيولوس = قبعة من الفرو. الأبي = العرقجين أو القبعة الأولى. ازادى = القبعة الثانية (اللفة). بول = أحذية. ناشيك = أحذية من الصوف (كلاش) (الرحالة).

وأنا محاط بعشرين شخصاً يتلصصون على خطوطنا «الهيروغليفية»[٩]، منظراً لهذا الوادي الغريب.

بعد أن يعود يوفان آسفاً بأنه لم يلق خروفا، نخرج مع سيمون لزيارة القرية المكونة من شارع تحيط به بيوت صغيرة، قذرة ومنخفضة. نلقى مسجداً تالفا تماماً، وسوقا هو عبارة عن فناء مربع محاط بدكاكين صغيرة يقف في مقدمتها باعة فقراء.



زي نسائي

يستأنف المطر سقوطه، فنمضي لردّ الزيارة للوالي. يقوم الحرس بإستعراض السلاح لدى وصولنا، ويكرر القائمقام وعود الصباح، ثم يغدو الحديث مملاً. فننسحب بعد القهوة التي لابد منها، وندخل الى كوخنا[١٠].

يجيئون إليَّ سائلين بعض النصائح، فإن مريضاً يشكو في الباطن. يقول لي إذ أسأله أين ألمه، وهو يتطلع الى المترجم مستغربا: «وكيف لايعرف وهو طبيب؟»، فننفجر من الضحك. إذ لم يعد إلا القليل لكي أصبح طبيباً رغما عني، ولايكفيني ذلك، بل عليّ أن أشخّص المرض من النظرة وحدها.

بعد العشاء، نقوم بتقسيم الغرفة لكي نبدل ورق التصوير، ونهيء أمتعتنا، فإن البغال ستكون غداً صباحاً، الساعة السادسة، أمام بابنا. إننا ما نزال على الحمية

(٩) يقصد تخطيطات الرسوم التي كان يكمل بهما ما يسحبه من صور، وقد أزدانت بهما صفحات الرحلة.

(١٠) أي الدام، ويستعمل بنديه لفظة Cahute.

والنشاط، لم تنهكنا الأتعاب بعد، ونحن في قلب هذا الوادي البغيض الى القلائل من الأوروپيين الذين حاولوا الولوج إليه، ويهمّنا كثيرا أمر التعرف عليه. إننا منذهلون بجمال المناظر، وقد بدأت فلسفتنا بالتحقق بما فيه الكفاية رغم ضجر السفر والقناعة بأن الأتراك ثقيلو الظل بشكل يدعو الى اليأس.

١ تشرين الأول (أكتوبر)

كان أصحاب البغال حاضرين في الساعة السادسة. ويدلّ مظهرهم على انهم سوف يرضوننا. يأتوننا بسلّة عنب رائع. ولهم زي من أروع ما يمكن أن يتخيله المرء. إنه زي قبلي تماماً: قلنسوة رفيعة من الفرو الأبيض (كيولوس)، سترة صغيرة (قيصرية)، وبنطلون عريض المقاييس (سروال)[١١].

كم كان إستغرابنا بعد تلك الوعود التي أظهرها القائمقام، حين شاهدنا بدل الحماية، جنديين بسيطين، ومن دون بندقية، فكأنهما مستعطيان. قصدت الوالي فقيل لي بأنه مريض، فذهبت الى المخفر الذي يتخذ هناك مهمّة المعسكر، وذلك لكي أشكو الحال، غير إني لم أحصل سوى على الجواب التالي: «لو شاء الكُرد أن يمنعوا سيركم أو أن ينهبوكم، فلسنا نحن من نقوى على منعهم، لذا فمن غير المجدي أن نضحّي برجالنا». ألححت كثيراً، ولكنهم لم يضيفوا أي جندي آخر، إنما ألزموا أحد الشرطيين على حمل بندقيته، ولم يعطوا له عتاداً.

غادرنا المدينة وحمايتنا هذان الجنديان اللذان سيكونان بالأحرى كخادمين ذليلين، لا كحارسين. تركنا وادي جوليرگ من المعبر الجنوبي الغربي المحاط بالسواقي. ثمة طريق أشبه بدرج متعرج محفور في الصخر من قبل السجناء الكُرد أثر إنتفاضة لهم. تصعد البغال وتتهادى متعبة في هذا الممر الضيق. صراخ أصحاب البغال، وصوت سقوط المياه، وحوافر الحيوانات التي تنزلق وتتماسك، كلها أصوات تتقبلها، بل تضخّمها أصداء هذا الأخدود الضيق، فتفضي إنتعاشة لذيذة. نصل بدون ما حادث الى أسفل الصخرة، حيث نجد مجرى مياه، وندخل بعد دقائق وادي الزاب الكبير (الأعلى).

(١١) أسماء هذه الثياب هي: Kiolos, Kiassaré, tchalvar.

ليس النهر الآن سوى غدير أصفر، عرضه بضعة أمتار، ينساب وسط جبال عالية جداً. نجتازه عبر جسر راقص تماما، مكوّن من حصائر صفصاف وأغصان متشابكة. يجتازه أولاً أحد رجالنا وحده، ثم يجتازه إثنان، ثم بغل غير محمل، وأخيراً بغل محملّ. لهؤلاء الرجال طريقة خاصة في الإمساك بالحيوانات أثناء إجتيازها الممرات الصعبة: فأحدهم يمسك بالرأس، والآخر بالذيل، بحيث يكون كلاهما مستعدين لسند الحمولة باليد الأخرى في حالة تأخذ الأرض التي يسند الحيوان رجله عليها بالإنهيار من جراء ثقل وزنه. نتبع طريق الماعز على ضفة الغدير اليسرى، ويتطلب الطريق مهارة من البغال لكي تكون ثابتة الأقدام، أمّا الجياد فلا تقوى على السير فيه. ضفاف الطريق مكسوة بالعوسج، وبكروم بريّة تتسلق الصخور. نصادف أحياناً سراطين صغيرة شبيهة بالتي نلقى أعداداً كبيرة منها على شاطيء البحر. بعد ساعتين من مسيرة صعبة على هذه الضفاف المرتفعة، نتوقف عند منتصف إرتفاع الجبل، فوق موضع سهلي صغير يسمح لنا بإنزال حمول الحيوانات والقيام بإستراحة النهار. هاملن[١٢] يصيد بضعة حجلان، بينما أقوم أنا بحراسة الصناديق والأمتعة.

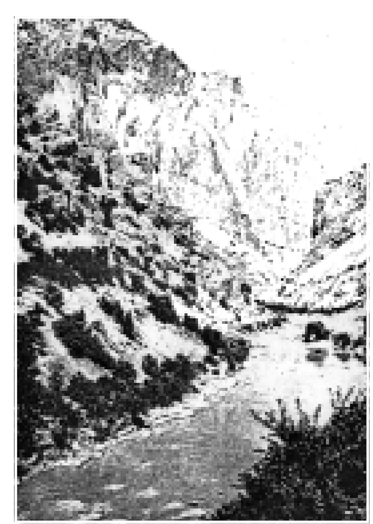
نستأنف طريقنا. وبعد أن نحاذي الغدير، نترك الزاب الكبير لكي ندخل في واد ينساب فيه مجرى مياه إسمه (تال). النباتات هنا كثيرة: الجوز، الدردار، وبعض أشجار قليلة الإرتفاع تنمو كجميزات على إمتداد الغدير.

نصادف عبر طريقنا قرى كردية. لايبدي لنا الأهالي حماسا. بل ينظرون إلينا نظرة لاترضي. ويرفضون تقديم الحليب والدجاج حين نهمّ بشراء ذلك. لقد قام هؤلاء الكُرد بإجراء أعمال بدائية حول قراهم، لكنها مجدية، لزراعة الأرض وإقامة حقول صغيرة وسط هذه الأرض القاسية، إذ ثمّة جدران حجارة تسند الأراضي الزراعية في المناطق المنخفضة من الحقول[١٣]، وحصلوا هكذا على سهول صالحة لزراعة الرز، والذرة والشعير، وبزر القنب، يصنعون من ذلك ضرباً من الخبز المسطح الرقيق يؤكل ناشفاً تقريباً[١٤] نجتاز قرية إسمها (بيسرات) ذات موقع ممتاز، على الضفة اليمنى من

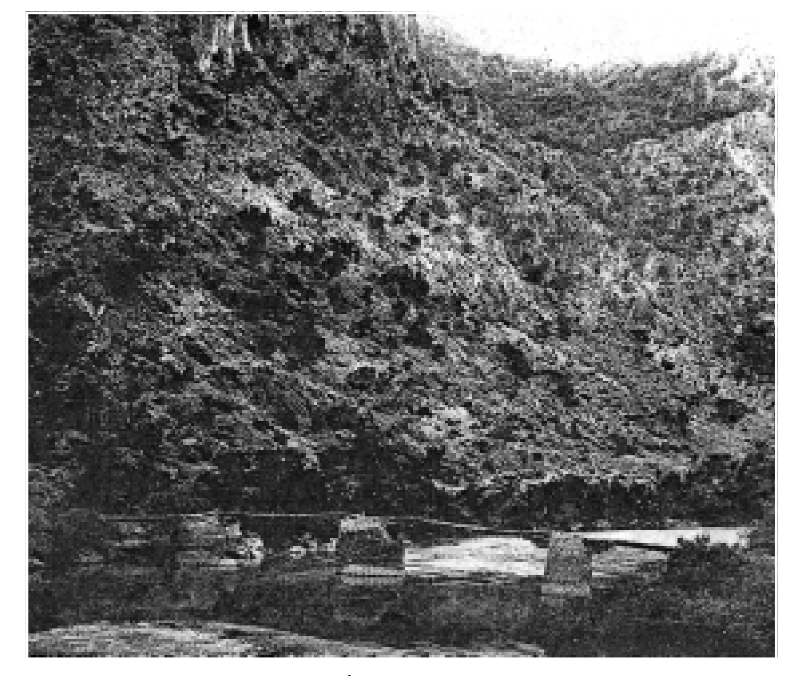
(١٢) Emile Hamelin رفيق بنديه في رحلته، صورته ص٣ من الرحلة، وباسمه أيضاً يدوّن بنديه مذكراته ويوميات الرحلة، لذا يستعمل صيغة الجمع.
(١٣) أنظر الصورة.
(١٤) إنه الخبز المعروف بالرقاق أو الخبزات الرقاق. أنظر الهامش ٢٢٢.



حوض الزاب الأعلى



الزاب الأعلى



جسر على الزاب الأعلى

الغدير(١٥). لا يشبه أهاليها سكان القرية السابقة.وينهض رجال كثيرون لدى مرورنا بهم لكي يحيّونا ويتمنّوا لنا سفراً ميمونا. تتكون القرية من ثلاثين بيتا متناثرة في سفح الجبل. سطح البيت المنخفض يستخدم كممر وباحة ومجاز يؤدي الى البيت الأعلى. صخور كثيرة وقمم عالية تهيمن على القرية، بحيث يكفي إنهيار واحد لكي يؤدي بها الى التهلكة.

المجرى يابس. ينفذ داخل الأرض، ثم يظهر على سطح القاع بعد مائة متر في الجهة العليا من القرية، يبدو وكأن أكثر من خمسين عين مياه تنبجس من الأرض، وتجمع المياه لكي توزع على الحقول. نلاحظ في أعلى الصخور بناية صغيرة بيضاء في الصخر، تبدو كأنها كنيسة قرية.

بقدر صعودنا، يفقد الوادي كل أثر للنباتات، بحيث لايبقى سوى حجارة وصخور. فليست سفوح الجبال سوى أرض صخرية عقيمة، لكننا نشاهد، لدى منعرج الطريق، وفي البعيد، قرية محاطة بأشجار الجوز والحور الجميلة، هي قرية كُرد، وإسمها (رابات)(١٦)، ذات منظر بهي كسابقتها، نعتزم أن نتوقف فيها الليلة.

يستقبلنا الأهالي إستقبالاً حسنا، والفضل لأصحاب البغال الذين رغم كونهم كُرداً، فهم طيّبون وحسنو التعامل، على العكس من الآخرين، فقد كانوا قساة ومتوحشين(١٧).

يبدو أنهم يعرفون فيها شخصاً، إذ أننا رأينا قادما نحونا لكي يعرض علينا الضيافة، ويقودنا فعلا الى بيته. إنه مسكن من دون أبواب.

نرتّب حاجياتنا كالمعتاد. الليلة رائعة. السكّان طيبون كثيراً. أحدهم يمسك لنا الشمعة التي تحترق بين أصابعه. لقد قدم جميع أصدقاء مضيفنا لرؤيتنا، وجلسوا على شكل حلقة حولنا، مدخنين القليون، وكانوا يتطلعون إلينا بإندهاش ونحن ننظف أنفسنا أو نسجل ملاحظاتنا، لكنّا ننزعج من الأمر لو لم نكن قد تعوّدنا عليه. إن

(١٥) إنها قرية Bécherat.

(١٦) قرية Rabat.

(١٧) أليس جميع الناس هكذا. أيها السيد بنديه؟ فلم التعميم والتهجّم؟ أليس أولئك طيّبون كُرداً، فلمَ لايكون الكُرد طيبين؟

هدايا بسيطة هي كافية لكي نكسب أفضالا عميمة. أعطي لاحدهم بوصلة لكي تكون قبلته مكة أثناء تأدية الصلاة، وبعض المقصات والأبر للنساء، والسكّرات للأطفال، وأسألهم فيما إذا كان في القرية ثياب وقطع مطرزة تشتغلها النساء شتاء، فيحملون إلينا قطعا نشتريها، يوفان يقدم العشاء ولتغيير وجبة الطعام، أوعز إليه بإعداد بيض مقلي (أومليت)، أضع فيه عرقا من شراب الروم، فيتعجب القوم لدى رؤيتنا نأكل النار، كما يقولون لسيمون.

٢ تشرين الأول (أكتوبر)

بعد المراجعات الإعتيادية، التي لم أتمكن من التهرب منها يوماً واحداً، حاولت أن آخذ صورة لكل النماذج الذين كانوا مجتمعين لمشاهدة رحيلنا، غير أن العملية لم تنجح، مع الأسف، وكان من المستحيل البدء بها مرة ثانية.

غادرنا في الساعة السابعة. وبعد أن سلكنا طريقاً مليئة بالحجارة ووعرا جداً، أخذنا بالإنحدار من علو تل عبر طريق مضن. في أعلى المنحدر شجرة زعرور وحيدة، لكنها من حجم كبير، نفعتنا كملجأ للإستراحة بضع دقائق. بمحاذاة الذروة واد، نتركه الى اليمين، وننحدر مباشرة بفضل منحدر أقسى من الصعود، بحيث يتحتم علينا الامساك بزمام خيولنا لمساعدتها وسندها. إذ نصل الوادي، نستريح في ظل صخرة قرب قرية متروكة، لم يبق فيها سوى بيوت حجارة بغير سقوف.

نلقى أمامنا منظراً جديداً. الوادي قفر، وتبدو الصخور التي تكسوه وكأنها بقايا آثار بركانية، إذ ليس مستبعداً أن تكون تحركات هذه الجبال نتيجة حمم بركانية. تقوم الساقية بدوران نتجاوزه بتسلق تل صغير، حتى نلج وادياً أجرد، كله صخور وحجارة. الماء الصافي والعذب لايسقي أية أشنة وغرسة صغيرة. إنه اليبس الأشد تعاسة: وادي جهنم. صخور ضخمة على شكل شلالات، بحيث تشاهد في البعيد شبه جسور حجرية صغيرة، من الصعب القول كيف ومتى ومن أقامها. ثم يغدو الطريق، رويدا رويدا، أشد وعورة، وتقوم البغال بآيات من الإحكام المتقن في السير والقفز على الصخور وكأنها ماعز جبلي. لقد جعلت أحد الأشخاص يحمل جهاز التصوير، إذ كان سيتحطم على ظهر الحيوانات.

إسم الغدير (أنتراد)[١٨]، يكبر بفضل فروع مياه كثيرة، وما يلبث أن يصبح الوادي العقيم خصبا، إذ تبدو أولاً بعض الحشائش، ثم أشجار الحور والجوز. ويصبح الوادي المتعرّج عريضاً، ويتخذّ مظهر فردوس أرضي حقيقي، إذ تبان الأشجار المثمرة والمروج والنباتات والحقول المزدهرة. الجوز يملأ الأرض التي تحت أشجار الجوز، والكروم تتسلق المروج العالية وهي محملّة بأعناب ممتازة، وكان المنظر قد تغيّر تماماً.

نصل الى قرية كردية إسمها (أونديك)[١٩]، حيث يعيش السكان، رغم إختلاف عوائدهم، بتفاهم جيد. الماء محصور ومجمع بعناية، وموزع بفن كبير على البساتين، بحيث أن الغدير ينعدم في مخرج القرية، لأن الأرض قد شربته.

أصحاب البغال يبحثون لنا عن عنب، كما إننا نجمع جوزاً، ونأكل كل ذلك ونحن نواصل المسير. ألحظ رحى صغيرة بدائية تعمل بالماء، وتستخدم لصنع زيت جوز غير رقيق.

عند نهاية القرية مقبرة قبورها من طراز خاص، كأنها أتانين حجرية مبنية الأبواب. إنه طراز خاص بالسريان[٢٠].

نسير مسافة ساعة طويلة، ولايظل الوادي على جماله، رغم إنه لايتخذ الشكل الأجرد السابق. عقيب مائة متر فقط، نلقى أنفسنا ازاء سحر جديد، وكأنها ضربة عصا سحرية جديدة، إذ يظهر فردوس آخر. إنها قرية (توروب)[٢١] الصغيرة، حيث سنطلب المضيف ليلاً.

لدى دخولنا القرية، نمر أمام مجموعة رجال جالسين على شكل حلقة، وهم يدخّنون. شعرهم مظفور، وهو ما يميز السريان، لأن الكُرد حليقو الرأس جميعاً، وقد يحملك الأمر على إعتبار الشباب نساء. لايبدو من مظهرهم إنهم متحمسون

(١٨) Anthrad.

(١٩) Eundick.

(٢٠) لايفرق بنديه كثيراً بين السريان والكلدان والآثوريين، ويرتكب أخطاء بشأن ذلك، بل إنه سيقول (اللغة الأرمنية) وهو يقصد (اللغة الأرامية)، ويريد بذلك (اللغة السريانية) التي يتكلم بها الكلدان والنساطرة (الآثوريون) والسريان الكاثوليك والأرثوذكس أنظر ص٣١ من الرحلة، وأنظر الهامشين ٢٦ و٤٢.

(٢١) Thouroub

لإستقبالنا، غير أن (الملك)[٢٢] الذي نقصده، تدغدغه لاريب الهدية التي سنقدمها له بدل أفضاله الحميدة، أكثر من المكافأة السماوية التي سينالها بسبب محبته، يقدم لنا مكانا في منزل أفضل تحصينا من الذي قضينا فيه ليلتنا الماضية.



إمرأة على ظهر بغل

يأتي الناس كالمعتاد ليجلسوا حلقة حولنا، في حين ننصرف الى تهيئة أمورنا. إنه عيد صغير بالنسبة اليهم. يقومون بإشعال النار في الغرفة لأن الأمسية باردة. تضفي رائحة الطعام كراهية على رائحة السكان. إنها العفونة رغم هواء الغرفة، فهي خالية من شبابيك وأبواب. ويتكاثر الحضور، إذ يهرعون من كل مكان لمشاهدتنا، ونظل حتى الساعة العاشرة تحت غزو الأهالي.

٣ تشرين الأول (أكتوبر)

القرية بأسرها مجتمعة ساعة رحيلنا. البغل الذي أمتطيه يسبب لي إزعاجاً، ولم يبق إلا القليل لكي أقوم أمام الحضور بمشهد يبعث على السخرية. لاشك أن هذا الحيوان يرى وزني مزعجاً، لأني لم أكد أضع رجلي اليسرى في السرج، وأرفع رجلي اليمنى في الهواء فوق الحمل الثقيل، حتى شوهد وقد أقعى على مؤخرته.

ومضيفنا السعيد، لاريب، بالهدية التي قدمناها له، يرافقنا نحو مائة متر وهو ماسك بزمام بغلي، بينما يمسك إبنه بزمام بغل هاملن. وتودعنا العائلة بأسرها،

(٢٢) قال بنديه أن الملك Mélike هو الكاهن، بينما المقصود هو البطريرك أو المطران أو الكاهن أو مختار القرية. وهذا دليل على أن القرية في الأصل آثورية مسيحية.



قبور مسيحية في كردستان

فنسلك طريقا رديئاً وسط بستان ساحر، كما في الأمس. السياجات الحجرية التي تحمي الحقول تسبب إزعاجاً كبيراً لأمتعتنا، فإن البغال تندفع نحوها وهي محمّلة، فتلحق صدمات قوية بالجدار والأمتعة.

وبعد مسيرة ساعة يختفي أي أثر للنبات، ويجفّ الغدير. وينعدم الطريق، فنقتفي قلب الوادي وسط صخور في أخدود ذي حواجز عمودية وعلو شاهق، بحيث يبدو المسار متعذراً. ونصادف جهة اليمين ساقية من سواقي العزلة، فيها يسيرٌ من الماء. وثمّة قريتان صغيرتان، الواحدة كردية والأخرى سريانية، ترتفعان جنبا الى جنب، وللحصول على مورد زراعي يمكنهما من العيش، ثمّة أرض تسقيها هذه الساقية. القرية الكردية تسمى جيسي، والسريانية بيرج[٢٣]. من الممكن أن تختفي هاتان القريتان يوماً ما، لأنه يكفي سبب بسيط يقطع عنهما الماء لكي تجف النباتات، وتضطر القريتان كلتاهما الى الهجرة. وكم صادفنا في طريقنا من قرى مهجورة.

(٢٣) Berdj, Djessi.

خلال ساعتين نصعد السفح الأيسر حلزونياً، حتى منتصف الجبل، حيث تنبت بعض أشجار البلوط كجميزات، ثم تغدو الأرض عارية. يشبه المنظر ما كنا قد رأيناه قبل وصولنا الى (وان)، فهي الجبال عينها، من دون إنتظام، لكنها هنا أكبر وأكثر وعورة. نشعر وكأننا تائهون، وقد نضيع حقاً في هذه المهالك لو لم يقدنا من ضيعة الى أخرى أهالي القرى أنفسهم.

يتغير المنظر في أعالي القمة، فالأرض أكثر خصوبة، والحشائش والجميزات تبدو، بمسحة أقل داكنة. وليس النزول بأسهل من الصعود، حتى أضطررنا أن نترجلّ عن البغال. نصادف في الأسفل غديراً آخر، إنه (بيلات-سو)[٢٤]. الوقت ظهراً. لذا نتوقّف تحت ظل شجرة بضع دقائق لإراحة الجياد، ولتناول قليل من العنب، فهو الشيء الوحيد الذي قد بقي لنا.

الضفة اليمنى من بيلات-سو، على بعد خمسمائة متر من أسفل المجرى في إتجاه سيرنا، مرج ثريّ وشديد العلو عمودياً. نصادف أطلال جسر قديم قد بقيت منه خمسة أو ستة أقواس. نتساءل كيف أن أعمالاً كهذه قد أهملت بغباء؟ ترى لمن يعزى مثل هذا الأمر؟ والى أية حقبة يعود؟ يقدمون لي مئات الأجوبة على أسئلتي، غير أن إنعدام الكتابات يجعل من المستحيل إستعادة تاريخ البلد.

بعد هنيهات من إستراحة، نرتقي السفح المعاكس لهذا الوادي الجديد. فنصل بعد ساعة من الصعود الى أول بساتين قرية (دهال)[٢٥]، وهي مركز مهم، وفيها قائمقام ومخفر صغير للشرطة. نجتاز القرية بمحاذاة السفح الشرقي على علو يشرف على القمة التي الى يميننا.

عدد البيوت خمسون، وتبدو حقيرة. تبان الأفنية الصغيرة للحيوانات مليئة بالتبن.

نتوقف، بعد لحظات من عبورنا القرية، قرب عين ماء تتقافز فيها الضفادع. وأثناء إهتمامنا بالحيوانات، يمضي يوفان الى القرية ليجد لنا طعاماً.

(٢٤) Belath - Sou

(٢٥) Dhal

القائمقام وقد رآنا، يرسل شخصاً يدعونا للذهاب اليه، أطلب الى سيمون أن يجيب القائمقام بأني لا أحب الأزعاج، فإني مستعجل، بوسعه أن يأتي بنفسه أن شاء ذلك، وأكلفه في الوقت عينه أن يسأله شرطيين آخرين. أن هذا الرجل الطيب لايفهمنا دوماً كما ينبغي. فيقول للقائمقام إنه يكفينا من الآن فصاعدا شرطي واحد.

ورويدا رويدا يأتي جميع أهالي القرية لمشاهدتنا. إنهم لايوحون إليَّ بالثقة. يحومون حول الأمتعة بفضولية بحيث أضطر الى جمعها والإيعاز بحراستها، ثم أعطي إشارة السفر.

يريد السكان أن يبقونا عندهم، إذ يقولون بأن العمادية بعيدة جداً، غير أن سيمون، تلبية لأمري يسترق السمع إليهم دون أن يلحظوا الأمر، ويقول لي إن في نيتهم سرقتنا ونهبنا، وأن لهم من الوسائل ما يجعلهم يخفون كل ما يطيب لهم دون أن نشعر. وأنا في قلق، طالما فريقنا على غير أستعداد بشكل كامل، والسبب في من شاء أن يعرقل ذلك ويشيع الفوضى في أمر التهيؤ للسفر. أخيراً، نغادر القرية في الساعة الثالثة.

الوادي أجرد وصخري لدى تركنا البساتين، ثم تظهر بعض الشجيرات التي تنتج ثمراً بكميات كبيرة، يجتنيها السكان في سلال كبيرة. ويأكلونها. يضيق الأخدود، فننحدر في درب وسط أدغال وعوسج وسنديان ذي حجم صغير. أخيراً، نلقى في الأسفل مياها خضراء صافية، مياه الزاب الكبير، وقد غدا نهراً عظيماً. ضفافه خضراء وبساط مياهه الجميل ينعش بشكل عذب منظر الطبيعة الذي ينعكس فيه. نصل الضفة في الساعة الخامسة. بعد ساعة سيكون الليل دامسا، ولا نعرف أين نجد لنا مأوى. ضفاف النهر ساحرة، أشبه بحديقة حقيقية من الأسفندان والزان والصنوبر والكروم المتسلقة فوق الأشجار.

نسير بمحاذاة النهر نحو كيلومتر تقريباً، ونصل أخيراً الى جسر. على مقربة من الجسر كوخ صغير من أغصان متروكة، أود أن أقضي الليلة فيه، لأن الظلام قد أشتد بحيث لايمكننا بعد مواصلة السير عبر الصخور، إذ بوسعنا أن نتيه، أو أن تتكسر سيقان البغال.

غير أن أدلاّء القافلة يزعمون بإنه ليس من الفطنة التوقف هناك، إذ بوسع القوم أن يهاجمونا، ومن الأوفق العبور الى الضفة الأخرى من النهر، إلا أن الأمر شاق، لأن سطح الجسر ليس سوى حصران متحركة تنقصها أغصان كثيرة، وثمّة شقوق تغور القدم فيها، لذا ترفض البغال العبور بإصرار. ومن ناحية أخرى، فإن النهر عميق جداً، فلا يمكن عبوره على القاع. ويدوم اللغط والنقاش طويلاً. وقد كان الأدلاء يتكلمون الكردية والكلدانية (السورث)[٢٦]، ويوفان يتكلم التركية والكلدانية، وسيمون الذي لايتكلم سوى التركية، يترجم كلامنا ليوفان، وهذا يترجم كلام سيمون لأصحاب البغال. فيتم الإتفاق أخيراً على حمل الأمتعة بالأيدي، ثم عبور البغال في الماء. وفعلا يتم تنزيل الأحمال، ورفع السرج، ووضع الحمولة على الأيدي، وكل ذلك بمشقّة، ثم كان علينا أن نجعل الحيوانات تعبر، فشاء الرجال أن يكونوا في طرف من النهر، بينما نكون نحن في الطرف الآخر. ورغم ثقتي بهم، فإني كنت أفضّل أن أضع كل شيء تحت أمرتي. وبما أنهم كانوا يخشون النهر، بحيث لم يريدوا أن يدخلوه ليلاً، كان عليّ أن أنزع ثيابي، وأن أشدّ حبلا على الحزام، وأبحث عن القاع التي ليس مخاضها عميقاً.

بعد إيجاد القاع المناسب، وربط البغال من ذيولها، الواحد بالآخر، قام رجلان بسحب الحبل المعلّق برأس أول حيوان، وذلك من الضفة الثانية. وكنت قد صعدت فوق الحيوان، بغية اثارته، بينما كان يعمل الأدلاء على إدخال القطيع في الماء بضربات الهراوات.

لقد كان هذا التمرين الليلي من الأعمال الشاقة، ولم تكن الليلة مقمرة، بحيث كنا لانرى إلا قليلاً. أخيراً، أنتهينا من كل شيء في الساعة التاسعة والنصف، وكنا على وشك أن نحطّ الرحال حين لمحت في البعيد ناراً.

أرسلت أحد أدلاء القافلة ليتعرف على الناس المخيّمين قرب تلك النيران. وبعد نحو الساعة، كنت خلالها أسخن ماء للإغتسال، وأتمشى حول البغال وكوم الأمتعة، عاد سائس البغل حاملا خبرا سارا. في الظلام، حملنا البغال وسرنا، فوصلنا بعد

(٢٦) يقصد بنديه باللغة الكلدانية اللغة المحكية لمسيحيي تلك المناطق، وتسمى بـ(السورث) يتكلمها الكلدان والآثوريون في كردستان.

نحو ثلاثة أرباع الساعة لدى أناس طيبين إستضافونا قرب نارهم.

إنهم مزارعون ورعاة صغار، يخيّمون حول محاصيلهم وقطعانهم، ويشعلون نيرانا شديدة لحماية أنفسهم من الخنازير البريّة أولاً، كما من الدببة الكثيرة في هذه الربوع.

نسوّي أفرشة المخيّم فوق رحى. يوفان يعدّ الشاي. وأغوص أنا في فراشي محاولا أن أنام، تاركا هاملن ذا الشهية الجيدة يبحث في قدور المطبخ فيما إذا قد بقي شيء يؤكل.

البلوط

٤ تشرين الأول (أكتوبر)

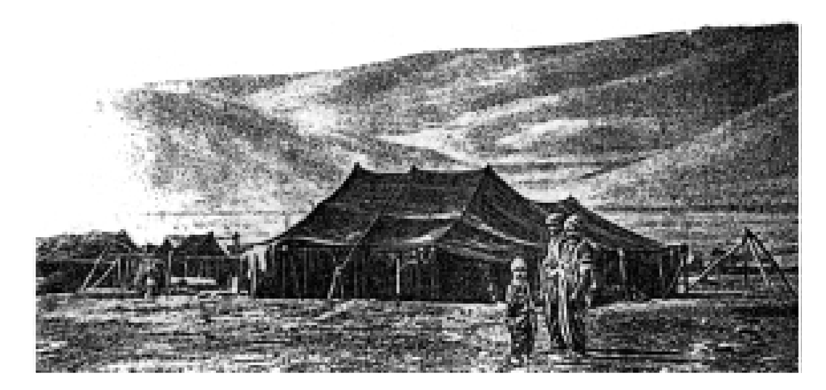
كنا قد إتّخذنا بالأمس، لحسن الحظ، إحتياطات بأن نكسو أغطيتنا بمعاطف مطاطية، وأن نفتح شمسياتنا فوق رؤوسنا، فقد كان الندى غزيرا جداً، ولولا ذلك لتحوّل كل شيء الى رطوبة، وكأنّ الدنيا قد أمطرت.

قرب النار، كان قرويّونا راقدين دون أن يشعروا بأخطار تلك الليالي الباردة ودون إتخاذ أية إحتياطات، وكان أطفالهم، وبعضهم عراة الرأس، أو عراة الرأس والصدر، يغطّون فوق الأرض بنوم عميق. فلا مدعاة للعجب إذا ما كان بعضهم يتوفّون، إذ بوسع صحة حديدية فقط أن تصمد.

نسأل سيمون أن يحمّلوا الأمتعة حتى نعود أنا وهاملن من الجسر. عدنا في الساعة السابعة، فكان لنا أن نستأنف المسير.

نعبر رافدا مهما من روافد الزاب الكبير، لم أتمكن من التعرف على إسمه، وذلك مخاضةً، ونجتاز منحدر السفح الأيمن عبر غابة صغيرة من البلوط، حجم بلوطاتها كبير بشكل غير إعتيادي[٢٧]، وبكميات كبيرة، تغذي خنازير كثيرة. إذ نلقى آثار العديد من هذه الحيوانات.

(٢٧) أنظر صورة البلوط.



مخيم أكراد

أن تنوّع البلوط لايحصى. فالأوراق والبلوطات ذات ألف شكل. نشاهد فوق أشجار البلوط المنّ الذي يسقط حتى اليوم، كما في أيام العبرانيين[٢٨]. إنه يبدو فوق الأوراق والبلوط كندى (صمغ) القطران، إنما لايعرف فيما إذا كان عرق النبات أم ندى، لأننا نلقاه كذلك فوق الصخور في الصحراء وفي غابات البلوط، بإستثناء أشجار أخرى.

يستغرق قطعنا طريق هذه الغابة ساعتين. تبلغ أعلى شجرة فيها ستة أو سبعة أمتار، ثم تنتهي الأشجار، فنلقى أنفسنا وسط صخور. نصادف العديد من الدراج.

يمتد في أعلى الجبل واد آخر عقيم وقاحل، تنمو فيه حشائش فقيرة ويابسة لا غير. شجرة واحدة عارية تنتصب في السهل، بدلا من أوراق، نلقى في أسفلها أقمشة شعر وصوف قطعان[٢٩].

ثم آخر صعود لنا. نشاهد مرة واحدة، في الطرف الأخر، صحن العمادية الصغير[٣٠]، ثم في البعيد من خلال أخدود عميق علينا إجتيازه وسط جبلين فيهما

(٢٨) راجع سفر الخروج من التوراة، الفصل ١٦، العدد ١٣-٢١.

(٢٩) من الأشجار المقدسة التي يكرمها بعضهم في أماكن ماتزال بعضها معلومة.

(٣٠) هكذا يسمّي بنديه المرتفع المنبسط الواقعة عليه بلدة العمادية، فهو أشبه بالصحن المسطح. ويكتب رحالتنا العمادية: Amadiah

قمم. الطريق المشقوق في الصخر من الطرق الوعرة جداً، وسيمون الذي أراد البقاء على ظهر بغله، سقط وتدحرج وإياه. وتزلق القدمان الخلفيتان للبغل الذي يحمل آلة التصوير في الهاوية، لكنه يتشبث بالطريق، بحذاقة عجيبة، بواسطة القدمين الأماميتين. ويشاهده السواسون فيهرعون إليه، وفي اللحظة التي كان يوشك فيها أن يسقط، يمسكونه من ذيله ويجرونّه الى سطح الطريق السوي.

وأخيراً نصل الى البيوت الأولى من بساتين العمادية، اما المدينة نفسها فتقع فوق صحن مسطح، وعلينا أن ننحدر حتى أسفل الوادي عبر البساتين برمّتها، ثم علينا بالصعود.

أشجار التين، والرمّان، والكروم هي في أكتمال النضوج. وتبدو الرمانة الأولى التي نقطفها ونحن عابرون لذيذة الطعم. أي تغير في درجة الحرارة والمناخ خلال أيام.

إننا الآن في البلد الحار، مع إننا لسنا جنوب جولميرگ إلا بدرجة واحدة، وبدرجة ونصف عن وان.

من العمادية الى الموصل

العمادية. الدخول الى المدينة. القائمقام: السيد زيا. السكان، وإشتغالاتهم. تجوال في المدينة. حديث مع القائمقام. الرحيل عن العمادية. أرادن: عشاء مع الخوري، ترجمة سيمون. نترك وادي گارا. رهشفري. دهوك. سهل الموصل. قرى زراعية. ضفاف دجلة. شرور الأهالي. السقوط والحوادث في الطريق. الوصول الى الموصل. يرفضون إستضافتنا. الى القنصلية الفرنسية.*

تقع العمادية على صحن مسطح إرتفاعه نحو ثلاثمائة أو أربعمائة متر فوق معدل سطح الوادي. البساتين خلابّة. يترك السكان المدينة للسكن في البساتين، ولايظل فيها سوى التجار واليهود. لقد كانت المدينة في السابق قلعة ذات شأن، كما يمكن أن نحكم عليها من الأطلال[٣١].

* إنه القسم الثالث من الفصل السابع من الرحلة.

(٣١) بحق يقول بنديه أن العمادية كانت ذات شأن، فهي مدينة آشورية قديمة (أمياتي)، ثم عاصمة أمّارة بهدينان الشهيرة، وقلعة مهمة جدا، ورد ذكرها في أخبار الملك الآشوري شمسي-أدد الخامس (٨٢٣-٨١٠ ق.م)، ثم بنيت القلعة في العصور الإسلامية، وجددت أكثر من مرة.

الصحن كله محصّن، وثلاثة أبواب تتيح الدخول إليها. ندخل نحن من الباب الشرقي، سالكين طريقا مشقوقا في الصخر، قد كان له أن يكون المدخل الوعر بالنسبة للمهاجمين[٣٢]. وثمه رواق ذو قوس وباب كبير حديدي مقفل ومجموعة حراس من الجنود المساكين يقفون في المدخل. والضابط الذي لم يكن يعرف مع من يتعامل، خشية قدوم سلطات مهمة، يقوم أمامنا بإستعراض للسلاح. نطلب أن يقودنا الى الوالي (القائمقام)[٣٣].



فرسان كُرد

ليست المدينة سوى كومة خرائب، يعيش فيها شعب بسيط. وليس قصر الوالي (القائمقام) سوى بناية كبيرة، إنما في حالة مزرية.

نترك سيمون في حراسة القافلة (الكروان)[٣٤]، ونقدم أنفسنا، أنا وهاملن، الى الوالي (القائمقام). نفهم بفرح إنه يتكلم الفرنسية. ويزداد فرحنا إذ نلتقي بالسيد

(٣٢) إنه باب الزيبار، والبابان الآخران باب بهدينان أو باب الموصل، وباب السراي أو الأمّارة، ومازال بعض آثارها الجميلة شاخصة.

(٣٣) يستعمل بنديه بدون تفريق كبير مصطلح الوالي Gouverneur ومصطلح القائمقام Kaimagan ومعلوم بأن الوالي مسؤول منطقة كبيرة نوعاً ما، بينما يدير القائمقام ناحية صغيرة. وقد كان يحكم العمادية يومذاك قائمقام عثماني يعين بإرادة سنيّة من أستانبول، ويتبع مركزية صارمة، لأن العمادية بعد سقوط أمّارة بهدينان سنة ١٢٥٠هـ/١٨٣٤م على يد محمد پاشا الصوراني الملقب بميري كوره. وإندحار سعيد پاشا إبن محمد پاشا إبن إسماعيل پاشا سنة ١٢٥٨هـ/١٨٤٢م للجيوش العثمانية، ومحاصرة العمادية مرة أخرى، في السنة التالية، من قبل والي الموصل العثماني، أجرى عليها أخيراً نظام الحكم العثماني سنة ١٢٧٣هـ/١٨٥٧م. فلا عجب أن تتضرر العمادية كثيراً بسبب هذه الحروب والمنازعات، فتصبح كومة خرائب، كما يلقاها بنديه (أنظر: أنور المائي، الكورد في بهدينان، الموصل ١٨٦٠، ص١٧٢-١٧٧، صديق الدملوجي، أمّارة بهدينان الكردية أو أمّارة العمادية، الموصل ١٩٥٢، ص ٣٩-٤٠)

(٣٤) ترجمنا لفظة Caravan التي يستعملها بنديه، وجميع الرحالة، بكلمة (قافلة).

زيّا الذي كنا قد صادفناه مابين باشكاه وواه. يتذمّر القائمقام من رداءة الطرق ومخاطرها. أظن بأنه قد أرسل الى هاهنا بسبب كارثة ما، وليس له سوى يومين على وصوله، ويتشكّى كثيراً من طباع أهالي البلد، فهم ينظرون إليه بعين شزرة لأنه يتكلم الفرنسية ويرتدي ثياباً أوروپية. يستقبلنا إستقبال شخص مثقف ومهذب، ويضع ذاته تحت تصرفنا، وينصحنا أن نذهب فنسكن في بيت يعود للدومنيكيين[٣٥]، غير مأهول حالياً، إذ سنكون وحدنا، وبحرية أكبر.

إذ نودع القائمقام، نسأل أن يوصلونا الى الدار المذكورة. إنها تقع في الجهة الغربية، على ضفة الصحن المشرف على الهاوية (الروبال).

البيت مشيّد في فسحة فناء مسيجة بحائط. ننزل أحمال البغال، ونرتب الخيم (الجوادر)، ونسكن في غرفة صغيرة واقعة في الطابق الأرضي، ثم نخرج حالا لزيارة المدينة. كأنها قد أصيبت بآلاف إطلاقات القذائف لكي تمسي على هذه الحال. نلقى، بين الآونة والأخرى، كوخا حقيرا يكاد يكون صالحا لمأوى عائلة فقيرة. أهم مهنة الأهالي: الحياكة والغزل. نجتاز سوقا، ويزعجنا جندي شبه مجنون فيؤخرنا ربع ساعة، وسيمون يقوم بالترجمة. يحكي لنا بأن الحمّى تصيبه وهو بحاجة الى كينين[٣٦]. المدينة العليا لايسكنها سوى يهود، فهم يشكلون قسماً كبيراً من السكان، ويعيشون بتآلف مع المسلمين، وتتزوج اليهوديات أحياناً بمسلمين، بينما لايتزوج اليهود نساء مسلمات[٣٧].

الناس قصار القامة وملامح أوجههم معتدلة. أما بالنسبة للنساء، فلم يعط تزاوج

(٣٥) الدومنيكيون آباء مرسلون ينتمون الى الرهبنة المسماة برهبنة الواعظين، مؤسسهم القديس عبد الأحد (دومنيك) في القرن ١٣م. وقد كانوا من أصل فرنسي يومذاك، وسبقهم الى بلادنا إيطاليون، وكانت لهم رسالة في الشمال في بعض الفترات والمناطق، كما في العمادية. جدد رسالتهم فيها الأب لمي سنة ١٨٦٣، وكانت قد أغلقت يوم زار بنديه العمادية.

(٣٦) كان ينظر الى جميع الرحالين الأجانب كأطباء، وقد تأخر الطب في الفترة العثمانية في بلادنا كما هو معلوم. أنظر الهامش ٤٣.

(٣٧) ليس القول الأخير أكيداً. ويستعمل بنديه لفظة (محمدين) بدلاً من (مسلمين). ويتناسى بنديه بأن معظم الأهالي هم في البساتين صيفاً، بينما ليس لليهود بساتين، لذا ظنّ عددهم أكبر مما كان عليه فعلا.



العمادية

الجنس اليهودي والجنس الكردي نتائج جيدة، فهن قصيرات ومزربات. وجههن ليس كريهاً، غير أن جسدهن المستخدم بزواج مبكرّ جداً، لم يتح لهن بلوغ النضوج. فآذى العنصر كله. ونحن لا نلقى شكلاً جميلاً لنساء هنديات أو يهوديات في الجزائر أو في مراكش.

السوق صغيرة جداً، تحميها أغصان تضمن لها نور الشمس. نلمح من بين المارة أشخاصاً سودا. النساء ينظّفن الحنطة أمام أبوابهن، ومن خلال الفتحة المستخدمة في المنازل الضيقة، نرى نساء ينسجن الأقمشة بصناعة بدائية.

ثم نعود الى الجهة الشمالية الغربية من الصحن المسطح، من جهة بيت الوالي. وندخل الى خان قديم متهدّم، كما هي بقية الأماكن. إنه قائم، مثل مسكننا، على حافة الصحن، حيث نجد منظراً جميلاً جداً مطلاً على البساتين والأخدود الذي جئنا منه. تتعارض نضارة البساتين مع المنحدرات القاحلة المكسوة ببعض عوسجات. بوسعنا القول إنه ضلع فهد كبير يتهادى في البعيد.

نقضي الأمسية في إعداد آلة التصوير، بينما يرقد سيمون، تقلقه أحلام مزعجة، أمّا يوفان فأقل تأثرا، فينسى أن يضع ماء في القدر بحيث يغدو اللحم والملفوف ناشفاً، فننام من دون أكل، لكننا ننام بشكل أفضل.

٥ تشرين الأول (أكتوبر)

نقوم بزيارة القائمقام، ونسأله، إن كنا نستطيع بواسطته الحصول على قافلة (كروان)، فيضع حالا رئيس الجندرمة (الشرطة) تحت تصرّفنا. وأثناء ما يهتم هذا بنا، نتحدث الى السيد زيّا. إنه يتذمر بمرارة من عدم شعور رؤسائه بالمسؤولية، وإنه حين سمع مؤخراً بضرائب المناجم وزارها، تحدث عنها الى رئيسه مؤشراً الفائدة التي ستكون للدولة في إستغلالها، إلا أن الجواب كان بأن الأمر لايعنيه، وأن لايتدخل منذ الآن فصاعدا في شؤونه. وهو يثق قليلا جداً في الرجل المكلّف بالبريد مابين العمادية والموصل، بحيث يطلب منا أن نوصل له رسالة أو رسالتين خاصتين الى مكتب الموصل.

لدى خروجنا من لدن الوالي، لاقينا رئيس الجندرمة الذي عرَّفَنا على شخص تركي-عربي، نصف مسلم ونصف يهودي(٣٨). طلب منا ثلاثة مجيديات ونصف عن الحصان الواحد للذهاب الى الموصل، وهو سعر باهظ، لأن السعر الإعتيادي لم يكن سوى خمسة وثلاثين قرشا، ثم إنه لايريد أن يتخذ الطريق التي قررناها. نخلص الى الإتفاق حول النقطة الأولى، شرط أن يوافقنا على الثانية، ويقدم رئيس الجندرمة نفسه ضماناً لتنفيذ العقد بالنسبة للطرفين. أسلم ليرة تركية من العربون الى الشيخ المسلم، ولكي أشكر الموظف، أعطيه بوصلة صغيرة من فضة مذهّبة كنت أحملها في سلسلة الساعة. كنا قد جلبنا معنا نحو عشرين بوصلة، وحين كنّا نود التعبير عن إعترافنا بالجميل تجاه شخص لانستطيع أن نكرمه بقطعة نقود، ولو أنه كان سيتقبلها، كنا نفكّ السلسلة، وبعد دقائق نضع بدلا منها أخرى لإستخدامها للغرض عينه.

(٣٨) يبالغ بنديه في تشخيص هذا الرجل، وهو يفعل ذلك كثيراً عندما يتحدث عن الأشخاص والعادات.

تنقضي ساعة والبغال لم تصل، ويأتي دليل القافلة ليعلمنا بأن أحد حيواناته مريض، ولايمكننا أن نسافر اليوم. كنت متأكداً إنها أكذوبة. فأجبته: إذا لم تكن الجياد والبغال جاهزة خلال نصف ساعة، فعلى رئيس الجندرمة أن يتدبّر الأمر. فكان عليه أن يستنجد بعمامته البيضاء، لأن خمسين من الضربات المحكمة ستعلّمه كيف يلتزم بكلامه، لذا نراه يأتينا بعد ربع ساعة مع جميع حيواناته.

ساعة الرحيل، يأتيني التركي الشيخ قائلاً إنه لايستطيع أن يتخذ الطريق التي قد إخترناها. مشاهد جديدة، ومناقشات أخرى. أخيراً، بعد نفاذ الصبر، أترجّل عن الحصان وأمسك الرجل من كتفه، وأتوجه به نحو قصر الوالي. فلا يشك الرجل بضربات العصا، لذا يهرع رجاله، وهم يقبّلون قدمي وثيابي، مترجّين بأن لا أعاقب سيدهم.

نجتاز الأحياء الفقيرة التي وصفتها، ونخرج من الباب الغربي. إن هذا الباب غريب جداً. العقد الخارجية هندسية ومزينة بزخرفة عربية (أرابيسك) وأفاع متشابكة(٣٩).

الطريق نصفه محفور في الصخر، والنزول خطر جداً، بحيث كنا بحاجة الى الترجّل على الأرض. إنه درج نصفه متهدّم، مكوّن من صخور ومن حصى مهذّب وصالح للإستعمال بفضل عامل الزمن.

بعد مسيرة عشرين دقيقة، نتمكن من إمتطاء الحيوانات، لأن الطريق الآن سهل، وسط عوسج ورمان وأدغال. وتنتهي البساتين، أمّا المنظر فلا يزال منثوراً بشجيرات. نقتفي المسار الشمالي المتجه جنوباً لواد كبير حيث يصبّ نهير (سرني) المنساب من گارا(٤٠)، ويمضي حتى يصبّ في الزاب الكبير. وبالسير وسط الضفاف، نسيطر على العمق، فننذهل أمام منظر ظلال قمم الأخدود الآخر الذي يشكل سلسلة طويلة تمتد خطّاً مستقيماً حتى يتيه النظر فيها شرقاً وغرباً.

(٣٩) يقصد به باب القلعة أو باب بهدينان أو باب الموصل، وفيه نقوش وإشارات، منها الحية والعقرب وطير يشبه الصقر، ويشرف على الوادي العميق. وتدور حوله وحول البابين الآخرين حكايات شعبية مختلفة.

(٤٠) نهير يسميّه Surné ولعله (صبنا) أما (گاره) فالجبل المعروف في المنطقة، يقابله (متينا).



قصر الإمارة في العمادية

ألتقط صورة شاملة للعمادية من أعلى جبل صغير، ولكي تكون آلة التصوير جاهزة بسهولة، أجعل شرطيّنا الوحيد يحملها على ظهره، وهذا، يرى أطراف الحقيبة صلبة، ينزع بنطلونه ويضعه كمسند مابين الحقيبة والكتفين دون أن يعبأ بخصوصية الزي.

أطراف العمادية هي الآن أكثر هدوءً من ذي قبل، بعد أن كانت الى بضع سنوات موبوءة بقطاع الطرق، بحيث كانت جرائم القتل فيها يومياً. نصادف طوال الطريق رمم حجارة ذات ذكريات غير محمودة، تشير الى موقع حدثت فيه جريمة ما، فقد عثر على رجل ميت في الطريق، فأقيمت في الموضع، بل تدفن بالقاء حجارة عليها. نصادف أيضاً أربعة لصوص مقيدين بأغلال خشبية، يستريحون في الظل، يرافقهم شرذمة مكوّنة من خمسة جنود(٤٠)*. نلاحظ في سفح الجبل مغائر وكهوفا طبيعية ليس فيها ما يسترعي الإهتمام، تستخدم ملاجيء للقراصنة والحيوانات، وأحياناً لمسافري القوافل أثناء الليل.

(٤٠)* إنطباعات رحالتنا، كالعديد من الرحالة، نتيجة مشاهدات سريعة، وملاحظات قد يبديها أشخاص معينون لايعكسون وجه الحقيقة، فلا عجب أن يقع الرحالة في مبالغات وأخطاء ينبغي التنبه إليها وعدم إعتبارها حقائق تاريخية موثوقة.

ونصل أخيراً (أرادن)، وهي قرية للكلدان. نحلّ في البيت الذي يسكنه الخوري (الكاهن)[٤١]. يقوم بضيافة كريمة تجاهنا، ويقدم لنا غرفته الخاصة. لقد كان في مرسيليا، ويعرف بضع كلمات إيطالية، إنما ليس بما فيه الكفاية لكي نتفاهم. يريد بكل الوسائل أن نتقبل منه غرفته. إنها عبارة عن غرفة صغيرة مربعة، أثاثها كله مكوّن من سرير خشبي. ويلحّ لكي نشاركه العشاء. فيحملون إلينا فوق منضدة صغيرة، علوها عشرون سنتمتراً، وأربعة صحون مملوءة رزا ومرقاً من أنواع مختلفة من الدجاج والخروف. نجلس على أسرتّنا التي هي بمثابة الكراسي، فتوضع المنضدة أمامنا، والكاهن أزائنا على كرسي كبير من خشب خشن، وليس للأب سوى ملعقة واحدة، ونحن نأكل في صحوننا، بينما سيمون الجالس بقربنا يأكل بأصابعه (باليد). نجعله في البداية يأكل معنا، غير أن نقص الذوق يجعلنا ننكر عليه ذلك. يختم العشاء بفواكه أعناب وأجّاص ورمان وجوز وفستق، تنمو كلها في قرية أرادن.

سيمون الذي يترجم، يغيّر بشكل وقح ما نريد أن نقوله للخوري. فبعد العشاء، إذ رأينا بأن الأب لايشرب الشاي، سألناه عن السبب، فطلب أن يقدموا له أيضاً، وأخذ يشرب على مضض، فقد قال له سيمون بأننا سوف ننزعج إذا لم يتناوله!

يأمر الخوري، بعد العشاء، أن ينشد ثلاثة أو أربعة أطفال نشيداً أرمنياً[٤٢]. إنها الصلاة من أجل الضيوف. وينسحب الكاهن في الساعة التاسعة، لكي يتركنا نرتاح. لقد أغلقنا الباب، وليس ثمّة شباك، لكي نحمي أنفسنا من الفضوليين، لكننا نسمع كلاما في الخارج، ومع إننا لانفهم الأحاديث، فإننا نتكهن بإنها تدور حول الأوروپيين.

القرية صغيرة وليست بذات شأن. ثلاثون بيتاً تقريباً. الأطفال طيّبون، ومعظمهم

(٤١) قرية أرادن Araden هنا هي السفلى، قرب أينشكي. ويستخدم بنديه كلمة Cur´e وتعني الكاهن أو القس أو خوري رعية في كنيسة ما.

(٤٢) بدلاً من أن يقول اللغة (الأرامية) يقول خطأ (الأرمنية)، والخطأ واضح، فإن أهالي أرادن والمنطقة، من المسيحيين، يتكلمون (السورث)، ولغتهم الطقسية الكنسية هي الكلدانية (الأرامية، السريانية) لا الأرمنية.

شقر. النساء بحال جيدة لولا وضعهن حلقة في الأنف. الرجال طيبون، منصرفون الى أعمال الحقل. ويبدو أنهم يعيشون بذكاء جيد. نادراً ما يتركون قريتهم، بحيث أن العديد منهم لم يذهبوا حتى الى العمادية. يستخرجون من القرية كل ما يصلح لغذائهم وكسوتهم.

٦ تشرين الأول (أكتوبر)

في الساعة السادسة، إذ كنا نقوم بإعداد أمتعتنا، جاءنا الكاهن قبل ذهابه الى القداس، متمنياً لنا سفراً ميموناً، فأعطيناه هدية لفقرائه. وقد أراد أن نترك له قليلاً من الكينين، إلا أن الإحتياطي الذي كان ينفد بسرعة شديدة لدينا، وحاجتنا الكبيرة إليه، جعلنا نرفض[٤٣].

نترك القرية في الساعة السادسة عبر طريق مسيّج بالحسك ،مملوء بالحجارة والحصى. نسير ببطء عبر هضبات وجبال صغيرة، ونجتاز جدولاً يتبع مسير الوادي الكبير، في الوسط منه. ونصعد بجهد المنحدر المقابل، في منتصف الضفة، نلاحظ للمرة الأخيرة صحن العمادية فوق جبال أخرى. الأرض حمراوية، لاتنتج سوى سنديانات صغيرة وفقيرة، تنمو عليها عفصات بعدد كبير وبحجم البلوط.

نصل الساعة العاشرة الى عين ماء قد جرى الإهتمام بها، وذلك بإحاطتها بالحجارة، فغدت مسقى للقطعان. ونعبر الى واد آخر أراضيه أشدّ حمرة. المنحدر الأيمن الذي نسلكه هو الوحيد الذي فيه غابات بلوط. وثمّة أيضاً توت شوكي ثمره أكبر بكثير مما في أوروپا، بحيث تبلغ الثمرة الواحدة بحجم التفاحة، طعمها لذيذ جداً، وقليل اللذوعة. نصادف خيم بدو شبه متوحشين، رجالاً ونساءً وأطفالاً عراة، مثل آدم وحواء، يستحمّون في غدير، وهم منهمكون في أعمالهم دون أن يبدو عليهم أي حرج بوجودنا.

نتوقف أبعد قليلاً من هناك، قرب عين، للغداء. ويغدو الطريق فوراً أكثر

(٤٣) لم يكن العلاج الطبي متوفراً في البلاد عهدذاك، وكان الكينين Quinine يستعمل في حالات الحمى وغيرها من أمراض، لذا كان مرغوباً جداً، وكان الرحالة يعرفون ذلك، فيجلبون معهم كميات للإنتفاع والتوزيع هنا وهناك. راجع الهامش ٣٦.

مطروقاً، إذ قد وصلنا طريق الداوودية، أي المنعطف المهم(٤٤). نلتقي بقوافل كبيرة مكوّنة من جياد وبغال تزعج حيواناتنا، وتسبب صدمات عنيفة لصناديقنا. نصادف كذلك قطعان ماشية عديدة، أصواف الخرفان طويلة جداً وملساء، وثمّة قبائل رعاة وبدو. تبدو في الطريق آثار عمل جدّي، غير إنها طرق تالفة جداً بسبب إنعدام الصيانة، بحيث كدنا نتيه مرتين وسط الأدغال.

نترك رشفري(٤٥)، لكي نتجّه غرباً. يحيرني هذا الإتجاه، بحيث إني أطلب من سيمون أن يتأكد فيما إذا كان أدلاء القافلة في الطريق الصحيح. كان إدعاؤه إنهم يعرفون الطريق. ومن المستحيل أن تحصل على شيء أكثر من هذا من سواسي البغال(٤٦).

نترك قرية (زاويته)(٤٧) الى جهتنا اليسرى، فأندهش أكثر وأكثر من الإتجاه المستمر نحو الغرب، حتى أفهم مساء، من سيمون، إننا بدلاً من التوّجه نحو القوس ودير الربان هرمزد(٤٨) نسير الى دهوك، وهو غير الإتجاه الذي كنت أود سلوكه. لقد إتّخذ سواسو البغال الإتجاه الذي يناسبهم. آمر وأنا مغضب بأن يتقاضى مسؤولو القافلة تأديباً يتذكرونه دائماً، فقد تصرّفوا ضد إتفاقيتنا، فيدّعي (صاحب القافلة) أن الطريق الآخر غير آمن، ويقدّم لنا مائة سبب سلبي. نقتفي ضفة منحدر شديد الخطورة. ثمّة قطع صخور عديدة منسلخة عن أطراف الوادي ترغمنا على الصعود أو على النزول بإستمرار، فيذكرني هذا طريق بطرق سلكتها في كابيليا(٤٨)*. نمرّ على

(٤٤) قرب (كورى كفانا). والداوودية قرية معروفة قرب بامرني، ويكتبها هكذا: Daoudiyé.

(٤٥) نهير وقرية Rechevré أو ريشور قرب مجمّع كوري كفانا حالياً.

(٤٦) يستعمل بنديه كلمة Katerdjis للدلالة على دليل وأدلاء القوافل، أمّا سائس أو سائق البغال فهو حسبه muletier واللفظة الأولى تركية، بينما الثانية فرنسية. ولايستخدم بنديه لفظة (حكاري) كما يفعل رحالون آخرون.

(٤٧) مصيف زاويته المعروف، ويكتبها: Zaouitha

(٤٨) كان الرحالة يحبون زيارة ألقوش ودير الربان هرمزد للإطلاع على المعالم التأريخية والآثارية هناك. وناحية ألقوش معروفة، تقع على بعد ٤٥ كم من الموصل، ويقع دير الربان هرمزد في لحف الجبل، وهو من القرن السابع الميلادي. يكتبها بنديه: Alkosh, Rabban Hormouz.

(٤٨)* Kabylie لفظة تطلق على هضاب عديدة في الجزائر.

بعد مئات الأمتار ببدوٍ قد أشعلوا النيران إحترازاً من الدببة والفهود. نستشفّ ملامحهم من خلال اللهبات. لقد خيّم الليل، وأجراس بغال الأمتعة وحدها تسمح لي بأن أسير وراءها.



سائس بغال

نجتاز وسط وديان ضيّقة، ولدى الخروج منها، نلمح في البعيد بعض النيران. إنها دهوك(٤٩). نتوّجه الى خان، ودهوك هي على الطريق السالك بين الموصل ووان، عبر تبليس وسعرت. وبما إننا متأخرون، يفتح لنا صاحب الخان بإستياء. ووسط فناء مملوء بالجياد والحمير، يصعب علينا إنزال حمولة حيواناتنا، وعلينا أن نحترس لئلا يسرق أحد أكياسنا. مرة أخرى نلعن سواسي البغال الذين لم نتمكن من جعلهم يتخذون الطريق التي إخترناها، ويعملون كل شيء لكي نتعرف متأخراً على الإتجاه الخاطئ بعد أن يكون قد أمسى من المستحيل إتخاذ الدرب الصحيح.

غداً مساء سنصل لدى الدومنيكيين في الموصل(٥٠) حيث سنلقى إستقبالاً ينسينا رداءة الطريق. أمّا الآن، فإننا إتخذنا سكنانا في الطابق الأول، في غرفة نصلها بواسطة شرفة خالية من الدرابزون، وضيقة جداً، وذات فتحات كبيرة بوسع المرء أن يعبر من خلالها. والدرج الصاعد إليها مكوّن من درجات عددها خمس وثلاثون، علوّ كل منها أربعون سنتمتراً. فالصعود إليها بحقائب ضخمة عمل من أعمال الجبابرة.

(٤٩) قرية دهوك يومذاك هي اليوم مركز محافظة الشمال الغربي من العراق. يكتبها رحالتنا هكذا: Dehook

(٥٠) إنهم الآباء المرسلون من رهبنة الأخوة الواعظين المعروفين بالدومنيكيين أو الدومنيكان. وقد كان مقرهم في الموصل منذ عام ١٧٥٠، ثم تمّ إستبدال الدومنيكيين الإيطاليين بفرنسيين عام ١٨٤٠.

٧ تشرين الأول (أكتوبر)

لقد قضينا ليلة مريحة في هذا المأوى الأمين، نوعاً ما. وفي الساعة الرابعة أيقظت جميع رجالي، لان المرحلة حتى الموصل طويلة.

ماتزال الظلمة في الفناء، وبالكاد نميّز جيادنا التي نسرجها نحن بأنفسنا. إننا بحاجة الى ساعتين لإعداد الرحل.

دهوك قرية ذات ستين بيتاً تقريباً، متوسطة الأهمية. الوالي أمير، له تحت أمرته نحو عشرين شرطياً (جندرمة). قلعة قديمة وتالفة جداً تستعمل الآن كمحل سكن له، لكنه قد شرع بتشييد بناء جديد[٥١].

من المفروض أن تكون البلدة حارة جداً، فقد أتخذّ السكان جميع الإحتياطات، إذ وضعوا على سطوح المنازل عرازيل أغصان، وأختاروا السكن فيها. في الساحة، مقابل قصر الخان الرديء، مقهى تركي صغير، مبني كهذه المنازل البدائية للمرتادين. الطقس في هذا الموضع واضح، فإنه مضمون من جهتي الشمال والشرق بجبال عالية، ومعرّض من الجنوب الغربي لرياح جزيرة العرب المحرقة.

خلال بضع دقائق نصبح خارج المدينة. نسير بمحاذاة (نهر) الرشفري. عرضه بحدود أربعة أو خمسة أمتار، وعمقه نحو متر في الوسط، تملأ ضفافة ورديات، والى اليمين سهل فسيح قد فاض فيه الغدير مراراً، تنمو فيه حشائش عالية ما تلبث أن تيبس بفعل الشمس، وثمّة عليقات وأحساك، والى اليسار تل شديد الإستقامة، يتبعه الطريق إننا في وسط ضفافه، والفيضانات المتعاقبة تشرح إختيار هذه الطريق الأشد تعرضا للأخطار، إنما في حمى من المياه[٥٢].

نبلغ بعد ساعة ونصف من المسير رأس هذا الجبل الصغير، وندور حوله، فنلقى أنفسنا في الصحراء. إنه سهل الموصل، الجانب الشمالي الشرقي من سهل شنعار

(٥١) من المحتمل أن يكون قصر أمير أو أغا دهوك في محلة السوق، حيث مركز الشرطة. أما محلات دهوك القديمة فهي: شيلي، برايتي (النصارى)، الشيخ محمد (الإسلام)، السراي، گري باصي.

(٥٢) أنظر الهامشين ٤٥ و٥١. ولم يترك لنا بنديه صورة لبلدة دهوك كما فعل بالنسبة للعمادية. ويمرّ في دهوك نهران صغيران: ريباري دهوك وريباري شكرو.

الذي يرجع تاريخه الى الطوفان[٥٣]، إذ قيل بأن أولاد نوح قد إستقروا هنا، وأخذت الأرض تمتليء بالسكان من جديد بعد ذاك الخطب الجلل. وهذا السهل ذو وديان متموجة طويلة قليلة الإرتفاع، تأمل أن تكتشف في قمة كل مرتفع سهلاً منبسطاً، إلا إنك ما أن تصل إليها حتى تلقى مرتفعاً آخر يهيمن على الأفق مسافة كيلومترين أو ثلاثة، وفي نهاية كل واد قصير جدول صغير، إذا لم تشربه الرمال فإنه يصبّ في دجلة، الذي يجري غير بعيد عن الطريق، فإننا نلمحه في البعيد.

الشمس محرقة، والطريق ترابي. وتتعاقب الخطوات دوماً بالرتابة عينها. ويبدو الأفق تارة دانيا، وطوراً قصيّاً. لقد بوشر بشقّ طريق ينبغي أن يصل الموصل بدهوك، وجزيرة إبن عمر، وسعرت، وبدليس، وأرضروم، لكنه مايزال من حجارة مسحوقة لاتجري العجلة فيها، وتسير القوافل الى جانبه، فقد أنجز خط واحد، أما البقية فمؤشرة لا غير، ويتبع هذا الطريق خط التلغراف، ويمرّ بتللسقف وتلكيف[٥٤]. نهمل هذا الاتجاه لكي نسلك طريقاً أوسط وأشدّ إستقامة، يقع بين الطريق ودجلة.

البلد خصب وقليل الزراعة[٥٥]. ثمة مساحات كبيرة غير مزروعة، تليها حقول ضخمة قد تمّ حصادها، تختلط بالأولى من بعيد، غير أن السنابل المقتطعة بالمنجل تظل الشاهد الأوحد على زراعتها، فإن المحراث الخشن، وهو عبارة عن مجرفة من خشب، لايسوّي الأرض جيداً، بل يترك فيها أثراً دائماً.

نصادف مجموعة من ثلاثة أو أربعة مساكن لمزارعين يعيشون تائهين بدون ظلال في هذا السهل، إذ ليس ثمّة شجرة، ولاتنمو أية نبتة قرب أكواخ الطين هذه. الزروع قد حصدت، وهم يعملون الآن على فصل الحَبّ عن السنبل، ضمن دائرة قطرها ثمانية أو عشرة أمتار، إذ تدور جياد، طيلة النهار، تحت شمس محرقة، وهي مربوطة

(٥٣) أنظر الفصل العاشر من سفر التكوين من التوراة (العهد القديم).

(٥٤) بلدتان معروفتان، الثانية حالياً قضاء، والأولى بلدة كبيرة. يكتبهما بنديه: Tel Ouskof, Tel Keif

(٥٥) النباتات الزراعية والحبوب هي المنتوجات الوحيدة للبلاد (آشور قديماً)، بها ينعم الناس، بحيث يظل صحيحاً ما قاله هيرودوت في الكتاب الأول، الفصل ١٩٣، فهو البلد الأشدّ خصباً من سائر البلدان. ولايحاول الأهالي زراعة الأشجار، فلا نرى أشجار تين ولا كروم. والأرض صالحة لجميع أنواع الحبوب، وقد تحمل أحياناً مائتي ضعف ما يزرع. (الرحالة).

ببعضها، لكي تسحق بحوافرها التبن الملقى تحت أقدامها. يحتفظون بالحبوب في البيوت، أما التبن فيجمع بعد التنقية في كوم عالية وطويلة، تغطّى بملاط مصنوع من التراب والماء أيام الأمطار مخلّفا مستنقعا. وقد تحفر أحياناً آبار تدر مياها غير صالحة. قرب أحد هذه المستنقعات توقّفنا لكي نريح حيواناتنا.



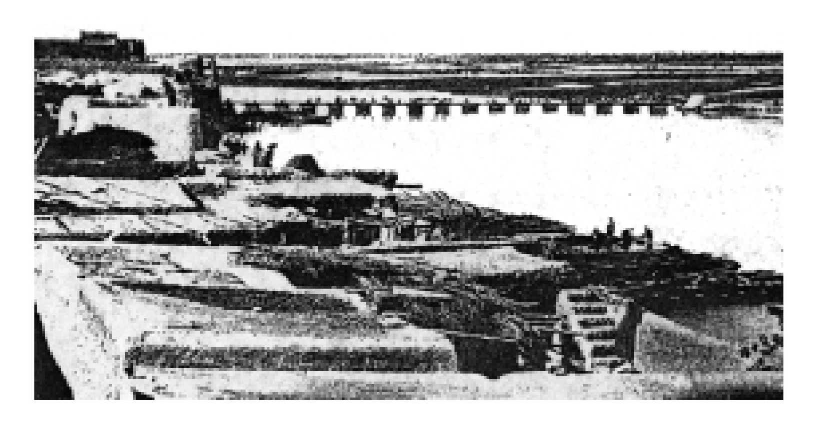
محراث

سوف أذكر حياتي كلها الغداء الذي تناولناه في ذلك اليوم. فقد كانت تجهيزاتها قد نفدت، ولم يبق لنا سوى عظم فخذ بقر مطبوخ منذ أربعة أيام، كان يقتضيه عينا فهد لإكتشاف شريحة اللحم، وكان مغلّفاً بالقرع، وبعض قطع فطر تبان بصعوبة، ولإستكماله بيضتان مسلوقتان من عهد العظم، وقليل من اللبن الناشف، وكشراب ماء المستنقع، لأن البئر كانت يابسة(٥٦). بعد نحو ساعة، أسرج الجياد، ونبدأ بالرحيل. الحرّ شديد جداً. وتموّجات الأرض الفسيحة تتعاقب. وتنخفض حرارة الشمس بعد الساعة الخامسة. والموصل التي ينبغي أن تبدو من بعيد، لاتبدو بعد للعيان. وأخيراً هضبة أخرى، نسيطر منها على سهل منفسح يتهادى فيه دجلة كالأفعى في البعيد، ونلمح الموصل وسط الأفق تقريباً(٥٧).

أيام كانت نينوى قائمة، تلك العاصمة الكبيرة الزاهرة، كان المكان الذي نحن الآن

(٥٦) فرنسي ولايأكل جيداً... عشرات المرات نلقى رحّالتنا يصف الأكل والأكلات ووجبات الطعام، فالمائدة الفرنسية معروفة بالأناقة والمراسيم الدقيقة، ويبدو أن رحالتنا من محبّي البطون والأكلات.

(٥٧) يكتب بنديه الموصل على الطريقة الفرنسية Mossoul. مركز محافظة نينوى حالياً، ومدينة قديمة وشهيرة. وصفه للطبيعة المحيطة بالمدينة دقيق وجميل، كما عودّنا أن يفعل في سياق الرحلة كلها بشأن الوصف الطبيعي والجغرافي.



جسر القوارب على دجلة

فيه مقراً مؤقتاً لحاكم أراد أن يستريح بعض الوقت من صخب المدينة، إنما دون ان تغيب المدينة عن نظره، كنسر يحرس فرخه من أعلى صخرة قريبة. فإن هذه الهضبة هي حقاً بقايا حجارة ليست من الأرض الطينية التي قد سرنا فيها منذ الصباح، وبعد أول عمل تخريبي تمّ على أيدي البشر، أقامت عوامل الزمن فيها كل أنواع الأطلال.

لقد منحتنا رؤية الهدف المنشود شجاعة كنا بحاجة إليها، لأن التعب كان قد سرى فينا. غير أن حيواناتنا لاتعرف عين الأسباب مثلنا لكي تشعر بالحماس، إنها منهكة وضربات السياط وحدها تحملها على السير.

بما إننا سنصل متأخرين الى الموصل، أرسل سيمون قدامنا لكي يعلم الدومينكيين بوصولنا، ويبين لهم أوراقنا، ويطلب إليهم أن يتنازلوا ويقبلوا بإستضافتنا، إنها الساعة السابعة، والظلام مخيّم تماماً.

دجلة عريض وعميق، لايمكن عبوره على الأقدام. يتوزع الى آلاف الجداول. ونحتاج الى معبر كبير للوصول الى جسر القوارب الذي يسمح لنا بالدخول الى الموصل.

ضفاف النهر خصبة، بقدر ما بوسعنا أن نحكم عليها ليلاً. وبيوت كثيرة تحاذي الضفاف. نقتفي قناة يسقط فيها أحد جياد الأمتعة. بينما يسهر هاملن على بقية

القافلة، أساعد أنا الرجال لسحب الحصان من الورطة. سواسو البغال يريدون أن يختصروا الطريق، إلا إنهم يتيهون في الخرائب التي لاتحصى، فهي تحيط بنينوى. نلقانا وسط قوافل جمال نائمة، نوقظها فتلاحقنا لعنات الجمّالين، وبصعوبة نتمكن من البقاء منتظمين. نلمح شخصين أو ثلاثة قرب مجموعة بضعة بيوت، فنسألهم عن الطريق، ويخرج أناس من المنازل فيرموننا بوابل من الحجارة، بحيث أننا نتخلص ركضاً، حتى نغوص في عمق الليل. وبفضل إطلاقتي مسدس، يحترسون من إقتفاء أثرنا. لكننا نتيه مرة أخرى، ويسقط أحد جياد الأحمال الذي كان يسير في المقدمة، وعلى قاب قوسين من سائس كان يسير بهدى أنوار الموصل، في حفرة عمقها أربعة أمتار وعرضها سبعة. فيتبعثر الحمل بأسره، وتتكسر الأحزمة، ويتأذى الحيوان، فنضيع أكثر من نصف ساعة لإصلاح الضرر. الحفرة سبب السقوط هي مهد الخوصر الناشف[٥٨]. ننزل الحيوانات الأخرى في الحفرة بكل عناية، ونقتفي آثار المجرى اليابس، حتى نصل جسر الطريق الذي ينبغي يوماً ما أن يصل الخط الذي بوشر به في دهوك، ففي تركيا لايستعجلون[٥٩].

نتبع النقاط التلغرافية، ونعبر فرعاً صغيراً لدجلة، مشياً على الأقدام، فنبلغ أخيراً جسر الموصل. الجياد لاتقوى بعد على الوقوف من شدة التعب.

المدينة يغلّفها الليل. نلقى سيمون بإنتظارنا، فيفتح لنا الأبواب. منظر سيمون غريب. لقد أصابته ضربات الحجارة في القرية الصغيرة التي عوملنا فيها بشكل غير مستحبّ. وقد قدّم نفسه للدومنيكيين، لكنهم، حسبما قال لنا، إستقبلوه بشكل غير جيد: «ثمه خانات في المدينة، فليقض هؤلاء المسافرون فيها»، كان جواب الآباء «وسنرى غداً ماذا بوسعنا أن نعمل لهم».

(٥٨) نهر دجلة أحد الرافدين العظيمين في البلد، وبالفرنسية Le Tigre أما الخوصر الذي يغدو كبيراً في موسم الأمطار وذوبان الثلوج ويجفّ صيفا، فيكتبه بنديه هكذا: Hassertchai

(٥٩) عدة مرات يسجل بنديه ملاحظة كهذه بشأن البلاد وأوضاعها، وينسب التقصير الى الحكومة العثمانية، فهي، -حسبه- متعمدة في إبقاء البلاد متخلّفة. أنظر الفصل ١١ من (أربعة قرون من تأريخ العراق الحديث) تأليف لونكريك، ترجمة جعفر الخياط. ومعلوم بأن الرحالة يشخص حالة متدهورة للبلاد، العراق والموصل بالذات، فقد إنتهى حكم ولاة وطنيين أفادوا البلاد، وكان يتولى السلطة يومذاك ولاة عثمانيون لايهمهم كثيراً أمر تطوير المنطقة.



الأسوار والقلعة الرئيسة - الموصل

هل من الممكن أن يصل فرنسيان منهوكي القوى، فيستقبلان هكذا من قبل مرسلين فرنسيين، مع إنهما يقدّمان لهم رسائل توصية من البيت العام للرهبنة، ورسالة من الحكومة غداً، سنطلب شرحاً لهذه الملاقاة الغريبة. أمّا الآن فليس لنا أن ننام في الساحة العامة من الموصل، لذا أقرع أبواب عدة خانات، ولا أحد يريد أن يفتح. إنهم سعيدون وحجتهم الساعة المتأخرة لرفض مأوى لهؤلاء الكلاب[٦٠]. ورغم أن سيمون كان قد سبق وأفادني بغياب القنصل، منذ يومين، فإني أسأل أن يقودوني الى القنصلية. لقد كان علي أن أبدأ من هناك.

بعد ربع ساعة من السير وسط مجاهل طرقات ضيّقة كلها متشابهة، نصل الى القنصلية. ويتردد البواب قليلاً لدى إستقبالنا، لكنني أذكر له أسمي، يتذكر بأن المسيو (السيد) سيوفي ينتظرني[٦١]، وقد تحدّث أكثر من مرة عن وصولي، بل قد

(٦٠) تعبير آخر من تعابير بنديه النابية، وقد قلنا إنه متعجرف، يحمل الأمور على غير محملها، فينسب أي تصرف لايرضيه الى التعصب.

(٦١) نقولا سيوفي M. Sioffi (١٨٢٩-١٩٠١) من دمشق، منح الجنسية الفرنسية عام ١٨٦٦، وعيّن في القنصلية الفرنسية ببغداد سنة ١٨٧٣، وفي حلب سنة ١٨٧٥، ثم في الموصل سنة ١٨٧٨، وأصبح قنصلاً فرنسياً في موقعة الأخير، ثم أحيل على التقاعد فسكن في بعبدا بلبنان. ترك عدة مؤلفات. أنظر الهامش ١٣٣.

وضع جانباً الرسائل التي قد وصلتني، لذا يفتح الباب حالاً، فننزل أحمال الحيوانات، وبما أن الغرف مقفلة، يفرغ مسكنه تاركاً إياه لنا. فننصب بسرعة أسرّة المخيّم. ويحمل إلينا خبزاً، وخمراً، وجبن ماعز. لم تطب لي وجبة أكل أشدّ من هذه.

يعطيني القوّاص[٦٢] رسائلي، فأجد بينها رسالة من أختي الصغيرة تقول لي: «تشجّع!». وننام سعداء، تحت حماية العلم الفرنسي المنشور على الحائط، فقد بلغنا نهاية هذه الرحلة الطويلة.

الموصل – نينوى – خورسباد*

من ٨ الى ١٥ تشرين الأول

لدى الدومنيكيين. المونسنيورألتماير. الديوان. قنصل أنكلترا. المنارة المسيحية: برج الساعة. الموصل والشرق: تأسيسها. أطراف الموصل: النبي يونس. طرقات الموصل، الأسواق المقاهي، الإسترخاء (الكيف). العربات. المونسنيور (المطران) بهنام بني. الأكلاك. الخشب في الموصل. جسر قرب النهر. المقابر. مدارس الأخوات الراهبات والآباء (الدومنيكيين)، ومطبعتهم. الأسطرنجيلية، السريانية، الكلدانية. الأسوار. تغيرات مجرى دجلة. حبّة (بشور) الموصل. بناء الكلك. زيارة السلطات. إستقبال على الطريقة التركية. السكاير. غداء في القنصلية الإنگليزية. قصة دببة. ضفاف دجلة: بطائح وغدران، درّاج، أسماك، عيون كبريتية. النائحات (المعددات). زيارة أطلال نينوى وخورسباد. تل قوينجق. بوتا. خورسباد، الحفريات. بيوت مزارعين فلاحين. حائط طابوق مرسوم. تلول تخفي العنقاء. مذبح ثلاثي الأرجل. كيف حفظت الأطلال، تأسيس القصور. الغرف، الجدران، السطوح، الأيام. مجمل القصور. سنحاريب وسرجون. الكتابة المسمارية، وأنواع الألفباء المختلفة، وكيف أكتشفت. مسيو سيوفي. مسجد السلطان لؤلؤ. الصابئة. من الموصل الى البحر المتوسط. بالميرا (تدمر)، الدير، سنجار، أورفه. باعة السوق. تجهيز الكلك. الرحيل عن الموصل.

فور إستيقاظنا، رجونا القواص أن يسخن لنا ماء، وشرعنا بالإغتسال. لايمكن أن يستطيب ذلك إلا من كان مثلنا قد حرم منه خلال أسبوع كامل. فنحن منذ تسعة وعشرين يوماً ننام بثيابنا، فوق أسرّة مخيّم. أية مفارقة مساء أمس، إذ أننا بعد أن

(٦٢) القواص خادم شرف لوجهاء القوم، وسيشرح بنديه ذلك في الهامش ٨٠

* إنه الفصل الثامن من الرحلة.

منّينا النفس أن نلقى سريراً، وجدنا أنفسنا في أمسّ الحاجة لكي نحتضن مخدّتنا الحقيرة.

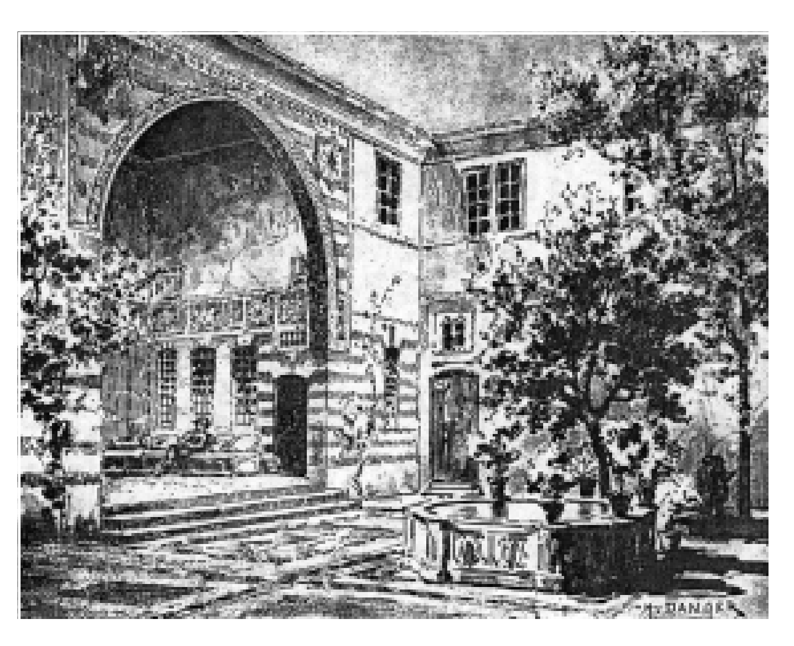
وبعد الإغتسال، ذهبنا لدى الدومنيكيين. واحد منهم ينوب عن القنصل لدى غيابه[٦٣]. والبيت على بعد خطوتين. وقد كان المونسنيور ألتماير[٦٤]، رئيس أساقفة خلقيدونية والقاصد على مابين النهرين، على وشك الخروج حين قدمنا أنفسنا. كان يبدو مستعجلاً، وسألنا أن نعذره. وقد وجهنا الى الأب الناظر (الرئيس)، الأب دفال الذي إستقبلنا بكل مجاملة[٦٥].

تحدثنا نصف ساعة، وإستفسرنا عن الإستقبال البارد جداً يوم أمس. كان سيمون اللاهث بسبب الركض الذي قام به بعد وابل الحجارة التي إستقبلته في الموصل، قد وصل لدى الآباء شبه رجل سكران، فأصدر الأوامر وهو يتهدد: «أوروپيان يصلان، أعدّا لهما غرفة، وأمضوا أمامهما». فأصيب الآباء بصدمة، باديء الأمر، إذ إفترضوا أننا قد سلبنا، وأن سيمون قد يحمل رسائل مسروقة. وبما أن الساعة متأخرة ليلاً، طلبوا إليه أن ينسحب. الإستقبال الذي قام به هؤلاء السادة فيما بعد، كان ودّياً، بحيث إننا نسينا ذاك الإنطباع المزعج. ورغم ذلك، فهم مع إعتبارهم سيمون سارقاً أو مجرماً، أما كان عليهم قبل كل شيء أن يوقفوه ويتأكدوا فيما بعد من إفتراضهم؟

(٦٣) هو عادة ناظر الرسالة أي رئيس الاباء الدومنيكيين، وهو في هذه الحالة الأب دفال. أنظر الهامش ٦٥.

(٦٤) Mgr Altmayer هنري ألتماير (١٨٤٤–١٩٣٠)، ولد في بيزانسون، واصبح دومنيكيا سنة ١٨٦٢ وكاهنا سنة ١٨٦٩، وأرسل الى الموصل عام ١٨٧٤ بصفة أمين سر القصادة الرسولية. وبعد وفاة المونسنيور ليون أصبح وكيلا، ثم قاصداً سنة ١٨٨٤، ورئيس أساقفة على اللاتين في بغداد عام ١٨٨٨، حتى إستقال عام ١٩٠٢ وعاش في فرنسا حتى وفاته.

(٦٥) P. Duval بيير دفال (١٨٣٢–١٩٠٤)، ولد في تول، وأصبح دومنيكيا سنة ١٨٥٦ وقصد الموصل بعد سنة ١٨٥٦ بمعية الأب ليجيبه، وأدار الرسالة عدة مرات حتى إستلم الناظرية رسمياً بعد موت الأب بيسون عام ١٨٧٢. عاد من فرنسا سنة ١٨٧٣ مصطحباً راهبات التقدمة، وأسس عام ١٨٧٨ معهد مار يوحنا الحبيب في الموصل، ورسالة سنة ١٨٨١، وقلاية سعرت سنة ١٨٨٢، وقلاية جزيرة إبن عمر سنة ١٨٨٥، وأصبح قاصداً رسولياً على سوريا سنة ١٨٩٥ وتوفي في بيروت.



ديوان في مدينة الموصل

يقدّم لنا الآباء المحترمون غرفة كبيرة وجميلة بسريرين. فنقضي الصباح في ترتيب أمورنا، ونفرغ ظهراً، فنتعارف على الغداء. في غرفة الأكل، أنا الى جانب المونسنيور ألتماير، وهاملن قرب الأب الناظر. المونسنيور ألتماير يوشك على السفر الى بغداد. إنه على أهبة السفر، ومهمته ليست بهيّنة، فهو سيقود خمس راهبات لإدارة روضة أطفال، ومعه السكرتيران، الأب هنري والأب دي سيكونزاك وحماية كبيرة[٦٦]. لقد أمر بصنع كلك[٦٧] خاص بذلك، وضمن تجهيزات كبيرة، لأنهم يستغرقون من ثمانية الى عشرة أيام، وأحياناً أحد عشر يوماً لركوب دجلة، ولايجدون أكلاً في الطريق، لأن دجلة يجري في صحراء.

يجتمع هؤلاء السادة، بعد الغداء، في ديوان[٦٨] ليتحدثوا على الطريقة

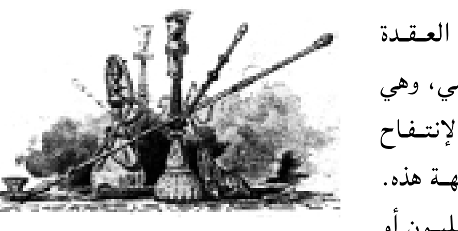
(٦٦) إنهما الأبوان الدومنيكيان De Segonzac, Henri

(٦٧) الكلك هو الإسم المعطى للقوارب التي تسير منحدرة في نهر دجلة (الرحالة).

(٦٨) ورد هكذا: Divan ويصف بنديه الديوان بشكل دقيق.

الشرقية. ففي هذه الساعة من النهار الحرّ شديد الى درجة إنه لايمكن لأحد أن يعمل أو ينام.

والغرفة المسماة بالديوان مناسبة لذلك بشكل رائع. مثلها موجود في كل البيوت المريحة في الموصل. إنها غرفة كبيرة مربعة، لها سقف على شكل العقدة (القبة)، وتقع في الطابق الأرضي، وهي عالية بعلو طابقين، معرضة الإنتفاح للشمال بغير جدار في الجهة هذه. يجتمعون فيها لتدخين الغليون أو النرجيلة[٦٩] وللحديث والإستقبال.



غليون – شيبوك – نرجيله

لم أستمتع في أي مكان آخر براحة الحياة الشرقية[٧٠]. الغليون الذي لاينبغي أن نخلط بينه وبين (القليان)، يسمى (شيبوك). إنه (السبيل) ذو الأنبوب الطويل المستقيم والصلب، مصنوع عادة من جذع ياسمين، موقده (مكان النار) على الأرض، وقطعة كبيرة من العنبر تنهي الطرف الآخر، تنطبق على الشفتين دون أن تشدّ عليها بالأسنان، كما هي غلايبننا الأوروبية. التبغ الذي يدخنونه عذب وشهي، وأكثر عطرا من تبوغنا، إلا إنه خالٍ من نكهة خاصة، فهو من التبغ، تافه وسيء المذاق كالتبغ الذي يباع في باريس تحت إسم التبغ التركي.

لحظة كنا على وشك الخروج. في نحو الساعة الثانية، يأتي دليل القافلة لكي

(٦٩) إن إسم نرجيلة من اللفظة العربية (نرجيل) وتعني الجوز (جوز الهند)، فإن هذه الثمرة المفرغة كانت تعوض سابقاً عن الإناء الذي يستخدمه المدّخنون الآن. وقد كان للسبيل (pipe) آنذاك شكل القليان (الغليون) الفارسي، ولم تكن الساق لينّة ملساء كما هي اليوم (الرحالة).

(٧٠) يستخدم رحالتنا هنا لفظة إيطالية هي farniente تعني اللاعمل، أي عمل لا شيء، لكي يقرّب الى أذهان الأوروبيين ما يقصده الشرقيون بكلمة (الكيف) التي يسجلها كما هي في موضع آخر (أنظر الهامش ٨٥)، ويقصد بذلك الإسترخاء، والإستمتاع، والراحة، والأنس، ويبالغ في وصف الشرقيين بأصحاب «كيف».

يسوّي الحساب. ويطلب سيمون أن يظل بضعة أيام أخرى معنا، فنحتفظ به رغم كونه يسبب لنا بعض المشاكل، إذ بوسعه بعد أن يقدّم لنا بضع خدمات.

نمضي لزيارة قنصل أنكلترا الذي كان زميله في وان قد رجانا أن نسلّمه كلمة. لقد أصابته حمىّ خبيثة يتخلّص منها[٧١]، ولايبدو أنه لقي الإقامة في الموصل مغرية. إنه يحب الصيد كثيراً، وهي أهم وسيلة لهو بالنسبة إليه، لذا غالباً ما يمضي فيقضي ثلاثة أو أربعة أيام وحده، برفقة خادم، في الجبال على بعد مسيرة يوم من الموصل. للإستراحة من القهوة الأبدية، يقدم لنا بيرة إنكليزية، من المفروض أن تكون جيدة وهي في أنكلترا، إلا أن السفر لاشك قد أذاها كثيراً.



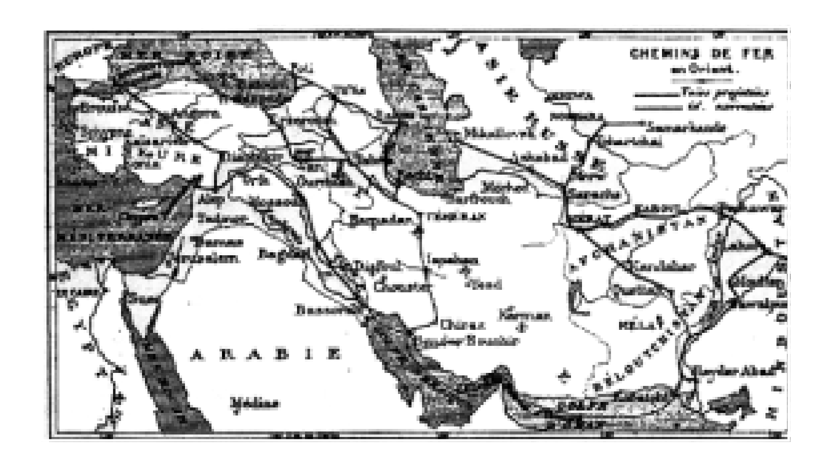
رجل يدخن الغليون

عدنا الساعة الرابعة لدى الآباء، وصعدنا الى قبة ناقوس الكنيسة حيث يبدو منظر المدينة بشكل عام. لقد بذلوا جهداً كبيراً في بناء قبة الأجراس هذه. إذ لم يكن للمسلمين أن يروا، من دون ما حسد، إرتفاع منارة مسيحية الى جانب منائر النبي. لكن الأمر تغيّر عندما وضعوا في القبة ساعة ذات أجراس تعلن عن المواقيت[٧٢].

لقد كانت الطريقة الوحيدة التي إستطاع الدومنيكيون بواسطتها أن يجعلوا الناس يرتضون بوقع الأجراس. فإن الأهالي يجدون الساعة مريحة، يستشيرونها مراراً، ويسمّون القبة برج الساعة. والوقت فيها مقسم على الطريقة التركية (العربية): إذ

(٧١) نظنها الملاريا.

(٧٢) يرجع تأريخ برج الساعة أو برج الأجراس الى العام ١٨٨٢. أما تشييد كنيسة اللاتين للآباء الدومنيكيين في محلة الساعة فيسبق ذلك، إذ ترجع البدايات الى سنة ١٨٦٥-١٨٦٦، وتدشينها سنة ١٨٧٢.



خطوط وطرق سكك الحديد

تدق الساعة الأولى عند مغيب الشمس، وينبغي ضبط الساعة كل ثلاثة أو أربعة أيام.

من المؤسف أن تكون الكنيسة واقعة في مكان من المدينة مائل الى الإنخفاض، وليس لها منظر مفتوح إلا من أعلى قبة الأجراس، من هناك فقط بوسعك أن تسيطر على السطوح المستوية للمنازل ذات المسحة الداكنة. كلها ذات علو متساو، ترتفع فوقها بعض المساجد ومنائرها. وإحدى المنارات مائلة، وفي زعم البعض إنها إحدى المنائر التي إنحنت أمام النبي[٧٣].

الموصل، بسبب موقعها، إحدى المدن المهمة جداً في بلاد مابين النهرين. إنها المرحلة العظمى في طريق الغرب والشرق. وهي التي تربط أوروبا بالهند في جميع الطرق المقترحة (الخيالية) لسكك الحديد (أنظر الخارطة)[٧٤]. إنها تقع على الطريق كمركز خدمات مهم، فالموصل واقعة على دجلة، في موضع يغدو فيه النهر صالحاً للملاحة بالنسبة الى القوارب ذات الأهمية التي لا بأس بها، وتصل إليها قوارب

(٧٣) إنها الحدباء، منارة الجامع النوري الكبير، كملت عمارته سنة ٥٦٨هـ/١١٧٢م، ويبلغ إرتفاع المنارة ٥١ متراً.

(٧٤) أنظر خارطة سكة الحديد.

أخرى صغيرة قادمة من سعرت ودياربكر. والموصل هي المركز الذي تلتقي فيه كل القوافل الوافدة من الشمال والغرب والشرق، ومنها تحمل حمولتها الى بغداد عبر النهر، حيث تنقلها قوارب تجارية الى أوروبا.

المدينة مأهولة بنحو أربعين ألف نسمة. ليست من تأسيس قديم، جداً إذ أنها إكتسبت أهميتها منذ العهد الإسلامي، بفضل تجارتها النشطة أولاً، ثم بفضل صناعة الأقمشة البديعة[٧٥]. أما اليوم فشهرتها تأريخية فحسب، بيد أن موقعها الجغرافي قد يجعلها تحيا يوماً.

أزاء الموصل، على الضفة الأخرى من دجلة، يقع تل قوينجق حيث نينوى القديمة، وكان موقعها قد أختير بشكل عجيب، كعاصمة للإمبراطورية الآشورية، ومركز كبير للسكان، لأنها على مقربة من الجبال، بوسعها أن تستمد منها ما ينقصها من السهل، وتسيطر بسهولة على مساحات البلد المستوية لبلاد مابين النهرين. ولا ريب أن النهر، كسائر أنهار البلد، لم يكن له حجم مياه أكبر، ولم يستخدم لمواصلات أكثر أهمية مما هو عليه اليوم[٧٦].

والى جانب تل قوينجق، الذي سآتي على ذكره بعد قليل، توجد قرية النبي يونس الواقعة على هضبة صغيرة. وفي الجامع، كما يقال، رفات النبي يونس والتينة التي بكى عليها[٧٧]. والتل الذي عليه بنيت القرية يضم، على حد قول بوتا وپلاس

(٧٥) الموزلين أو بالأحرى (الموصلين) من الموصل، قماش بل نسيج مشهور، يقول بنديه بشأنه: يزعمون بأن الموصل هي التي أعطت إسم القماش الذي نصنعه بأسم moussoline وإنه قد أستورد من الشرق. والأمر صحيح، كما يذكر ماركو بولو منذ القرن الثالث عشر الميلادي. (أنظر رحلة ماركو بولو المعروفة بأسم المليون).

(٧٦) معروفة هي أهمية الموصل ومكانتها، وإسمها خير معبّر كطريق مواصلات شديد الأهمية. أما بالنسبة لعدد السكان فقد كان من الصعوبة بمكان التوصل الى إحصائيات دقيقة (أنظر: الحياة في العراق منذ قرن، تأليف بيير دي فوصيل، ترجمة د. أكرم فاضل، القسم الرابع).

(٧٧) يقع النبي يونس على التل المعروف بتل التوبة، تيمّنا بوقوف النبي يونس (يونان) عليه ودعائه الى الله لكي يبعد اللعنة عن القوم، وله قدسية خاصة عند المسلمين. والتل أثري كما ينوّه بنديه مستشهداً ببوتا وبلاس، وقد شيد عليه، في قرون ما قبل الإسلام، دير بإسم دير مار يونان.

اللذين درساه[٧٨]، بقايا سيكون من المثير جداً إبرازها الى حيز الوجود. إنما للقيام بالهدم الضروري لإجراء الحفريات، لابدّ أولاً من التغلّب على التعصب الشعبي والإدارة السيئة لحكومة جاهلة.

يجرّنا الحديث حتى تبلغ ساعة العشاء. لدى جلوسنا على المائدة لا نقوى، أنا وهاملن، عن الأمتناع عن التسّم، فقد أصيب كلانا بالخذلان أمام رؤية عشاء هزيل مكوّن فقط من مخضرات وجبن، غير أن الآباء كانوا ذوي تنبّه لطيف، إذ قدّموا لنا صحن بيض. وبعد العشاء نجتمع في الديوان ثاني، حيث نتحدث هنيهات أخرى حول منضدة فوقها فانوس كبير[٧٩]. خلال نصف ساعة، ينسحب الآباء لإتمام واجباتهم الدينية، بينما نمضي نحن الى غرفتنا، وللمرة الأولى منذ تسعة وعشرين يوماً، نرقد بهناء وسط شراشف سرير حقيقي.

٩ تشرين الأول (أكتوبر)

بدل لذّة الإسترخاء التي كان بوسعنا أن نقضي صباحنا فيها، ننهض باكراً لكتابة بضع رسائل، فإن البريد ينطلق اليوم في الساعة العاشرة، ولايرحل إلا كل ثمانية أيام. ننزل في الساعة العاشرة، والآباء مجتمعون في الديوان، حيث يستقبل المونسنيور زيارات التوديع، فهو سيسافر مساء.

بعد التحدث بضع دقائق، ننطلق، هاملن وأنا، يرافقنا سيمون وبعض القواصين[٨٠] الى القنصلية. لقد إشتد الحر كثيراً في تلك الأزقة الضيّقة الصغيرة.

(٧٨) سيرد ذكر بوتا وبلاس في الهامشين ١٠٥ و١٠٧، وقد برز للعيان ثور مجنح من الحلاّن مقطوع الرأس أثناء عملية ترميم جامع النبي يونس في تشرين الثاني (نوڤمبر) ١٩٨٦.

(٧٩) إناء كبير من الزجاج توضع فيه لمبة (مصباح) أو أي ضياء آخر (الرحالة).

(٨٠) أظن أني قد أعطيت شرحاً لكلمة (قواص) (أنظر الهامش ٦٢ حيث ذكر الرحالة اللفظة دون إعطاء شرح لها فشرحناها. وهو يفيدنا هنا بما سمعه لاشك إبان إقامته في الموصل): إنهم الجنود القائمون بخدمة السلطات والموظفين الأجانب، يسيرون أمامهم لإبعاد الجمهور عنهم وحمله على إحترامهم، إذ يصعب على غريب أن يسير دون أن يصحبه أحد، فالجماهير ستزدحم حوله. وهؤلاء القوّاصون نزيهون ومخلصون عادة، ولايصح إختيارهم من بين المسيحيين، لأنهم قد يلجأون أحياناً الى الضرب وليس لأحد سلطان عليهم (الرحالة). لاريب أن ندرة الزوار والأجانب في البلاد كانت تبعث على الدهشة في نفوس الأهالي.

البيوت متشابهة، داكنة، مشيّدة بالتراب المسحوق والمجفف في الشمس بحيث يعكس الحرارة ويحافظ عليها[٨١] إنها نظيفة نسبياً هذه الطرقات الصغيرة. بعضها مبلّط بألواح من حجر. لكنها متاهة حقيقية، على المرء أن يكون متعوّداً عليها لكي يطوف فيها ويتمكّن من معرفتها.

يمرّ الطريق أحياناً تحت بيت معقود على شكل قنطرة، فنلقى حينذاك بعض الظل والبرودة. وغالباً ما تكون القنطرة واطئة، بحيث يتوّجب على الفارس أن يترجّل عن الفرس لكي يتمكن من العبور. من حين لآخر نصادف حميراً صغيرة تختفي تحت حمولة حزم الحطب أو التبن، فعليك أن تلتصق بالحيطان إذا ما أردت أن تتجنّب التدافع والتخرق.

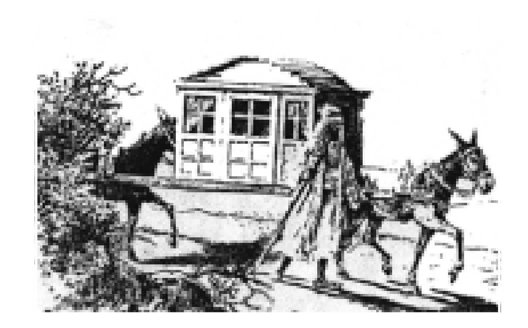
تنفتح أمامنا ساحة عارية ما تلبث أن تصلها قافلة بحميرها وجيادها وجمالها حاملة الرزم[٨٢]، فيها بغال وهودج مخصص للنساء. إن هذه العربة أشبه بمنبر، فهي صندوق مربع ذو مرايا ست، كالبرلينية القديمة، ولها أبواب ذات مجرّات مثبتة فوق محامل يوضع بينها بغلان يحملانها، الواحد من الأمام والآخر من الخلف. إن طريقة التنقل هذه هي الأكثر ترفاً حسب ما هو معروف في ديار العرب، إذ ينبغي أن يكون ثمة حيوانان آخران للتبديل، لأن الصندوق ثقيل، ويتخذ الجلوس فيه شخصان، والحيوانات التي تستخدم لهذا الغرض لاتقوى عليه أكثر من نصف نهار، لذا فهي مجموعة أربعة حيوانات تمضي بصعوبة بخطى متساوية، وليس ثمة ضمان ضد الصدمات والأذى للسير في طريق غير معبّد وغير مستو. والمحامل التي ليس فيها مرونة، هي مثبتة بشكل مباشر على بردعة الحصان بواسطة سلاسل[٨٣].

ندخل السوق. الدكاكين صغيرة وواطئة، فهي حوانيت صغيرة مكعّبة شبيهة بالخزانات، تحاذي طريقاً قصيفاً ضيقاً، تتوسطه ساقية شديدة الإزعاج في السير، لأن المنحدر يدفعك نحو الوسط بإستمرار، وثمة جذوع وأغصان (حصران) تغطي هذا الممر فتشكل ما يشبه الرواق تتكون تحته ظلال ورطوبة نسبية. ومن وقت الى آخر،

(٨١) إنه الجصّ المعروف في الموصل والمستخدم في معظم البنايات.

(٨٢) نظنها الفسحة المعروفة بباب الطوب وما قبلها، وهي حالياً في قلب مدينة الموصل.

(٨٣) إنها العربات الضخمة، وقد ترك لنا بنديه صورتها.



هودج كبير

حصان أو جمل يخنق الطريق بشكل تام، حتى إنه قد يبدو أكبر مما هو عليه في هذا الحيّز الضيّق.

بعد أن قطعنا بالتتالي: سوق الصفّارين، وحيّ الخفافين، وتجار الأقمشة، والخزافين الفخارين، والصاغة، والقصابين، والأخير فظيع بسبب كثرة الذباب ورائحة اللحم المتفسّخ، إذ يتعفّن بسرعة بسبب الحرارة، بلغنا ساحة أخرى مختلفة عن الأولى كثيراً[٨٤]. أية فوضى وأية حركة فيها. ليست أسواق الهال في باريس في الساعة الخامسة صباحاً بأشدّ حركة منها. إنهم باعة الفواكه، البطيخ، الرقي، والحلويات، يشغلونها ببسطهم، والجماهير تتجوّل وسطها، وحولها المقاهي، وأكواخ خشبية وجصية، حيث الرواد جالسون بثيابهم على مقاعد حصران يدخنون الشيبوك، والنرجيلة، والقليان، ويحتسون القهوة، ويقضون وقتهم (الكيف)[٨٥]. الطابقان الأرضيان (من المقهى) مكتظان، أما العلوي فلا تلقى فيه موضعاً.



جمل وهودج

(٨٤) هذه أسواق كانت معروفة كلها حتى سنوات قليلة خلت (أنظر: تأريخ الموصل لسعيد الديوَجي، ص٥١-٥٢: سوق الشعارين، سوق القتابين، سوق السراجين، سوق البزازين، سوق الطعام، سوق الحشيش، سوق الدواب والخ).

(٨٥) نجهل في أوروپا ما هو (الكيف)، وليس لنا كلمة تؤدي معناه، ولايقوى أوروپي يقصد الشرق على القيام بالكيف إلا متى تعوّد عليه، فهو أكثر من إهمال وكسل، لإنه نسيان تام وارادي=

لقد أزف الوقت الذي ينبغي أن نصل فيه مسكننا، لأن الساعة تسرع. لذا نسأل القواص أن يدلّنا على أقصر طريق. كيف يمكنهم معرفة الطريق؟ فالطرقات هي عينها: زوايا، ومنعرجات، وخطوط مستقيمة، وفي الأطراف حيطان عارية.



هودج نساء

الحياة هي حميمة في الشرق، والشبابيك مفتوحة في الحيطان الداخلية، وخلف باب الدخول، نلقى جداراً يمنع السابلة، فيما إذا كان الباب مفتوحاً، من رؤية ما يجري داخل البيت.

حين نصل الجماعة (الدير)، نلقى المونسنيور ألتماير يتقبل عبارات الودّ من جميع الذين يشاهدونه مغادراً الموصل. نجلس على المائدة للغداء، فيقدمون لنا حلويات المنّ.

إنها المرة الأولى التي آكل منه، ويبدو لي مذاقه لذيذاً حقاً. الحلوى مزيج من المنّ واللوز (الجوز) والحليب والطحين والسكر والعسل، تسحق بشكل قرص صغير(٨٦). وبعد الأكل، نجتمع كالعادة في الديوان، حيث نتجاذب أطراف الحديث مع المونسنيور منتظرين مغادرته. يأتي رئيس الأساقفة الأرمني (السرياني)(٨٧)، المونسنيور

= لكل ما يشدّك الى الحياة. إنه نوم اليقظة، مشحون بأحلام لذيذة، وهو خلوّ من الهموم مهما كانت المشاكل أو بوسعها أن تحصل. وليس ثمّة شرطي واحد لايمارس (الكيف) مرة واحدة في النهار على الأقل، وغالباً ما يكون ذلك خلال أربع أو خمس ساعات (الرحالة). وأنظر الهامش ١٩٨، وهو يكتب الكلمة هكذا: Keip.

(٨٦) (منّ السماء) نوع من المن والسكّر وبياض البيض، يغدو أبيض بفعل الحرارة، ويضاف إليه الفستق عادة، والجوز واللوز أحياناً، ويغلّف بالطحين منعا للإلتصاق إذ يصنع على شكل أقراص صغيرة. وهو يصنع في الموصل بأفران خاصة حتى يومنا هذا، ويعتبر من أجود الأنواع.

(٨٧) مرة أخرى يخطيء بنديه فيقول (الأرمني) بدلاً من السرياني. والمطران بهنام بني رئيس أساقفة السريان الكاثوليك على الموصل منذ عام ١٨٦٢ ثم بطريرك إنطاكية على السريان الكاثوليك سنة ١٨٩٢.

(المطران) بهنام بني لرؤية زميله متمنياً لو يرافقه. إنه شخص ذكي جداً وذو فضل كبير.

أخيراً تأزف ساعة الرحيل. إنه موكب حقيقي: ستة قواصين بأزيائهم الرسمية يفتتحون المسيرة، يليهم رئيسا الأساقفة، نتبعهما وسط الرهبان، مابين الأب دي سيكونزاك والأب هنري اللذين نعطيهما موعداً قريباً في بغداد. وخلفنا طلبة المدارس. بأقل من ربع ساعة نصل ضفة النهر حيث القوارب، في الجنوب الشرقي من الموصل، خارج الأسوار، في ضاحية صغيرة.



سوق الغنم - الموصل

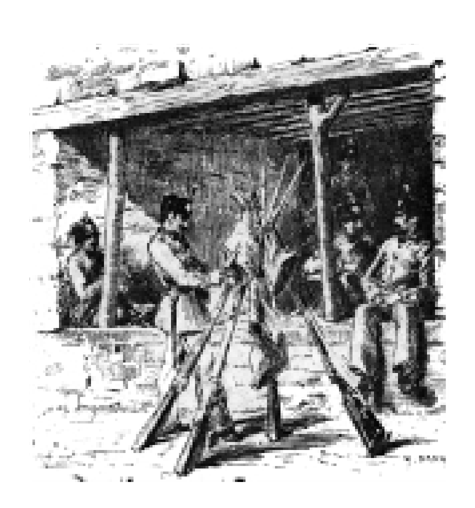
جميع الحقائب مجموعة في قارب على حدة تحمله مائتا قربة، إضافة الى التجهيزات والخدم والجندرمة، وعلى القارب الآخر المحمول فوق مائتين وعشرين قربة، خيمة منصوبة ومقسومة الى شقتين، للراهبات وللآباء.

لايوجد خشب في الموصل، إذ لاتنمو أية شجرة. والريف بأسره يبدو، ظهر صحراء جرداء. لذا فإن الخشب الذي تشيّد به هذه القوارب يصل من مناطق واقعة قرب دياربكر وسعرت وبتليس. تلقى الأشجار المقتطعة في دجلة، فتصل الموصل حيث تباع بسعر جيد، وإذ تصل بغداد تتضاعف قيمتها. تشطر سيقان الأشجار الى قسمين، وتشدّ بواسطة أربطة وجذوع، وتوضع تحتها القرب المنفوخة بالهواء. تستأجر القرب من قبل أفراد يقومون بتأجيرها لقاء خمسة قروش للواحدة.

كأننا في الوداع الأخير. يسيّر القاربين كلكان، يمضيان يتؤدي في لإتجاه المطلوب. نصعد الى سطح التلغراف الأوروبي الذي يهيمن على النهر وعلى قسم من المدينة، فنشاهد الكلكين يبتعدان. أزائنا قرية النبي يونس، والى اليسار جسر الموصل.

سكان (بونه) بفضل حميتهم
إبتنوا جسراً على بعد فرسخين من (ساوون)

حين مازح بيرون أهالي بورغونين، لم يكن يفكر بأن رباعيته هذه بوسعها أن تنطبق على الموصليين(٨٨) لقد كان من المقرر أن يشيّد جسر على دجلة في الموصل. فأختير الموقع الأشدّ ضيقاً، فإن عرض النهر هو مائة وثمانية وستون متراً في هذا الموضع، ولكنهم لم يفكروا بأن هذا الموضع هو كذلك الأشد عمقاً. ولأنه كان لابد من إقامة جسر، راح الأهالي يطالبون به قلباً وقالباً، ولم يكونوا يستطيعون بناءه على النهر. لذا نراهم قد بنوه الى جانب النهر، إذ إنه سينفع، كما قيل لهم، حين يفيض النهر. وبقي جسر القوارب، يضطرون على العبور بالزوارق. وبما أن الأهالي يجدون من السهولة أن يبلغوا الضفة مباشرة، وإن الفيضان يتجاوز السدّ أحياناً كثيرة، كان الجسر غير صالح البتة.



جنود قصابون

خلف البيت، توجد مساحة كبيرة فارغة تمتد حتى الأسوار، كأنها منطقة عسكرية. في هذه الفسحة يجري دفن الموتى دونما إهتمام بنظامها، إنما بإتجاه مكة دائماً. ولا شيء أكثر بساطة من هذه المقبرة، فهي ساحة عامة، تستعمل قبورها عادة كمصطبات، إذ تداس دون أي إعتبار يمنع ذلك، بحيث تدفع الأوروبيين أيضاً الى

(٨٨) الشاعر الفرنسي Biron يمازح أهالي مقاطعة Bourgogne الواقعة الى الشرق من فرنسا ومركزها ديجون. وموقع الجسر الحجري الذي يتحدث عنه بنديه قرب جسر القوارب الذي ظل قائماً في الموصل حتى تشييد الجسر الحديدي مكانه عام ١٩٣١.



قبور وجامع – الموصل

القيام بمثل ذلك. يلعب الأطفال حول القبور، وتستريح قوافل جمال كبيرة في وسطها، بل إنهم يتركون الحيوانات تقضم الأعشاب الحقيرة التي تنبت في زوايا الصخور. ويدفن المسلمون موتاهم بسرعة، بعد الوفاة بساعتين، حتى لو كانت الوفاة غير أكيدة. ينقل الميت الى القبر بحيث قد يحدث أن يدفن شخص ما حيّا، إذ يعتقد المسلمون أن الجسد يتألم طالما لايدفن(٨٩).

لقد إختفى القاربان. لذا نعود ونحن ندخنّ الشيبوك، ونتحدث مع الأب دفال الذي يتركنا للراحة على الطريقة الشرقية، فنرتاح من أتعابنا.

١٠ تشرين الأول (أكتوبر)

نقضي الصباح في تنظيم ملاحظاتنا. ثم نقوم بزيارة الى الراهبات اللواتي لهن بيت قريب من بيت الآباء(٩٠). يريننا بيتهن بالتفصيل، منذ المستشفى وحتى غرف

(٨٩) مبالغة أخرى من الرحالة بشأن دفن الموتى.

(٩٠) لقد كان بيت راهبات التقدمة قرب دير الآباء الدومنيكيين في محلة الساعة بالموصل منذ مجيئهن الى العراق، وحتى تأسيس جمعية القديسة كاترينا للراهبات الدومنيكيات سنة ١٩٢٩، وإنتقال البيت العام لهؤلاء سنة ١٩٥٤ الى محلة موصل الجديدة. يفيدنا بنديه هنا بشأن مدارس الدومنيكيين والدومنيكيات ونشاطاتهم في الموصل. وقد سجلّ رحالتنا هنا إنطباعاً عن البلد وأهاليه غير سليم، آثرنا حذفه.

النوم والروضة ومدرسة الأطفال الصغار الذين يعلمونهم الحروف الفرنسية والحروف العربية في الوقت عينه. لانكف عن الإعجاب بالصبر الذي يتربّى بفضله هؤلاء الصغار. العديد من البنات يتركن الروضة مبكّراً، لاسيما من المسلمات اللواتي كثيراً ما تتم خطوبتهن وهنّ بعد في المدرسة، وقد يتزوجن في سن العاشرة. أمّا البنون فيجتازون من مدرسة الراهبات الى مدرسة الآباء حيث يكملون تعليمهم.

إذ ندخل الدير (الجماعة)، يدعونا الآباء بدورهم الى زيارة مبناهم الذي يتسع يوماً بعد يوم، ويستهوي كل عام أتباعاً جدداً. إنهم لايعلمون مع المسلمين، لأن أمر هدايتهم محظور، نزور المدارس والمطبعة القائمة بشكل حسن. تطبع فيها الكتب الدينية بالأرمنية (الآرامية) والأسطرنجيلية والكلدانية والسريانية والعربية(٩١). موظفو وعمال المطبعة من الشباب الذين تربّوا لدى الرهبان (الدومنيكيين). إنهم حسنو التصرف، لكنهم بطيئون، فهم لم يتركوا هذه العادة المتأصلّة.

بعد الفراغ من الزيارة، نأتي الى الديوان للإستراحة، فنلقى القنصل الإنگليزي قد جاء لردّ الزيارة والإعتذار لإنه لم يتمكن من تقديم إحتراماته للمونسنيور ألتماير قبل سفره. يدعونا الى الغداء يوم غد.

بعد الظهر، إذ ليس للآباء مدرسة، يعرضون علينا القيام بجولة حول الاسوار. نكلّف أحد الحمّالين بحمل جهازنا الفوتوغرافي نمضي أولاً الى التلغراف حيث نسحب من هناك منظراً عاماً للجسر الشهير وللمدينة.

كل القسم الخارجي للاسوار مخصص، كما ذكرت أعلاه، للمقابر. إنه مكان ساحر في الربيع، بعد موسم الأمطار، لأن هذا السهل القاحل الصحراوي، الذي قد يظن المرء بأنه لن يكون فيه سوى الرمال والأرض اليابسة، يكتظّ بالأعشاب والأزهار وكأنه جنينة، فيترك الأهالي المدينة لكي يخيّموا في خيم تحيط بهم حيواناتهم. ومواقيت الخصب هذه التي تبدأ بشهر كانون الثاني، ليست طويلة المدى، لأن الناس والحيوانات سرعان ما ينهبون العشب، وما تلبث الشمس أن تعطي الأرض مظهر الصحراء المخيّب.

(٩١) تأسست مطبعة الآباء الدومنيكيين في الموصل سنة ١٨٥٨، وكانت حجرية في باديءالأمر، ثم حديثة سنة ١٨٦٠. وقد أخطأ بنديه مرة أخرى فقال (الأرمنية) وهو يقصد (الآرامية).

عمر الاسوار نصف قرن تقريباً، إذ أنها شيدّت أيام حكم الپاشا أحمد(٩٢). نستكمل طريقنا، فنلاحظ مرقداً صغيراً أكثر أهمية، ترتفع أربعة أعمدة من حجر يعلوها سقف في الزوايا الأربع للضريح. أولاد كثيرون يلعبون في هذا المكان. إنه حيّهم العام.

هذا المرقد الواقع في الزاوية الشمالية الغربية قد شيّده الآباء (الدومنيكيون) لتكريم ذكرى مسلم غني كان قد تفهّم عمل المرسلين النافع فقدم لهم خدمات جليلة(٩٣).

نلقانا أخيراً إزاء الواجهة الأخيرة، الجهة الشمالية التي كان يغمرها فرع من دجلة. أمام باب هذا الطرف تكثر الأكلات القادمة من دياربكر. الأب الفاضل دفال، ناظر (رئيس) الرسالة (الدومنيكية) الذي يسكن بلاد مابين النهرين منذ أكثر من ثلاثين سنة، يذكر إنه قد أستعملها.

دجلة هو أشد الأنهر هوى. يغيّر مجراه كما يستبدل (دون جوان) عشيقاته. فإن عام أمطار وفيضانات يحمله كيلومتر اًعن المكان الذي إعتاد فيه مجراه وكان يظن إنه قد ثبت فيه بشكل نهائي. والموصل التي هي حالياً على الضفة اليمنى، لعلها كانت الأيام تأسيسها على الضفة اليسرى، في موقع ضاحية نينوى(٩٤).

نتأمل من أعلى باب الشمال المدينة والمنطقة الصحراوية المحتواة ضمن الاسوار والبيوت. بوسعنا القول إنها ساحة كبرى يلجأ إليها الرعيان وقبائل البدو محتمين

(٩٢) المقصود أحمد الپاشا الجليلي والي الموصل ١٨١٢-١٨١٧ ثم ١٨١٨-١٨٢٢، وفي عهده قام القنصل البريطاني ريج بالتنقيب عن اسوار نينوى.

(٩٣) إنه قبر سليمان آغا إبن يونس بن مصطفى بن يوسف إبن الملا محمد من آغوات محلة باب البيض بالموصل. ويحكي حفيده أمين آغا إبن عبدالله بن سليم بن داود أن الخدمة التي قدّمها جدهم للآباء الدومنيكيين مكنّتهم من بناء الكنيسة وبرج الساعة وخففت البلبلة التي أثيرت حولهم بسبب إسخدامهم عربات ذات عجلات لنقل مواد البناء وشكوك بعضهم حول قيام الآباء بأعمال ليست في صالح البلد، وقد كان لي أن أطلع قبل سنوات على وثائق ماتزال غير منشورة، جلّها رسائل وتقارير هؤلاء المرسلين.

(٩٤) يبالغ الرحالة في وصف تغير مجرى دجلة، ولو إنه محقّ بعض الشيء كما يبان من آثار المهود التي تركها هذا النهر لكي يتخذ له مسالك غيرها.

ضد الغزاة في حالات غزو ما.

تمتّد التحصينات بإمتداد النهر عمودياً. وفي المنطقة التي تتصل به، ترتفع كهضبة كان مشيّداً فوقها قلعة مهيمنة على النهر كالرأس من الجسم مسافة خمسين متراً[٩٥]. نمر قرب قبر عجيب وقديم جداً. إنه من الطابوق المشوي. تحمل الواجهة الشمالية منه كتابة يبدو إنها بالغة الأهمية. لكنني مع الأسف لست قادراً على أن أحكم عليها، إلا أن المسيو سيوفي قنصلنا، المتبحّر باللغة العربية، يقدّرها حق التقدير، وقد بعث بطبعها الى باريس. أمّا من الناحية الفنية، فإن هذا القبر غريب حقاً، إذ توجد من جميع أطراف الباب، أسفل الكتابة، مقطعان من طابوق طبيعي مسبوك، برسوم مذهلة، وخطوط عريضة عرض سنتمترين، موشاة بزمرد الخزف المطلي الأزرق بشفافية كبيرة خالصة تماماً[٩٦].

بينما كنا نتجوّل، لاحظنا على الوجوه آثار بثور، أو خراجات، كأنها الدمامل. إنه مرض المراكز الكبيرة في هذه البلدان الحارّة. يسموّنها، وفقا للمدن التي يصاب فيها المرء، حبّة حلب، أو حبّة دياربكر، أو الموصل، أو بغداد. كنت قد رأيت في الجزائر مسامير بيسكره، ويبدو لي أن لها بعض العلاقة مع هذه، فإن هذه الحبوب - البثور المجهولة الأسباب، تظهر أولاً على شكل نقطة صغيرة حمراء، ثم ما تلبث أن تكبر حتى تغدو بحجم مسمار صلب، ثم تنفجر وتزول خلال عام، مخلّفة أثراً داكناً سيئاً. وقد جاء بغداد أطباء أوروپيون لدراستها خصيصاً، غير أنهم لم يحصلوا على نتيجة، بل جعلوها أشد حساسية، وغدت البثور أشد سماجة. لانجد وجوداً لهذه الحبوب إلاّ في المدن ذات الشأن، فهي موجودة في الموصل، ولاتظهر البتة في قرية النبي يونس الصغيرة الواقعة في الأحوال الصحية عينها. ولايخلو الناس النظاف والمعنيون بأنفسهم منها، بل حالهم كحال الذين يعيشون في قذارة مستمرة. وفي خط حلب ودياربكر والموصل وبغداد، لاتظهر في قرى صغيرة تتوسط هذه المواقع. بل ثمّة

(٩٥) إنها قلعة باشطابيا (البرج الرئيسي) التي كان لها دور كبير في صد غزو طهماسب نادرشاه للموصل عام ١٧٤٣، وينوّه بآثار دار الأمّارة (قره سراي).

(٩٦) إنه قبر إبن أو أبناء الأثير، وأشهرهم صاحب (الكامل في التاريخ) ويقع القبر قرب باب سنجار.

واقع غريب، كونها تظهر في وجوه أهالي البلد، بينما بالنسبة للأجانب تظهر على الأذرع والأيدي. لكنها ليست قاعدة عامة. ولايعرف أحد كيف يصاب المرء بها. إذ يذكر أن مسافرين أصيبوا بها مع أنهم لم يبقوا إلاّ بضعة أيام في إحدى هذه المدن المذكورة، بينما لم تظهر على آخرين سوى نقطة حمراء بعد عودتهم الى بلادهم بعدة أشهر. كل المرسلين تقريباً مبتلون بها، فهي ضريبة يجب أن تدفع. أحد هؤلاء السادة يتألم حالياً من إحدى هذه الحبوب التي أصابته في خدّه.

يميّز الناس في بغداد نوعين منها: الحبّة الذكر التي تجيء وحدها، والحبّة الأخت التي تتكاثر. والأخيرة من حجم أصغر، بل إنها فظيعة كالذكر. وقد ذكر لي أن أحدهم أبتلي بثلاثين منها. وأحد الدومنيكيين الذين عاشوا في الموصل ست سنوات لم يصب بها، لكنه بعد عودته الى فرنسا بثلاث سنوات، أصيب بحبّة مريبة في الصدغ. لقد كان فطنا فلم يحاول أن يوقف تطورّها، فإختفت الحبّة، إذ إنه من المعروف إن كل من حاول معالجة هذا الداء، يحمل من جرائها آثاراً مروعة.

نعني بإعداد الكلك. إن عدة آباء قد قاموا بقطع المسافة، لذا فهم يزودوننا بخبرتهم بقدر ما يتمكنون، نجّار الدير (الجماعة) يهيء لنا خيمة صغيرة من الخشب مفروشة بالقطن والأقمشة القطنية. ومدبّر البيت يتكلّف بشراء اللوازم. أن الإنحدار الى بغداد يتطلب أربعة أو خمسة أيام في آذار أو في نيسان، عندما تكون المياه مرتفعة، ويستمرّ أحياناً عشرة الى إثني عشر يوماً في هذه الفترة من السنة الأشدّ جفافاً. يلزمنا وقت أكثر من مدة عبور المحيطات للذهاب من هافر الى نيويورك. فالنهر يسير في صحراء تامة، وبوسعنا أن نهلك جوعاً إذا لم نؤمّن لأنفسنا كل شيء قبل السفر، فالضفاف الجرداء لاتزودّنا حتى بالحطب الكافي للطهي.

مسيو سيوفي لم يرجع بعد، فنأسف لذلك جداً. إذ إننا بواسطته كنا نتمنى أن نقدم أنفسنا الى السلطات. الأب دفال يعلم والي المدينة والولاية بأننا سنزورهما غداً.

لدى عودتنا الى غرفتنا نرى ثيابنا التي كان من طيب الراهبات أن يقمن بغسلها وترتيبها. إنها خدمة لاتثمّن، لأننا سنلقى في طهران فقط أمتعتنا، وفيها إحتياطاتنا.

١١ تشرين الأول (أكتوبر)

نمضي على فرس لزيارة السلطات، لأن الذهاب مترجلين دليل نقص لياقة وسبب إحراج. نقصد أولاً الوالي العام للمنطقة، تحسين پاشا الذي يسكن خارج المدينة في المبنى الكبير المستخدم كثكنة، ومنه نشاهد بيت التلغراف.

نجتاز المدينة، يحمينا القوّاصون وخادمان يمسكان بجوادينا أثناء الزيارة. نخرج من باب لكش[٩٧]،فيبدأ ممشى طويل بعد منطقة المقابر، يقودنا الى السراي، محاط بصفين من الأشجار، كلها مريضة أو ميتة، أما قرب القصر فلايوجد أثر للنبات. لماذا زرعوا الكاليبتس والدردار والسنديان التي لاتقوى على التكيّف على المناخ، ولم يزرعوا ممشى جميلاً من النخيل كان سينجح حتماً؟[٩٨]

إذ نلج البوابة، يخرج رجال البريد مستعرضين الأسلحة إحتراما، البعض منهم أمام المدفع، والآخرون خلفه. نترك الجوادين في الفناء. ونصعد الى الطابق الأول حيث يقدم لنا بريدي آخر إستعراض الشرف. يدخلوننا الى صالون صغير فيه الوالي. يرتدي بزّة أوروپية، وقامته حسنة. يتكلم الفرنسية، ويستقبلنا بكياسة. الصالون الصغير مطلّ على الواجهة المشرفة على النهر. ثمّة منظر لطيف من خلال الشبابيك ذات الحدائد، يطل على الريف ودجلة والقرية. كلمات الپاشا مفعمة، كما هي العادة دوماً، بمجاملات ووعود مفرطة في مبالغات لايمكن أن تتحقق لو طبقت فعلا، ورغم ذلك فإن الوالي يعدنا بأن يعطينا شرطة (جندرمة) للسفر.

يكثر على ضفاف دجلة أفراد يسلبون الأكلاك، وقد نهبوا عدة أكلات في الأيام الأخيرة، فمن غير الفطنة أن نمخر النهر دون حراس.

بعد زيارة ربع ساعة، وإحتساء ما لابدّ منه من عصير وقهوة، نودع تحسين پاشا[٩٩]، شاكرين له حسن نواياه. نمرّ بسلسلة من التحيات المسلحة ذاتها، ونغادر

(٩٧) صورة جميلة لباب لكش، يمكننا إعتبارها وثيقة نفيسة جداً. وتاريخ الباب سنة ١٢١٧هـ.

(٩٨) مبالغة أخرى لرحالتنا، فهو لايدري بأن النخيل لاتتحمل مناخ الموصل شتاء. وموقع (السراي) معروف، قرب الجسر الحديدي، مطلّ على النهر.

(٩٩) حاكم ولاية الموصل عهد ذاك تحسين پاشا. فقد إستعادت الموصل منذ سنة ١٨٧٩ شأنها، فأصبحت ولاية لا سنجاق، كركوك والسليمانية، بالإضافة الى سنجق المركز.



باب لكش- الموصل

القصر للذهاب لدى حمدي بك والي المدينة[١٠٠]. الإرتخاء واللامبالاة الشرقيان يريحانني بحيث إني أترك الخادمين يقودان حصاني، ماسكين أياه كل من جهته.

مسكن حمدي بك هو الى جانب القنصلية الفرنسية. الإستقبال حميم بنوع أكبر. ليس ثمّة جنود على الباب، لأن الوالي في بيته، في مسكن صغير، بقميص غير مزرر، وبنطلون من قماش أوروپي. يجلس على كرسي ديوان ماسكاً بيده رجله المكسوّة بجورب. لدى دخولنا يترك رجله لكي يمدّ إلينا يده. يحيط به بعض الأوروپيين، أحدهم مهندس نمساوي مكلّف بإدارة طريق الموصل. سكرتيره الذي عاش سنة في پاريس، لايتذكر سوى حيّ بريدا، بولييه وشارع سان ميشيل[١٠١]، فهو قد ركزّ هناك حماسه للمدينة الأولى في العالم.

أما حمدي بك فلا يعرف پاريس، وشوقه كبير في الذهاب إليها. هل الوصف الذي نقوم به والحكاية الخيالية لسكرتيره هما مبعث تجربته؟ يتكلم الفرنسية بنوع أفضل من رئيسه. وبما أن الرسميات هنا أخفّ، يكون الحديث سلسلاً. إنه غير متزوج، وهذا الأمر هو علامة إنحطاط كبير هنا. خلال لحظات قليلة يقدّم لنا القهوة وسكاير محلية.

(١٠٠) والي المدينة يومذاك حمدي بك، ويقع مسكنه في المحلة المعروفة بالقلعة.

(١٠١) أحياء وشوارع في مدينة پاريس: Bréda, Bullier, Saint-Michel

تستحق السكاير وصفاً خاصاً، فهي تعوض عن الشيبوك في الإستقبالات، لأنها مريحة أكثر وأسهل من حيث التقديم، لكنه عمل كبير لتركي لكي يتعلم كيف يلفّها. فثمة باعة موجودون في السوق، يصنعون أنابيب ورقية مخروطية قليلاً، يبيعونها فارغة، فتملأ في البيوت بتبغ جاف جداً، أشبه بالتراب (البودرة)، فتكون السيكارة. إلا أن فيها ما يزعج، إذ ليس للتبغ ثبوت، بل ثمّة خطر سقوط القسم المتأجج، بحيث يحرق الطنافس والأثاث، لكنهم يتخذون الحيطة بوضع إناء صغير من الجلد لكل مدّخن لكي يضع فيه رماده.

نودع حمدي بك، ونمضي لدى قنصل إنكلترا الذي ينتظرنا[١٠٢]. نصل نحو الظهر.

يقدّم لنا الغداء في ديوان شبيه بديوان الآباء. نتحدّث عن ندرة السائحين، فمنذ ست سنوات لم يأت إنكليزي واحد الى الموصل. ثم يتحوّل الحديث الى الصيد، فالقنصل معجب جداً بذلك، ويأسف لأنه لايلقى هنا رفيقاً يطارد الجبال ويصطاد الخنزير والدب.

الدبّ يخشى السكان جداً، وغالباً ما يهجم على الماشية. تدور حوله قصص غريبة جداً فيوماً ما، في قرية صغيرة، أختفت إمرأة إختطفها دب، فبحث الزوج عن إمراته في كل مكان حتى يئس من الأمر، وأخيراً وجدها في مغارة الدب. رجاها أن تخرج، لكنها رفضت قائلة إنها قد لقيت رفيقاً أشدّ لطفاً من زوجها "فهو يحمل إليّ العسل والثمار، ومساءً هو أحنّ بكثير، يلعس رجلي، يحتضنني، ولايضربني قط!" غير أن محمداً، (وهو إسم زوجها)، لم يكن له أن يتحمل هذه العلاقة، فقتل الدب، وأعيدت المرأة الى الدار الزوجية، وأصاب الزوج جلد غريمه.

نعود لدى الآباء نحو الساعة الثانية. إنهم قلقون لعدم عودة مسيو سيوفي، فقد ذهب حتى سنجار لكي يستقبل زوجته التي ستصل من دمشق عبر الصحراء، وتدمر (بالميرا)، والدير، والطريق هذه قاسية ومتعبة، فقد تمضي أيام ولايعثرون على بئر، كما يحدث أن تهاجمهم عصابات أعراب.

(١٠٢) قنصلية إنكلترا قرب محطة القطار حالياً.

لإشغال فترة مابعد الظهر، نتجوّل خارج المدينة، نحو الساعة الرابعة. ضفاف النهر مكتظّة بالعوسج على بعد كيلومتر أو كيلومترين جنوبي الموصل. الدرّاج موجود بكميات كبيرة. كل المساحة تغطّى بالمياه إبان الفيضانات، ربيعاً، لذا ينمو فيها بغزارة البطيخ من الحجم الكبير، والقرع، والرّقي، وهذه أساس غذاء السكان. والمزارعون الذين يزرعون هذه الخضراوات يخيّمون وسطها لحمايتها من السلب. وهم مسلحون، وقد يطلقون النار دون تأنيب ضمير ضد أول من يدنو منها.



لوحة إمرأة

ودجلة مملوء بالأسماك. ومن جملة أنواع السمك، أنواع ممتازة. أكبر أنواع السمك حتى بغداد، هو سمك طوبيا[١٠٣]، حجمه متر ونصف طولاً، وقطره من ٢٠ الى ثلاثين سنتمتراً. أما بعد بغداد، فإنا نلقى القروش، لذا فمن الخطورة السباحة دون إتخاذ إحتياطات. لقد شوهدت قروش تصعد في الكارون، أحد روافد دجلة، حتى شوستر.

وعلى ضفاف دجلة، على بعد بضعة فراسخ من الموصل، تنبع عيون كبريتية تنشر رائحة كريهة وتشوّه مذاق المياه. وبفضل هذه العيون يصلح النهر في عدة مناطق لشفاء أمراض الدم الخطرة المنتشرة في ديار العرب، ويحتاج المرض الى علاجات جدّية. وثمّة عدة منابع قار ونفط في جبال الغرب، وكذلك في جبل سنجار وجبل محلبية في الشرق، لكنها ليست مستغلة.

(١٠٣) نسبة الى طوبيا، كما في العهد القديم، سفر طوبيا، الفصل السادس، العدد ٢، وهو (الحوت).

بعد أن إسترحنا بضع دقائق، عدنا من الباب الغربي. قوافل كبيرة من الجمال يحرسها رجل واحد تخيّم خارج المدينة، قاعية على قوائمها الأربع المطوية تحتها، شبيهة باللقالق الجاثمة على بحيرة. وهذه الحيوانات تجترّ بهدوء. إنها صور حية للطف والصبر.

قرب قبر حديث العهد، تنوح باكيات ويتنهدن مولولات. وحين تشاء نساء الميت عدم تحميل أنفسهن هذا العبء، يدفعن لعدّادات مبلغاً، فيقمن بالنواح بحسب الساعات المتفق عليها، مطنبات بخصال المتوفى. هذه التمثيلية الصغيرة، أيا كان يوم الوفاة، تستمر حتى الجمعة لأن الله يفتح أبواب السماء للميت يوم الجمعة، بحسب الإعتقاد، لذا فهو خير عميم أن يموت المرء يوم الخميس، وقد يتم تقريب وفاة المريض أحياناً لهذا الغرض.

لدى عودتنا الى الدير (الجماعة)، نلقي مؤجر الجياد الذي جاءنا به المدبّر. إنه سيقودنا الى نينوى وخورسباد. نودّ السفر الساعة السادسة صباحاً، الثانية عشرة بحسب التوقيت التركي، أي مع طلوع الشمس.

١٢ تشرين الأول (أكتوبر)

الجياد جاهزة في الساعة المعينّة، طعامنا موضوع في خرجين يحملهما حصان الدليل. نجتاز المدينة وهي هادئة جداً في الصباح كما في النهار. ثم يستيقظ السوق، ويفتح الباعة دكاكينهم، وتنظّف المقاعد، وعليها بعض الرواد. نصل الجسر، الإزدحام فيه كبير، لاسيما في الساعات الأولى من النهار، لأن المدينة مغلقة ليلا. كذا الإزدحام شديد، بحيث إننا نضطرّ على الدخول والخروج بإنتظام لتجنّب المحاذير التي قد تقود بلاشك الى صدمات للحيوانات المحمّلة بالصناديق الضخمة. ثمّة مقهى كبير في أعلى الباب، يرتاح فيه بكسل ولامبالاة رواد هادئون يدخنون متفلسفين، محتقرين صخب الجماهير(١٠٤). ونحن مضطروّن أن ننتظر لكي يمرّ الموج الوافد من الإتجاه المضاد. الحيوانات تتبلبل، والجمال بنظراتها الثاقبة تحرّكها

(١٠٤) لقد كان هذا المقهى قائماً الى سنوات قليلة مضت، ويعرف بمقهى (الشوب) عند باب الجسر القديم.

صراخات الناس، فتدفع الحمير بمجموعها دون أن تراها، على الجميع أن يتدافعوا لدى العبور، ومن لايتمكّن من دفع الرسوم، يترك منديلاً أو عقالاً أو قميصاً أو رزمة له، يحتفظ بها كرهان، وقد يباع الغرض مساءً بالمزاد إذا لم يأت صاحبه ويسدد ما عليه من ضريبة.

إن قنصل إنگلترا، بحجة أن يرينا تل قوينجق، يعيرنا قواصه، إنما غايته الحقيقية الإطلاع على ما نفعل، فالإنگليز يعزون الى أنفسهم كل المجد بالنسبة للإكتشافات التي تمت في نينوى وعلى مجاري دجلة. غير إنهم، رغم قيامهم بأعمال كبيرة بهمة لايارد ولوفتس، وإبرازهم الى حيز النور بقايا دفينة لمدن عظيمة، فإن بوتا الفرنسي هو حقاً أول من إكتشفها وأظهرها(١٠٥).

فسنة ١٨٤٢، إذ كان بوتا عائداً يوماً من فارس، ومارأ بالموصل، إستحثه طابوق أراه أياه الأهالي، ومصدره هضبة واقعة على الضفة الأخرى من دجلة، أن يسأل الحكومة الفرنسية لكي تخصص له موقعاً كقنصل لفرنسا، لكي يعمل في الحفريات. وقد تم فعلاً إنشاء المنصب، وبوشر بالحفريات، لكنها لم تعط نتائج كبيرة.

ولما عرف سكان قرية خورسباد بأن فرنسياً يبحث عن الطابوق، حملوا إليه طابوقاً، مدعين إنه بوسعهم إيجاد كميات أكبر في حقولهم، فتحوّل بوتا الى هناك،

(١٠٥) بشأن التنقيبات في نينوى والمدن الآشورية الأخرى والمواقع الأثرية في شمال العراق، أنظر: د. محمود الأمين، إستكشافات أثرية جديدة في شمال العراق، مجلة سومر، المجلد ٤ (١٩٤٨)، ود. فوزي رشيد، حل رموز الخط المسماري، مجلة بين النهرين، السنة ١، العدد ٤ (١٩٧٣)، وعلوم البابليين لروثن، الفصل الثاني والخ. وبشأن الآثاريين والمنقبين المذكورين هنا:

E. H. Layard أوستن هنري لايارد (١٨١٧-١٨٩٤) آثاري ودبلوماسي إنگليزي، قام بالتنقيبات في نينوى ونمرود وآشور وبابل وكيش في السنوات ١٨٤٥-١٨٥١.

Sir W. K. Loftus السر وليم كنت لوفتس، آثاري إنگليزي نقب في سوسه سنة ١٨٥١، وإستكشف القسم الجنوبي من بلاد بابل ولارسا، وأرسله رولنصون الى نينوى ونمرود لإستكمال الحفريات.

P. E. Botta بول أميل بوتا (١٨٠٢-١٨٧٠) إكتشف خورسباد ونقب فيها أيام كان قنصل فرنسا في الموصل، ويعتبر أول من إبتدأ بالتنقيبات في تل قوينجق (نينوى) وذلك منذ سنة ١٨٤٢.

ولقي في خورسباد آثاراً أشد وضوحاً مما في قوينجق[١٠٦]، وإذ لم تكن لديه مبالغ كافية للعمل في الموضعين معاً، أهمل تل قوينجق، وإبتدأ العمل في الموقع الجديد.

ولما كانت قرية خورسباد الصغيرة تقع فوق الأطلال، غير (بوتا) مكانها، إذ شيد على نفقته الخاصة قرية في السهل، حيث هي الآن. وابتدأت الحفريات.

وقد أكمل پلاس، خلف بوتا، هذا العمل بشكل ممتاز[١٠٧].

إن خرائب قصر سرجون هي التي رأت النور بالشكل الأكمل وبالعناية الأتم، وذلك بنوع أفضل من جميع أطلال بلاد ما بين النهرين. فقد كان القصر منفياً، وأشغلت مساحة الحفريات نحو عشرة هكتارات. من هذا القصر جاءتنا الثيران المجنحة ذات الرؤوس البشرية الموجودة حالياً في اللوڤر. وثمّة قطع أخرى عجيبة كانت مخصصة لمتاحفنا لم يتمكنوا من أيصالها، إذا إنها حملت بصعوبة الى دجلة، إلا أن العديد منها إبتلعها النهر. وقد إكتشف پلاس أيضاً كتل حدائد، وبقايا أسلحة، وأدوات وآلات حديدية من شتى الأنواع[١٠٨].

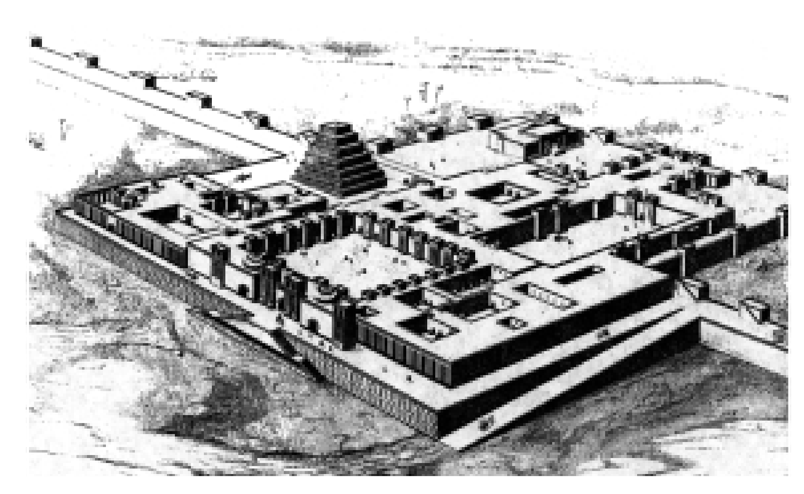
لنعد الى نينوى والى زيارتنا. على الرغم من أن جزءً ضئيلاً فقط من التل ثم تنقيبه بشكل جدّي، وإن ثمّة تلولاً كثيرة أخرى تنتظر دورها لكي تبرز للعيان وتكشف عن بعض أسرار الإمبراطورية العظيمة المتوارية. فإن الأوامر تمنع، بقرارات حكومة لاتبحث عن إكتشاف الثروات لنفسها، وتمنع الآخرين من التنقيب، فالباب العالي يرفض كموقف، الفرمان الضروري لإستئناف الحفريات. وإذا ما منحه من باب الصدف، فبالشرط الوحيد أن أي عمل فنيّ مكتشف يعود إليه، وكمكافأة عن الأتعاب، لايسع العلماء والباحثين الدؤوبين سوى الحصول على خرائط وبعض

(١٠٦) نينوى هي المدينة الثالثة للآشوريين، بعد آشور ونمرود، ومن أهم معالمها القصور والمعابد المكتشفة في تل قوينجق والأسوار والأبواب، وتل النبي يونس يحتضن آثاراً مهمة. أما خورسباد، أو خورساباد، فهي دور شروكين العاصمة الرابعة بناها سرجون الثاني، وقد كشف فيها عن القصر والمعابد والبرج المدرج أي الزقورة.

(١٠٧) Victor Place فكتور پلاس (١٨١٨-١٨٧٥) قنصل فرنسي، نقب في خورسباد في السنوات ١٨٥٢-١٨٥٤.

(١٠٨) يحيلنا الرحالة الى هذه الكتب للمراجعة بشأن التنقيبات في نينوى وخورسباد:

Parrot et Chipiez, Histoire de l`art dans l`antiquité; Place, Ninive, Beulé, Fouilles et découvertes.



مخطط خورسباد

التخطيطات والرسوم والصور الفوتوغرافية، لذا نراهم ييأسون ويتركون العمل. ومع ذلك، فإن الإنگليز، لكي لايفقدوا حقوقهم في تلّ نينوى، أقاموا في الموضع كوخاً ذا ستة أقدام مربعة من التراب المسحوق، بدون سقف، يضم بعض أكوام أدوات وطابوق، ملقاة كالنفايات في إحدى الزوايا، يطلقون عليها بتفخيم: المتحف البريطاني.

لا أهمية كبيرة لما أكتشف حتى الآن، من وجهة نظر تاريخية. وحتى من وجهة نظر الإكتشافات عينها، فإنها ستكون أغنى لو أن علماءنا عرفوا قراءة الكتابات العديدة بشكل أكيد، فهي تغطي الجدران والمنحوتات. وما يظنون بأنهم قد فهموه، مايزال قابلاً للجدل، على الرغم من الكتابات ذات اللغات الثلاث المكتشفة في وان وبيستون[١٠٨]*

(١٠٨)* وان Van مدينة معروفة واقعة على البحيرة التي تعرف بإسمها، في تركيا الشرقية. أما (بيستون)، ويكتبها بنديه Bisoutoun فتقع بين كرمنشاه وهمدان، وقد عثر هناك على حجر يحمل كتابة ذات خطوط ثلاثة بالمسمارية، وباللغات الرسمية الثلاث التي كانت مستخدمة عهدذاك في فارس وهي الفارسية الأخمينية، والعيلامية الحديثة، والبابلية، وقد كانت الأخيرة لغة الشرق الدبلوماسية يومذاك (أنظر: علوم البابليين، تأليف مارگريت روثن، ترجمة د. يوسف حبي، ص٢٤).

فإنها قد ساعدتهم كثيراً. وثمّة كتابات أخرى عديدة بأحرف مسمارية ماتزال غير مشخصة.

لقد كانت الغرف الداخلية لهذه القصور مكسوة من جميع الأطراف بصفائح مرمرية منحوتة تمثل معارك أو مشاهد صيد حيوانات وأسماك، ودجلة بأسماكه، وواحات مليئة بالنخيل، وفي الغالب كتابات طويلة على المنحوت عينه. وثمّة آثار العنقاء، والأسود، والثيران المجنحة الهائلة، فوقها جميعاً حروف منحوتة تبدو إنها تحكي وقائع تاريخية مهمة. ويبدو الطابوق المشويّ الذي نلقاه مستخدماً للألواح والكتب، لا كمادة بناء.

نمتطي الجياد بعد نحو ساعتين، ونغادر الى خورسباد، مقتفين مجرى غدير صغير.

الريف مزروع، ولانتبيّن حقول الحنطة والشعير والحبوب إلا من خلال سيقان تنمو بعد الحصاد. نصادف بعض حقول قطن من نوع ضعيف، الى جانب حقول خشخاش وأفيون. بيوت الفلاحين هي حقاً قلاع صغيرة مربعة الشكل، عرضها أربعة أمتار وعلوّها كذلك. ماعدا الباب، الفتحات الوحيدة كوى صغيرة أشبه بڤرساي لويس الرابع عشر الآشورية[١٠٩]، إنه مطمور مرة أخرى. لدى حفري طرف ثقب، أزلت كميات كبيرة من التراب كانت تغطي حائط طابوق منقوش. الرسم المتكرر مراراً، كان شريطاً زخرفياً، يمّثل الموضوع عينه على مجموع طابوقات ثمان. قضيت ساعتين في الكشف عن هذا الأثر بسكّين الصيد، وقد كانت الحرارة فظيعة، والهواء ناقصاً في هذه الحفرة، لذا كان تعبي كبيراً جداً. كلّفت أحد الفلاحين بحمل نتيجة عملي المضني الى الموصل، ووعدته بمكافأة كبيرة إذا ما وصل كل شيء إليّ بحال جيدة.

نعاود السير، فنمرّ بالقرب من جبل صغير. بإتجاه الموصل بوشر بشيء طفيف من حفريات أبانت رأس ثور مجنح ضخم، ثم توقفت الأعمال بحجة أن هذا الأثر، الشبيه جداً بسوابقه، لن يحمل شيئاً جديداً بالنسبة للعلم. غير إن هذه المجنّحات الضخمة تحمل دوماً في المساحة المستوية، أي في الفراغ الذي بين السيقان، ألواحاً مكسوّة بالكتابات.

(١٠٩) Versailles على بعد ٢٣ كم جنوب غربي باريس. قصر منيف وحدائق غنّاء، عزز مجدها أكثر من ملك، أشهرهم لويس الرابع عشر. وڤرساي اليوم متاحف وقاعات إستقبالات كبرى.

من أعلى الهضبة التي نحن عليها، نشاهد في عين الإتجاه (إتجاه الموصل)، هضبات شبيهة الشكل والحجم، من المحتمل أن أيّا منها يحمل حيواناً مماثلاً أستخدم سابقاً كفاصل ميداني أو مؤشر للطريق.

الطريق الذي نسلكه للعودة، ليس الطريق الذي أتبعناه في ذهابنا. نمرّ بقرية (بيبو) بحيث نشاهد مائدة صغيرة على شكل مثلث غريب الشكل، فهو مقطوع من كتلة حجرية واحدة. المنضدة دائرية، قطرها ثمانون سنتمتراً، وسمكها نحو ستة سنتمترات، عليها كتابة مسمارية، ورجلها التي تكوّن جسماً واحداً معها، بشكل منشور ممتليء مثلث ذي حراشف قليلة الحفر متجّهة الى الأعلى، تمثل مخالب أسد ذي أربع أصابع، على علوّ عشرين سنتمتراً من القاعدة.

نقضي وقتاً طويلاً على الفرس حتى نبلغ رباط التلول التي تغطّي أسوار نينوى، ثم ندخل الموصل.

الأطلال محفوظة، لحسن الحظ، دون أن يلحق بها الضرر، تحت التراب الطيني الذي يغطيّها ويضمن بقاءها ضد تقلبات المناخ. وربما يثير في طريقة تشييد تلك القصور، ما يبان وكأن لا وجود للأسس فيها. فقد كانوا يبدأون البناء برفع قاعدة عظيمة من الطابوق والحجارة فوق الأرض بعلوّ مترين أو ثلاثة، ثم يقام البنيان فوقها. وتبدو قاعدة القصر في الحفريات التي تمّت في خورسباد أنها أعلى بكثير، إذ كانت تبلغ، حسب پلاس، علوّ الأسوار، وتبلغ هذه، وفقاً لقياساته، نحو ثمانية عشر متراً. بينما يبلغ عرضها في القاعدة أربعة وعشرين متراً. وهذا ما يشرح كيف أن ديودور الصقلي يروي بأن عربات عديدة كانت تطارد على الواجهة في أعلى الأسوار[١١٠] فإنّا نلاحظ آثار ذلك هنا.

يجب أن تكون الغرف عالية، ومن جميع الأطراف في الداخل ألواح من المرمر مثبتة على طول الجدران المبنية من الطابوق المجفف بالشمس (اللّبِن). ونادراً ما تكون هذه الألواح أعلى من أربعة أمتار، وجد منها في النمرود بعلو ثلاثة أمتار، بينما إرتفاع الأسود والثيران المجنحة ذات الرؤوس البشرية التي كانت تشكل

(١١٠) ديودور الصقلي ٧:٢. وأنظر هيرودوت، الكتاب الأول، ١٧٩. وراجع سفر التكوين ٣:١١ (الرحالة).



خناجر

سكاكين

غمد خنجر

آنية عربية

معطف ملكة كلدانية

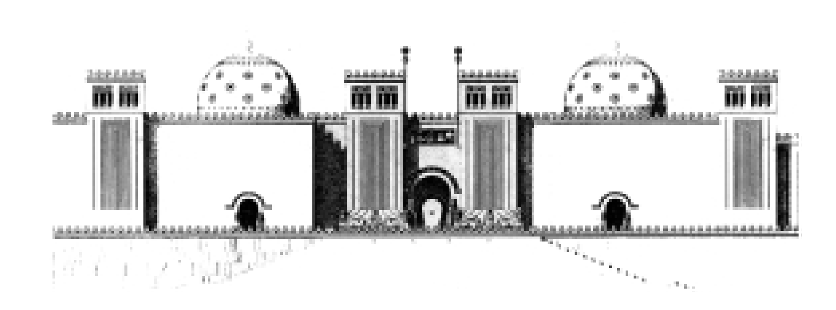
مداخل الأبواب، يبلغ خمسة أمتار ونيفا، ولم تكن هذه الحيوانات لتبلغ سقف الغرفة، بل أن الحائط يزيد متراً آخر، وكان القسم الأخير مشيّداً بالطابوق المشوي المنقوش، ممثلة فيه أشكالاً أو زخارف غنية، أو إنها كانت من طابوق بسيط مجفف في الشمس (أي من اللبن) ومطلي بطبقة خفيفة من الملاط (البياض) المصبوغ كذلك، كما يمكن ملاحظته من البياض الساقط الذي حافظ التراب عليه(١١١).

لقد أكدّ لايارد منذ زمن طويل بأن سطوح الغرف لايمكن أن تكون إلاّ من أخشاب (مدود) كانت تنشر عليها طبقة من تراب مسحوق. وكان يدعم رأيه هذا بعرض الغرف القليل، كما وإنه لم يعثر في الأنقاض على بقايا عقد (قبب). أما پلاس، ومساعده فلاندن فكانا يبرهنان على العكس بأن الآشوريين إستخدموا العقدة كثيراً، وعليها كانوا يسندون السطوح التي تشكل السقوف، وقد كانت هذه العقد من التراب المسحوق المخلوط ربما بالأغصان، وكان سمكها كبيراً لكي تحمي من الحرارة بمقدار أكبر. ولعل الطابوق المشوي كان يشكلّ القسم الداخلي منها. وليس لنا إيضاح هذه النقطة، لأن ما بقي من الحيطان لايصل، ماعدا في باب خورسباد، الى قاعدة القوس. وحين هجرت القصور، أو خربت بالحريق الذي أشعله الغزاة، تهدّمت العقد، ومعها القسم من الحيطان المشيّد بالطابوق المشوي الذي فوق القطع المنحوتة، وهذا التهدم الذي دفن المنحوتات بشكل كامل، هو الذي ضمن لها الحفاظ، إذ لم يكن في الإمكان إطلاقاً الحفاظ على هذه المنحوتات لو إنها ظلت زماناً طويلاً معرضّة للهواء، أو فيما لو كان تجمّع التراب والرمال قد سبب لها الدفن بشكل تدريجي(١١٢).

ويمكن تعليل سمك السطح بندرة الحجارة، وخاصة لحاجتهم للإحتراز من الحرارة. إذ يبدو أن كل شيء قد دبّر لحماية النفس ضد مناخ قاس. فالغرف عالية وطويلة،

(١١١) يذكر الرحالة المراجع التالية: Place, Ninive et I`Assyri; Botta, Monument de Ninive; Perrot et Chipiez, Histoire de I`art dans I`antiquité.

(١١٢) ملاحظات ذكية يقدمها بنديه بشأن السقوف وحفظ الآثار بفضل تجمع التراب والرمال والكثبان. وقد أبانت حفريات السنوات الأخيرة والصيانة في النمرود بأن الآشوريين كانوا يستخدمون ما يشبه العقدة لسقوف طويلة وقصيفة، يشيدونها بالطابوق المشوي، لا بالمدود الخشبية.



مدخل قصر خورسباد

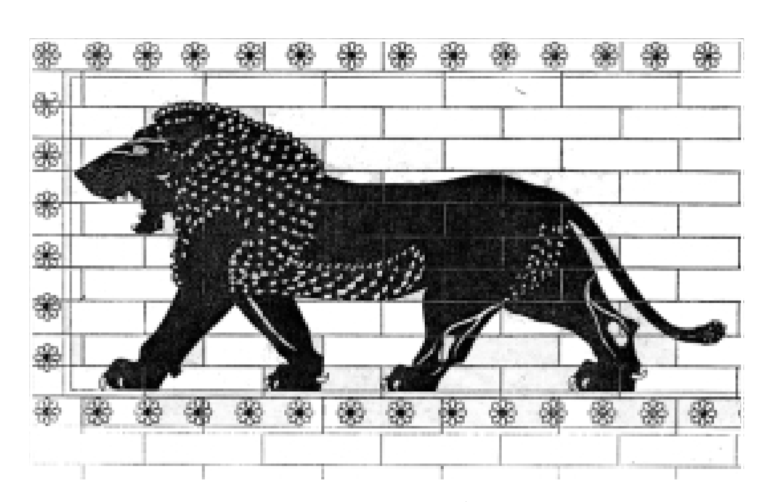
وكأنها ممرات كبيرة، يتلاعب الهواء فيها بسهولة، والحيطان سمكية بدون شبابيك أو بفتحات صغيرة مشرعة على أفنية كان لها سقف دائري يحمي البرج فهو أشبه بالرواق.

في كل قصر فناء كبير رئيسي كانت تجري فيه الإجتماعات والإحتفالات الكبيرة. ويحمل هذا الفناء آثار القليل من المنحوتات. لقد كانت محمية في المناسبات الكبيرة بستارات (جوادر) واسعة، فثمّة ما يشبه الحيوانات البرونزية[١١٣] مثبتة في الأوتدة، تحمل على ظهورها حلقات، مما يبدو إنها صنعت لتعليق الحبال والسلاسل.

لقد كانت هذه القصور معالم وطنية عليها ثقل يوميات الإمبراطورية، كما تمثّل الأحداث المجيدة نحتاً. فمن كان يدخل إليها، كان يقرأ تأريخ الأمّة، إذ كانت الموضوعات المنحوتة تؤشر التفاصيل بشكل أشد حيوية، فكانت هكذا نصب أعين الملوك على الدوام الأحداث الكبرى لأجدادهم، ولتكريم الآلهة.

يبدو أن المدخل الرئيسي لقصر قوينجق كان الجانب الشرقي المعاكس للنهر، ففيه كانت الثيران الكبيرة الحاملة يوميات سنحاريب الذي إليه ينسب قيام هذا البناء العظيم. وسنحاريب هو إبن الملك الذي شيدّ خورسباد، وإسمه على الكتابات التي تعلو الثيران في القسم الجنوبي الغربي من نمرود، وعلى العديد من كتابات الطابوق، وعلى آثار أخرى من هذه الأطلال، كما في خرائب خورسباد.

(١١٣) لقد عثر في الغرف على مجاميع حيوانات مماثلة، بكميات كبيرة وأحجام مختلفة، يحتفظ بها كأوزان، وقد قام لايارد بتصنيفها (الرحالة).



أسد من خورسباد

لقد كان من المعلوم بأن ملك خورسباد يدعى سرجون قبل أن تثبت قرابته مع نينوى. ويدّعي رولنصون[١١٤] بأن هذا الملك كان يحمل إيضاً إسم شلمنصر الذي نعرف عن اليهود في عهده، ويبدو بأن كتابات خورسباد تساوي ما بين شملنصر وسرجون[١١٥]. وفي أيام الفتح العربي، كان موقع خرائب خورسباد يعرف بأسم تل سرجون.

لأول مرة في أصطخر، عام ١٦٠٢، لاحظ بيترو ديلا فالي[١١٦] الأشكال المسمارية، وبعده شاردن[١١٧] لكنها بقيت غير مشخصة حتى سنة ١٨٠٠. وقد شاء

(١١٤) Sir H. K Rawlinson السر هنري كريسوك رولنصون (١٨١٠-١٨٩٥) آثاري إنگليزي، يعتبر أب الدراسات الآشورية. أشرف على التقنيبات في بابل وآشور في السنوات ١٨٤٢-١٨٥٥، وكتب عدة بحوث.

(١١٥) كنا لدى قراءة الكتابات التي تصاحب بعض أشكال (رسوم وتماثيل) الملوك والآلهة، ننساق وراء إعطاء قيمة رمزية إعتباطية لأحرف مستعملة كشعارات وألقاب، بينما كان لها قيمة مختلفة تماماً، كحروف أبجدية، وهذا ما يشرح سبب إختلاف وجهات النظر (الرحالة).

(١١٦) Pietro della Valle بيترو ديلا فالي (١٥٨٦-١٦٥٢) رحالة إيطالي ضليع بعدة لغات شرقية، ترك رحلة بالإيطالية فيها معلومات نفيسة عن بلاد الشرق والعراق.

(١١٧) Jean Chardin جان شاردن (١٦٤٣-١٧١٣) رحالة فرنسي زار بلاد الشرق وكتب مذكراته بعنوان: رحلة الى فارس والهند الشرقية، سنة ١٧١١.

هاگر[١١٨] أن يرى فيها أشكالاً رمزية، وسانده في هذا الرأي وجود رموز شبيهة بها في الهيروغليفية المصرية. حتى إهتدى گروتفند[١١٩]، عام ١٨٠٢، الى النظرية الصحيحة للألفباء، وجاءت كتابات بيستون[١٢٠] التي أكتشفها رولنصون لكي تكمل هذه التصريحات وتعززها، إذ أنها قدّمت لنا ثلاثة نصوص وثلاث لغات مختلفة جنباً الى جنب.



مشهد من خورسباد

ثمه نوعان من الألفباء المسمارية مختلفان تماماً. الألفباء الآشورية المختلطة برموز صوتية وتصويرية، وهو ما نلقاه في نينوى، وخورسباد، ونمرود، وبابل، ثم الألفباء الإيرانية المكتشفة في بيرسيبوليس المكوّنة رموزها من عناصر شبيهة بالسابقة، غير إنه لا علاقة لها معها. وبوسعنا أن نقسم الألفباء الى قسمين: البابلي القديم، والبابلي الآشوري[١٢١].

إننا نلقى البابلية القديمة على طابوق وإسطوانات وألواح متأتية من أطلال بابل وأطرافها. أما البابلية الآشورية ففي كتابات برسيبوليس وبيستون الثلاثية.

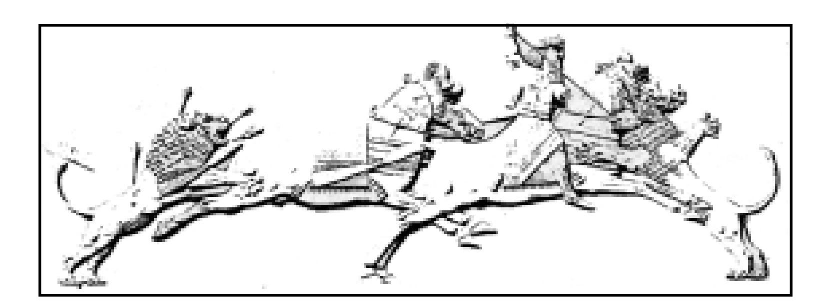
والبابلية القديمة هي ذات تنوع أشدّ إستغلاقاً، إذ يبدو أن من كان يستخدمها يتعمد تعقيد الأشكال البسيطة التي كانت للآشوريين. فنحن إذ نقارن أولاً الحروف عينها في الآشورية والبابلية، نلاحظ بأن إختلافاتها متأتية عادة من طريقة صياغة

(١١٨) Hager

(١١٩) Grotefend گروتفند، عالم ألماني، ولد سنة ١٧٧٥، وعمل على حلّ رموز الخط المسماري.

(١٢٠) بشأن كتابات بيستون راجع الهامش (١٠٤ مكرر)، وبشأن رولنصون، راجع الهامش ١١٤.

(١٢١) بل تقسم الأكدية الى البابلية والآشورية وقال بنديه خطأ: البابلي الأخميني.



مشهد من خورسباد

العنصر على شكل مسماري رمزي، بحيث أن تصبح ، والحرف الآشوري هو عينه ، وهذا رمز متكرر في البابلية مراراً.

ومن المحتمل أن تكون الصيغة الأولى للحروف ذات خطوط بسيطة، كما تثبت ذلك كتابة عثر عليها لايارد في نمرود، على جدار القصر الجنوبي الغربي.

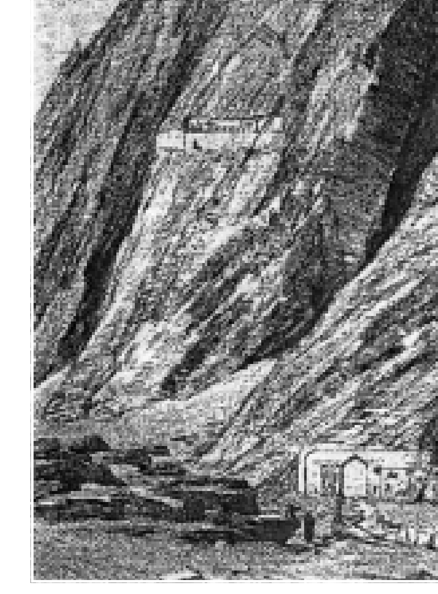
فإذا ما إستعضنا عن الخطوط بالمسامير، أي برأس السهم (النبلة) أو العلامات الفاصلة، فإن الرموز سوف تشبه رموز المواقع الآشورية الأولى. بينما هناك خطوط على طابوق بابل بدلاً من الإشارات. هكذا فإن هي بدلاً من أو من لتمثيل الأحرف الآشورية المذكورة أعلاه.

وقد أتخذّ الرمز أحياناً شكل المطرقة

ويبدو أن الشكل المثلّث الزوايا للعلامة الفاصلة قد تمّ إستخدامه لأنه يعطي إنطباعاً طبيعياً عن زاوية منقوشة فوق مادة رخوة. ويبدو بأن هذا الشكل كان مقدساً، فهو قد مثل كشعار ديني فوق مذبح[١٢٢]. وثمة نوع آخر من الكتابة، هي الكتابة المائلة أو المقدسة (الكهنوتية)، المستخدمة عادة في الإستعمالات اليومية، كما في المستندات الخاصة، أو في الوقائع ذات الأهمية البسيطة. لقد كانت هذه

(١٢٢) هذا الرسم الغريب موجود حالياً في باريس، في المكتبة الوطنية، وهو محفور على حجر تسمى (مسمار ميشو Caillou de Micahaud) (الرحالة)

الكتابات تستخدم دونما شك على الورق، وقطع الجلد، وكان يتمّ خطّها بالقصب. إنها تشبه كتابة الفينقيين، والتدمريين، واليهود، وتكتب من اليمين الى اليسار، بعكس الكتابة المسمارية. لكننا لندع هذه الكتابة الجارية الإستعمال، ولنعد الى الأولى فهي أهمّ من حيث الناحية التاريخية، أعني بها الكتابة المسمارية.



كتابة بستون

إن گروتفند، بعد بحوث مستفيضة، توصّل الى تحديد المحاور التالية بالنسبة الى الكتابة المسمارية: ليست حروف برسيبوليس رموزاً تشرح الأفكار، إنما هي أحرف ألفبائية، أي إنها ليست حروفاً مقطعية. وهذه الألفباء تضمّ هنا أربعين إشارة تشمل أيضاً حروف العلّة الطويلة والقصيرة. يدعم هذا الرأي مقارنة ذلك بلغة الزند[١٢٣]، وينبغي قراءة هذه الكتابة من اليسار الى اليمين. وهو يؤكّد بأن كتابات برسيبوليس مكتوبة بالزندية، وترجع الى عهد كورش والأسكندر[١٢٤]. سيطول بنا الأمر لو شئنا هنا

(١٢٣) Zend الزند، التسمية التي أستعملت في القرن التاسع العشر للدلالة على اللغة الهندو-أوروبية التي كتبت بها النصوص المقدسة للآڤيستا.

(١٢٤) كورش ملك فارس (٥٥٨-٥٢٨ ق.م)، يلقب بالكبير، إبن قمبيز. أخذ الحكم من الميديين. أما كورش الصغير (٤٢٤-٤٠١ ق.م) فقد هلك في الواقعة التي أراد فيها السيطرة على أخيه أحشورش. والأسكندر هو المقدوني ويلقب بالكبير (٣٥٦-٣٢٣ ق.م)، بعد أن أخضع بلاد اليونان، تغلب على داريوس الثالث في عدة مواقع، أشهرها معركة أربيلا (كوكاميلا) عام ٣٣١ ق.م، ومات في بابل.

إعطاء كل السياق الذي سلكه گروتفند. غير إنه من السهل أن أوجزه بكلمات قليلة. فإن گروتفند إفترض أولاً بأن الكتابات التي ترافق أشكال الملوك إنما تذكر أسماءهم والقابهم، فإمتحنها إسماً إسماً، وحرفاً حرفاً، وقارن إفتراضاته مع أحداث التاريخ، فلقي تسلسلاً مقبولاً في النسب لأسماء الأعلام. وإفترض بأن الأسماء التي تقدّمها الكتابات هي أسماء السلالة الأخمينية، فقارن هذه الأسماء، مع عودة الى الوراء، بالأسماء التي كان هيرودوت قد ذكرها إبتداءً بكورش[١٢٥]. وبما أن الأسماء الأولى تبدأ بأحرف مختلفة، مع إنها ذات طول واحد، فهما كورش وقمبيز، وكورش وأحشورش[١٢٦] وكان التسلسل المتتالي ممكنا، فوجد حينذاك بأن الإسم الأول للكتابة مكوّن من ثمانية أحرف، وقارن ذلك بالأسم العبري لداريوش أو داريوس[١٢٧]

وأعطى لهذه الحروف قيمة إفتراضية

D A R H E A U SCH

وبدا له بأن إسم أحشورش Xerxes هو في المقدمة، لذا فهو مكوّن من الأحرف التالية:

KH SCH H A R A

وتمّ هكذا تحديد قيمة الأحرف.

(١٢٥) هيرودوت أو هيرودوتس (٤٨٤-٤٢٠ ق.م) مؤرخ ورحالة يوناني معروف.

(١٢٦) كتب هذا الإسم بعدة الأشكال، فهو بالفارسية Kshajarsha وباليونانية Artaxerxes وباللاتينية Assuerus عن العبرية، وبالعربية (أحشورش) أو أرتحشّا. أنظر الهامشين ١٢٤ و١٢٧.

(١٢٧) داريوس أو داريوش الأول ملك فارس (توفي سنة ٤٨٦ ق.م). والثاني (ت ٤٠٤ ق.م) إبن أحشورش الأول. والثالث، هو الذي إنتصر عليه الأسكندر الكبير. وقمبيز الثاني إبن كورش الكبير (٥٢٨-٥٢١ ق.م)

وبحث في الجملة الثانية عن كلمة بوسعها أن تدلل على مفهوم الملك، فكانت أحرف هذه الكلمة هي KH SCH A H وقارنها بالزندية المحكية سابقاً في البلد.

KH SCH A H I O H

ثم إفترض بأن الكلمة التي تسبق لفظة الملك هي لقب تكريمي، فقارن عندئذ أحرف اللفظة بأحرف لفظة داريوس، ووضع تحت هذه الرموز E GH R E

وبمقارنتها بالزندية، رأى بأن لفظة (أيكري EGHRE) تعني الكبير. وإستخدم هذه الطريقة، ففكّ هكذا، رويداً رويداً، الألفباء، بفضل الكلمات المعروفة والأحرف المكتشفة سابقاً.

لم يكن إكتشاف (گروتفند) في الحقيقة سوى فرضية، أعطتها إشتغالات (بورنوف)[١٢٨] عام ١٨٣٦ أسسا أشدّ رسوخاً.

وكان الكولونيل (رولنصون)، من البعثة الإنگليزية في فارس، يجهل أعمال (بورنوف) في فرنسا، و(لاسن) في ألمانيا[١٢٩]، لكنه إكتشف كتابات بيستون، وتوصل بأسلوب گروتفند عينه الى ألفباء مساوية لألفباء (لاسن)، مع فارق حرف أو حرفين.

ثم كان يجب البحث عن وسيلة لإكتشاف سرّ اليوميات الآشورية. فإن الكتابات الفارسية أعطتنا أربعين حرفاً مختلفاً، بينما كانت الكتابات الآشورية توحي بوجود ستمائة، بل إن (بوتا) لاحظ ستمائة وأربعين. وقد كانت كتابة حجر بيستون، الذي به إكتشف الكولونيل رولنصون نظامه الآشوري، إذا إنه يحتوي على نحو مائة إسم علم كان بوسعه قراءتها في الجهة المكتوبة بالمسمارية الفارسية، فلاحظ بأن رموزاً عديدة هي متطابقة، رغم ما فيها من إختلافات ليست بذات شأن[١٣٠]. وكان إسم

(١٢٨) Bournouf عالم فرنسي.

(١٢٩) Lassen عالم ألماني.

(١٣٠) فإن إسم سنحاريب، وأسماء العديد من الملوك، ليست مكتوبة بأحرف الألفباء، إنما بمقاطع =

الله مؤشراً عادة بعلامة أو مقطع، فكان ينبغي معرفة أي إله هو المقصود بالرمز، وكذلك بشأن إسم سنحاريب.

فإن الحرف - المقطع الأول هو ما يحدد الإله الذي لاتعزى إليه أية قيمة صوتية، وأمّا الحرف الثاني فيدلّ على الإله الآشوري (سين)، وهكذا بشأن أسرحدون[١٣١] وسردنابال[١٣٢] حيث يمثل الرمزان الأوّلان ملك الآلهة: آشور.

فراودته فكرة القيام بمقارنة بين الفرس والميديين والأسقيطيين في عهد داريوس، كما فيما بين العرب والفرس والأتراك حالياً، حتى تمّ له التوصل الى عقد المقارنة بين اللغات، ولما ثبتت لديه الكلمات الأهم، لقي في الكلام شبها كبيراً بين العبرية والكلدانية القديمة.

إن كتابات خورسباد لم تنحت قط على الواجهات الخارجية للقصور، بل كانت في الداخل على طول الجدران، وعلى أجسام وملابس التماثيل، كما بين أقدام الحيوانات. لذا فإن الأقسام المكتوبة هي في حال جيدة من الحفظ. وهكذا هو الأمر بالنسبة لكتابات نينوى. فإن المعماريين الآشوريين المكلّفين بنقش الكتابات، كانت لهم عناية خاصة جداً لكي تبقى كتاباتهم، وتصان ضد عواهن الزمن. أمّا كتابات وان وبيستون فهي محفورة على أجزاء صخور مستوية متروكة في العراء، بعمق عشرة أو خمسة عشر سنتمتراً. وفي وادي بافيان، صنعت المنحوتات والكتابات على

= أو رموز يتطلب حلّها أسلوباً خاصاً. ويبدو بأن معظم أسماء الأعلام الآشورية كانت متكوّنة من لقب أو شعار أو إسم أحد الآلهة، تصاحبه كلمات كهذه: عبد، هبة، محب، كما لدى اليونان: تيوفيل، أيزيدور، أو لدى العرب: عبدالله، عبدالرحمن. وكان إسم الإله يؤشر عادة بعلامة أو مقطع. لذا كان ينبغي أولاً معرفة أي من الآلهة هو المعني بالرمز، كما في إسم سنحاريب فإن المقطع الأول يحدد الآله الذي لاتعزى إليه قيمة صوتية، أما المقطع الثاني فيدلل على الآله الآشوري (سين). وهكذا الأمر بشأن أسرحدون وسردانابال حيث يمثل الرمزان الأولان ملك الآلهة، آشور.

(١٣١) أسرحدون ملك آشور ٦٨٠-٦٦٩ ق.م.

(١٣٢) يكتب رحالتنا Sardanapal في مذكراته، ويقصد به آشور بانيبال (٦٦٨-٦٣١ ق.م) ابن أسرحدون، ويعتبر عصر آشوربانيبال عصراً ذهبياً. أو لعلّ المقصود بسردانابال آشور ناصربال الثاني (٨٨٣-٨٥٩ ق.م). وأنظر الهامش ١٥٠. وليس رحالتنا الوحيد الذي وقع في هذا الخطأ، بل سبقه آخرون، والسبب إطلاق الأغريق خطأ إسم سردانابال على آشور بانيبال.

أجزاء من صخور محفورة عميقاً. وكان المعماريون، لحفظ الألواح التذكارية التي تحمل أسماء ملوك هم بناة الأبنية، يضعون تلك الألواح تحت ملاطات الدهاليز وفي سمك الجدران.

لا يسعنا أن نحمي أنفسنا من شعور ديني ونحن نجتاز هذا البلد الذي كملت فيه جميع أحداث التاريخ شبه الخيالية في العصور الأولى، إذ سرعان ما يشطّ بنا الخيال الى مشاهد مختلفة، ويبدو الناس الذين يتحركون أمامنا وكأنهم محافظون على النموذج، والعادات، والمسالك، كما لشخصيات الكتاب المقدس. فهل كانت حياة إبراهيم ويعقوب وعبيدهما وقطعانهما مختلفة كثيراً عن حياة هؤلاء اليوم؟ الخروف الكبير ذو الصوف الأبيض المسترسل بخشونة، والعباءة الواسعة المصنوعة من القماش عينه، معقودة فوق الرأس بمجموعة خيوط قطنية متهدّلة على الظهر من أعلى المقطع، هل هي مختلفة حقاً عما كانت عليه بالأمس؟ لقد كان هذا الوجود والواقع بعينه، بكل هدوء وبساطة.

نعود الى الرسالة (الدومنيكية). يعلموننا بأن مسيو ومدام سيوفي قد وصلا، لكننا نمتنع عن الذهاب لزيارتهما حالاً، فهما لاشك متعبان بسبب مراحل (السفر) المضنية، وسيكون من عدم اللياقة حرمانهما من راحة يمنّيان النفس بها.

١٣ تشرين الأول (أكتوبر)

نخرج باكراً لكي نلتقط بعض المناظر للموصل رغم فضول الكثيرين الذين يحيطون بنا. أثر عودتنا، نمضي لدى المسيو سيوفي الذي يستقبلنا بكل لطف، كما كنا نتوقّع. أصل مسيو سيوفي من دمشق. عمل ترجماناً مدة طويلة للشيخ عبدالقادر وكان له صديقاً. إنه متبحر باللغة العربية. يمتلك مجموعة مداليات من أغرب ما يكون[١٣٣]. نزور المطران (المونسنيور) بهنام بني، رئيس أساقفة السريان الذي يعود معنا لدى الآباء. هؤلاء السادة مهتمون بسفرنا، فيدور الحديث حول السفر من الموصل الى بغداد.

نخرج بعد الظهر بمعية مسيو سيوفي لزيارة جامع عجيب مدفون فيه السلطان

(١٣٣) راجع الهامش ٦١

لؤلؤ. المدخل وضيع، إلا أن الباب البرونزي ذو صنع جميل، وقد جعل الصانع إسمه بارزاً وسط أحد الأطر. الضريح في الداخل، من خشب مشغول، وغطاء من قماش أخضر، والحيطان عارية ما عدا شريط مرمري بعلوّ متر حول الجدران، يعلو هذا الشريط شريط آخر من مرمر أسود، عرضه عشرون الى خمسة وعشرين سنتمتراً، نقشت عليه آيات قرآنية من تطعيم مرمر أبيض[١٣٤].

نعود الى القنصلية، حيث يمسكني مسيو سيوفي على الغداء، ويريد أن يكرمني بهدية لطيفة هي كتابه حول ديانة الصابئة[١٣٥].

إن هذه العشيرة، أو هذا المذهب المعروف في الشرق بأسم اليوحانيين، والمعمدانيين، وحميريي سبأ، وخاصة المندائيين أو مسيحيي مار يوحنا المعمدان، إذ إنهم يدعون بأنهم تلاميذ القديس يوحنا المعمدان، من القدامى الأوائل. يعيشون على ضفاف دجلة، بين البصرة والكوت والعمارة. إنسحبوا عن فلسطين بعد أن طردوا منها. وديانة الصابئة مزيج غير منسجم من أفكار غنوصية وطقوس مسيحية، وهي تختلف عن المسيحية، لأنها تنسب أقوال المسيح وأفعاله الى يوحنا المعمدان.

هذه الديانة هي في الحقيقة خليط من اليهودية والنظريات المسيحية الكلدانية. واليهود والنصارى والصابئون هم أصحاب المذاهب الدينية الثلاثة التي أمر محمد (ص) أن تسامح وتحترم. يحافظ الصابئون على نظم صارمة في الدين، ويمتنعون عن الختان، ويقبلون بالمعمودية، إنما بإسم الله وحده، إذ لايعترفون بالإبن والروح القدس.

بوسع الزواج أن يكون في أي زمان كان، ومع أقرب المقرّبين من الأشخاص. يأخذون العريسين بإحتفال الى ضفاف النهر، وثمّة تتم كل المراسيم. الملاّ (الكاهن) والگينزفرا مرتدياً ثيابه الكهنوتية، وبيده الخاتم وعصا زيتون، يتلو الصلوات المفروضة، ثم يقوم بتغطيس الزوجة الشابة في الماء على ثلاث دفعات، ويجعلها في

(١٣٤) المقصود هنا مشهد الإمام يحيى أبي القاسم الذي بناه بدرالدين لؤلؤ سنة ٦٣٧هـ، وهو من المباني الأتابكية الجميلة، وقد جرت له صيانة جيدة مؤخراً.

(١٣٥) ينقل بنديه ما سمعه من المسيو سيوفي وقرأ في كتابه الذي سيذكر عنوانه في الهامش التالي. ويجب تصحيح بعض الإنطباعات بالرجوع الى الكتب المعروفة عن الصابئة المندائيين من وضع الليدي دروور، وعبدالرزاق الحسني، وناجية مراني، وغضبان الرومي وغيرهم.

المرة الثالثة تمرّ من بين رجلي خطيبها، ويعلن عندذاك إتحادهما بنوع كامل وغير قابل للإنحلال.

لدى المسلمين، على الزوجين وحدهما أن يذهبا الى الحمّام غداة زواجهما. بينما يفعل ذلك جميع من في البيت، لدى الصابئة، أي كل من رقد حيث العريس، وكل من لمس الزوج أو المرأة، إذ عليهم جميعاً أن يقصدوا النهر ويتطهّروا بالماء. وهكذا يفعل الصابئي كلما أقترب من إمرأته.

ومن المحظور بصرامة لمس الميت. ولايقوم الصابئون بغسلهم بأنفسهم، ولايدفنونهم. ولكي يوفّقوا بين المحافظة على الشريعة ومقتضيات الواجب، توصّلوا الى هذه العادة غير المستحبّة: حين يفترض بأن ساعة النزاع قد أزفت، يعرون المدنف من ثيابه، ويقومون بغسله، ويلبسونه أفخر ثيابه، ويلفّونه بآخر شرشف له، ثم في حفرة القبر ويتركونه يموت. وأهله وأصدقاؤه حوله يصلّون ويلولون حتى يلفظ النفس الأخير، فيطبقون الحفرة وينسحب الجميع. وينبغي حسب الصابئة، أن تمرّ أربعون يوماً لكي تصل النفس الى الله، لذا فإنهم خلال هذه المدة يقيمون المآدب، صباحاً ومساءً، في بيت المتوفّى على نية الميت، يشاركهم فيها ذووه وأصدقاؤه الحميمون[١٣٥*].

كتابة الصابئة هي السريانية الجليلية. ولغتهم ضرب من السريانية المختلطة بكلمات فارسية كما باللغة الكلدانية القديمة[١٣٦]. لن ألحّ أكثر بشأن هذا المذهب الذي يعدّ الآن نحو خمسة وعشرين الى ثلاثين ألف نسمة.

مسيو سيوفي، مع إنه شاميّ، يقوم بأعباء القنصلية الفرنسية خير قيام. الغداء محترم قدر ما بوسعه أن يكون وهو بعيد عن موارد بلادنا. الخمرة وحدها ليست بجيدة. إنهم لايعرفون أن يصنعوا الخمر من العنب الطريّ، لأنه لايختمر عندهم، لذا

(١٣٥*) مبالغات وإنطباعات خاطئة يسجلها بنديه، ينبغي تصحيحها على ضوء المراجع المذكورة في الهامش السابق. ومعلوم بأن عادة غسل الموتى قديمة ومعمول بها حتى اليوم في بعض الديانات. وما يحكيه بنديه عن تغطيس العروسين في الماء، هو رتبة العماد أو طقوس الغمس المعروفة لدى الصابئة، وقد يستعاض عن ماء النهر الجاري بماء الحوض. وعادات الغسل والتطهير معروفة كذلك في ديانات مختلفة.

(١٣٦) يذكر الرحالة كتاب المسيو سيوفي عن الصابئة: Siouffi, Etudes sur les Soubbas

يصنعونه من الزبيب، وكل منهم يعمل لنفسه الكمية التي تكفيه للإستهلاك.

تسلمت أثناء العشاء البرقية التي إستمرت ثلاثة أيام للوصول من باريس. من الكلمات الأربع، إثنتان لم تكونا واضحتين، وبما إنهما كانتا بمثابة جملتين كاملتين، لم أتمكّن من فهم أي شيء. وهذا ما يحدث مراراً. وفي التلغراف عادة خاصة، دفع (الإجرة، الضريبة) بالنقود الفرنسية، وعليّ أن أدفع بحساب النابليون[١٣٧] أي ذهباً كما يقال هنا. الموظفون لايعرفون بعد الفرنك ولا اليَن أو الدولار، ويقومون بحسابات معقدة جداً لكي يحتسبوا القائمة بالقروش، إذ أنهم لم يروا البتة فرنكات فضيّة، ولايقبلونها عوض النابليون. ترى لماذا لاتستعمل تركيا عملتها الخاصة بها؟

١٤ تشرين الأول (أكتوبر)

نقضي الصباح بالحديث مع الآباء الذين يتقبلون عدة زيارات، منها زيارة المطران (المونسنيور) بهنام بني، الذي إذ علم بسفرنا، أرسل لنا أربع بطّات حسنة لكي نضيفها الى مجموعة الدجاج التي نحملها في قفص خشبي.

وجاء مسيو سيوفي لكي يدعونا الى الغداء في القنصلية بصحبة الأب دفال. فتحدثنا عن سفر مدام سيوفي القادمة من دمشق. كان يرافقها أخوها مسيو دومنيك، والطريق عبر الصحراء طويل وخطر، والحماية ضرورية جداً. الماء شحيح في السهول المترامية الأطراف من بادية الشام، بحيث قد لايصادف المرء خلال يومين أو ثلاثة ماء. لكنه طريق ذو أهمية، إذ يمرّ المرء فيه بتدمر، قرب أطلال بالميرا[١٣٨] ومن السهولة هنا بمكان، التعرّف على سبب إختفاء الماء تدريجياً، فإن المؤلفين القدامى يتباهون بمياه تدمر الجارية وحدائقها ورياضها، بينما قد إختفت الآن السواقي والبساتين والمدينة، وفي حياض الهيكل العظيم، هيكل الشمس ذي الأعمدة الألف، لم يبق سوى مجموعة وبضعة بيوت، ويقوم منزل حقير وسط الأخربة لكي يحمي نفسه من البدو: هذا هو كلّ ما تبقى من عظمة مدينة زنوبيا (الزباء).

(١٣٧) Napoléon قطعة ذهبية ذات قيمة عشرين فرنكا، تحمل رسم نابليون الأول أو الثاني.

(١٣٨) تدمر أو بالميرا Palmyre مدينة في بادية الشام. كانت عاصمة الزباء (زنوبيا) ومحطاً تجارياً للقوافل.

البلد جاف جداً، بحيث يتحتم، للوصول الى الدير (دير الزور) على الفرات، إن يتخذ المرء مؤونته من الماء من آبار تدمر الفقيرة. والدير موضع عسكري تركي. المدينة كبيرة نسبياً، يزرع فيها الرز والقطن. ومن الدير الى سنجار، مسافة سير يوم من الموصل. هناك مضى مسيو سيوفي لملاقاة زوجته. إنها الطريق التي تسلك للذهاب من الموصل الى ميناء بيروت. غير إنه للوصول الى أوروپا، يتم الإبحار عادة من ميناء الإسكندرية لإجتياز برية دياربكر وأورفه، حيث توجد بحيرة إصطناعية جميلة تسمى عين إبراهيم، يزعمون بأن إبراهيم، إذ كان عائداً من إحدى الحملات، ولم يكن يعرف ما يصنعه لجنوده، سأل الله أن يتصرف كما يشاء، فحولهم الكائن الأسمى الى أسماك (شبابيط)، وصنع هذه البحيرة ليكونوا فيها[١٣٩].

بعد الغداء، نخرج مع السيد (مسيو) دومنيك للقيام بجولة في الأسواق. يشتغل الباعة أمام حوانيتهم الصغيرة والمظلمة وهم ينتظرون الزبائن وسط صخب وجلبة المارّة، ويعملون بصبر. وأحدهم يطرّز الأقمشة، وثانيهم يثقب عيدان الغلايين، بينما ثالث يشعل الموقد لكي يعمل في الجلد مساء.

إنه حيّ مملوء بالأسكافيين والخفافين، جميعهم يصنعون الأحذية الحمراء[١٤٠]. بعيداً عنه، نلقى سوق آنية الطين والفخار[١٤١]، ثم يأتي باعة الأقمشة، معظمها أوروپية. والقصابون في حي آخر، وكميات الذباب كبيرة الى درجة أن اللحم يبدو مغطّى ببقع سوداء ضخمة. وعلى مبعدة من ذلك، في شارع آخر، نلقى الصاغة وهم منحنون فوق أفرانهم الصغيرة، ينفخون فيها، ويطرقون صفائح الذهب والفضة.

بعد قليل من المسير، نصل الى بيت التاجر عبدالله شكر الذي، بضمان من مسيو سيوفي، سوف يدفع لنا بوليصة (كمبيالة) ألف فرنك حتى بغداد.

هذا المصرفي المحترم، بعد أن يأخذ حسمه، يدفع لنا ليرات تركية، وروبيات هندية

(١٣٩) المقصود به إبراهيم الخليل أبا المؤمنين، وقصته معروفة في الأسفار المقدسة. (لكن الذي نعرفه أن إبراهيم عليه السلام لم يكن غازياً!– الناشرون)

(١٤٠) منها على شكل أحذية خفيفة عادية، ومنها على شكل الجزمة، وتسمى الأولى في الموصل بالمشاية.

(١٤١) إنه سوق الخزافين والفخارين المعروف في الموصل بسوق الكوازين. وأنظر الهامش ٨٤.

مقبولة هنا، وعملة غريبة جداً هي قطع تحمل صورة تيريزا الأم بقيمة خمسة فرنكات تقريباً، هذه القطع نافذة في أوروپا ماتزال مستعملة في حوض البحر المتوسط، من مدغشقر وزنجبار وزنزيبار وعدن وسواحل مصر وجزيرة العرب وبغداد وحتى الموصل، بل إنهم مايزالون يضربون منها في النمسا لكي تستعمل هنا.

فور عودتنا، إذا أعلم بأن بريداً يسافر الى بغداد يوم غد عن طريق البرّ، وسيصل قبلنا، أكتب الى قنصلنا مسيو دي سارزيك[١٤٢]، ولو أنه قد أنبيء بوصولنا من قبل المونسنيور ألتماير ورسائل أحد أصدقائي من پاريس، لأنه من معارفه. لكني كنت أريد تجنّب مفاجأة كالتي حصلت لي مع الآباء (الدومنيكيين). وأرجو مسيو دي سارزيك أن يمنح كل الثقة لمراسل المصرفي إذا ما جاءه وسأله معلومات بشأن إمكانية الدفع من قبلنا، وبما إني لاأريد التطفّل وسؤاله الضيافة، رجوته أن يؤجر لنا بيتاً يمكن أن نحلّ فيه لدى وصولنا.

١٥ تشرين الأول (أكتوبر)

حالما ننهض، نمضي لمعاينة الكلك. لقد أنجز نجّار الآباء (الدومنيكيين) المأوى الصغير الذي أردنا صنعه. لدى عودتنا لدى الجماعة (الدير)، نهتم باللوازم والإستعداد للسفر.

كل شيء يتوفر في الكلك: فواكه خضراوات، فحم، أفران، أقفاص بط ودجاج، خبز، رز، تبغ، شاي، مصابيح، شموع، خراطيش والخ.

غير إنه ماتزال ثمّة أمور صغيرة ناقصة، كما أن تشييد القارب نفسه لم يكتمل بعد، بحيث إننا نخشى بأن لانتمكن من السفر مساء اليوم. ويزداد هذا القلق البسيط، لكَون الغد جمعة، والمسلمون لايسمحون أن نبتديء طريقنا في يومهم المقدس، كما هو الأحد لدينا. إلا أن مسيو سيوفي أكد لنا بأن الجندرمة (الشرطة) دقيقون في مواعيدهم. وقد حجز الأب دفال رجلين يجذفان ليقودا القارب، بحيث يجعلانه في وسط النهر دائماً ومع إندفاع المجرى، إنهما الكلاّكان.

(١٤٢) E. de Sarzec أرنست دي سارزيك (١٨٣٧–١٩٠١) نائب قنصل فرنسا في البصرة، وقنصل في بغداد، نقب في (تلو) في السنوات ١٨٧٧–١٩٠٠.

أحزم قدر ما أستطيع أغراض المجاميع من جماجم وألبسة وأدوات منزلية، أملاً في التمكّن من إرسالها من بغداد الى متاحفنا. أمّا بالنسبة لأمتعتنا الشخصية، فإننا سنجمعها كيفما كان ساعة الرحيل.

يأتي بعد الغداء، ونحن داخلون، بعض الأشخاص لرؤيتنا ولتوديعنا، من ضمنهم السيد شيستر[١٤٣]، وهو مهندس بافاري موفد الى الموصل لتشييد الطريق. المسكين هنا منذ سبعة أو ثمانية أشهر، لقد كان في البداية صاحب ضمير ورجلا شغولا، حاول أن يقوم بالمهمة التي أوفد من أجلها، فكان يكتب برقيات ورسائل الى القسطنطينية لكي يرسلوا إليه ما هو ضروري لعمله، لكنه لم يتسلّم أي جواب. فأشار عليه أحد أصدقائه إنه إذا ما أستمر في إزعاج الحكومة، فإنهم سوف يعملون على إستبداله. «إنك لست هنا إلاّ للعرض فقط، فإن تركيا تريد أن تظهر نفسها بأنها تهتم بأمر الأعمال. لك أن تحصل على مرتبك وتترك الحكومة بسلام. إن الموظفين قد إستبعدوا الأعمال التي تفكر بالقيام بها»[١٤٤]. منذ ذلك الحين لم يعد يجسر أن يتفوّه بشيء.

نمضي الى القنصلية للمرة الأخيرة لتقديم إحتراماتنا للمسيو سيوفي شاكرين قنصلنا المفضال. ونعود الى مسكننا في الساعة الخامسة مساء. كل شيء جاهز تقريباً. نحتاج الى عشرين حمّالا لحمل معدّاتنا وصناديقنا والأمتعة الى القارب. قوّاص القنصلية وقواص الدير (الجماعة الرهبانية) يشقّان الطريق أمام خدمنا والجندرمة يسهرون على القطيع الغريب من الحمالين المحملين بأمتعتنا المتنوعة بشكل غريب.

(١٤٣) Bavarie باڤاريا، مقاطعة في جنوب ألمانيا مركزها مدينة ميونيخ.

(١٤٤) بوسع هذا أن يبدو غريباً إذا ما قسناه بنزاهة موظفينا من الأوروپيين. لكنني أستعير موضوعين من رحلة مسيو ديلافوا (Dieu Lafoy):
«موظف صغير حكومي، بنى مبنى عاماً، بتعاون مع فرسان، ثم حرقه، وشيده من جديد، ولم يوجد هذا المبنى إطلاقاً!
وليس المسؤولون العسكريون بأقل من ذلك: لقد قالوا مؤخراً بأن مجموعة جنود قد هلكوا في كمين، مع إن هؤلاء لم يتركوا بغداد البتة، وإنما أخترعت هذه الخسارة الخيالية لتصحيح حسابات خاطئة وتغطية نفقات خفية في الأسلحة والعتاد، ولإعادة جنود الى بيوتهم، فكان لابدّ للضباط من تغطية ما لم يكن صحيحاً» (الرحالة).

إثنان من الآباء الدومنيكيين يرافقاننا حتى القارب. نستغرق نحو عشرين دقيقة لإجتياز المدينة والوصول الى النهر حيث القارب. علم فرنسي صغير يرفرف في أعلى الخيمة. ويجب تنظيم كل شيء ووضعه في مكانه، لأن المساحة ليست كبيرة. نترك الضفة في الساعة السادسة مساء.

من الموصل الى بغداد*

من ١٥ الى ٢٥ تشرين الأول (أكتوبر)

الكلك، وضعه، الطريق البرّي من الموصل الى بغداد. عيون نفط (قار). حمام علي (حمام العليل). نمرود. التنقيبات، القصور المطمورة. حلاقة الرجال، برودة الليالي. عبور شلال، ترجماننا الجديد. مصبّ الزاب الكبير. جنود طهاة. هجوم ليلي. قلعة الشرقاط. عودة (حملة) العشرة آلاف. حقول على ضفاف دجلة. كيف تحفظ الغلاّت. جبل حمرين. زورق بخاري فاشل. تكريت. سعر خروف. أمام - دور (الدور). سامراء. القفّة. قوافل (كروانات) فارسية. أشجار النخيل الأولى. تل محاسي. سنديا. حويش. البساتين. الكاظمية (كاظمين). الوصول الى بغداد.

المخر يسير ببطء، فإن التيّار وحده يدفعنا، ومجرى المياه ضعيف جداً، بل أن ريحا خفيفة مضادّة، تتركّز على الخيمة، تؤخر مسيرنا. والرجلان الجذّافان لايتمكّنان أكثر من المحافظة على القارب وسط التيار، إذا أن ضربات المجذاف لايمكنها أن تجعله يتقدم، فيكون من الصعب أن نقطع كيلومتراً خلال ساعة. والليل قد خيّم عاجلاً، إلا أن ضوء القمر يسمح لنا أن نطيل سيرنا قليلاً من الزمن. وبما إنه لايستطاع المخر ليلاً من دون أخطار، بسبب صخور موجودة في باطن الماء، وبسبب التيارات والأمواج السريعة، لذا توجّب علينا التوّقف على حافة النهر بإنتظار النهار، وقد كنت أريد أن أخيّم في أبعد نقطة ممكنة عن مواضع المدينة غير الآمنة كثيراً، رغم أن علينا عندئذ أن نخشى مباغتات الأعراب.

يتكوّن كلكنا من مستطيل ذي ثمانية أمتار وعشرين سنتمتراً طولاً، وعرضه خمسة أمتار وأربعون سنتمتراً، وهو من قسمين منفصلين بجذوع أشجار مشقوقة الى

* الفصل التاسع من الرحلة.

شقّين، ومربوطة بحبال وأغصان. وتحته مائة وخمسون قربة منفوخة هواء ومشدودة بالطريقة عينها، وهي هذه التي تسمح بأن تطفو هذه الأرضية المتحركّة فوق الماء. وتقع الخيمة في الوسط، وقد شئناها مكوّنة من ثلاثة أمتار وعشرين (طولا) ومترين وخمسة وأربعين (عرضاً)، وهي من لوح خشبي منحوت بشكل بسيط، تمتدّ فوقه لبّادات في الأسفل وقماش في الأعلى. والقسم الأعلى مكوّن من أطر (ملابن) بوسعها أن تفتح لكي تسمح للهواء بالدخول. والباب في الجهة المعاكسة للفسحة المخصصة للناس.

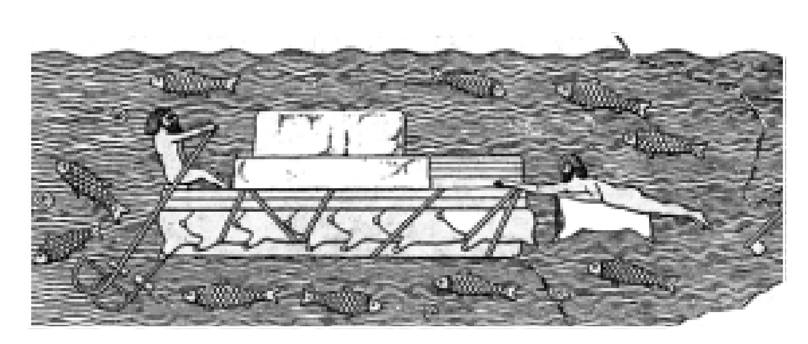
وضعنا منضدة في الداخل، وحولها من كل الجهات أسرّة المخيّم، وأمتعتنا محيطة بنا، ما عدا الصناديق التي رتبّناها خارج الخيمة. ورجالنا خلف الخيمة، والجذّافان جالسان على الأكياس، وقد أقعى الجنود يقضون وقتهم في الأحلام والتدخين، ولكي نستعمل تعبير البلد فإنهم على (كيفهم)[١٤٥]. الفرن على مقربة منهم، في الزاوية اليسرى. إنه صندوق حديدي عرضه وعمقه عشرون سنتمتراً وطوله أربعون، وعمقه غير مثقوب لتجنّب إضرام النار في الكلك ولعدم إحراق القرب.

ليست المجاذيف سوى عصا طويلة مستقيمة، كقطعة خشب أفقية مصنوعة نحيفة في الطرف الذي يمسك باليد، وفي الطرف الآخر قطع خشب طولها عشرون سنتمتراً، مشقوقة الى قسمين موضوعين بشكل معاكس بطول متر تقريباً، تستخدم كألواح.

تركنا في الموصل ترجماننا القديم سيمون. لقد جاء لتوديعنا حتى القارب. وعليه أن يقصد وان مع أول قافلة تتوجه الى هناك[١٤٦]. لقد إستعضنا عنه بمستخدم في مطبعة الدومنيكيين، أبوه في بغداد، كان بودّه أن يرى مؤلف هذه اليوميات أكثر من أن يلقى له عملاً، إذ أنه يتوقّع أن يجتني من ذلك أمراً عظيماً بصفته يعرف

(١٤٥) مرة أخرى يعبر بنديه عن هذه الحال التي طاب له أن يصفها ويكررها عدة مرات بطريقته الخاصة. أنظر الهامش ٨٥.

(١٤٦) لقد تسلمت منذ وصولي رسالة من قبل مترجمنا التاعس. لقد سافر الى وان مع أول قافلة عبر طريق سعرت ودياربكر، فقبض عليه في المدينة الأخيرة كجاسوس روسي، وقضى ثلاثة أيام في السجن، وكان عليه أن يحتمل عذابات الدنيا لكي يدلل على هويته، ولكي يخلّى سبيله (الرحالة).



الكلك في الرسوم القديمة

الفرنسية. وإسمه بطرس.

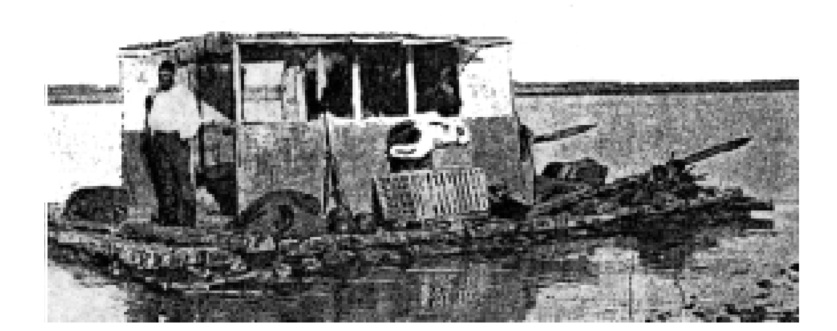
لا يسمح لنا الظلام بالإستمرار، لذا نتوقّف على حافة النهر. تنفعنا للأرساء صخرة كبيرة نشدّها بحبل قنب. أترك للجندرمة تدبير الأمر كما يشاؤون بشأن نوبات الحراسة. كنت قد وفّرت لهم التبغ، الى جانب الرز والرقّي، فبدا إعجابهم بتلك المفاجأة. ننزوي، بعد العشاء في خيمتنا لقضاء الليلة.

طريق دجلة خطر بالنسبة للمسافرين، لأن النهر نقطة لجوء طبيعي للأعراب وقطّاع الطرق، والماء ضروري للعيش، والطريدة متوفرة، فيا لتعس القارب الذي لايحترز منهم. إن الأعراب يشقّون القرب بخفة لإغراق القارب وسلبه.

وليس الطريق البريّ من الموصل الى بغداد بأفضل، ولا أشدّ ضماناً، فهو يبتعد عن حوض النهر لكي يتجنّب قبائل البدو المتهوّرة، ويقتفي أذيال جبال كُردستان، وغالباً ما تقطعه غدران يغذّيها ذوبان الثلوج، تؤخر القوافل عدة أيام، ويغدو أشدّ خطورة بسبب إهمال الحكومة التركية، والعديد من القرى التي كانت تقدّم سابقاً المأوى والمورد للمسافرين وفقاً لإحتياجاتهم، هي الآن مهجورة[١٤٧].

ثمه قانون تركي قديم هو قانون تحترمه معظم العشائر التتارية يجعل الحكومة المحلية هي المسؤولة عن السرقات المسلّحة التي ترتكب في طرق المواصلات الواقعة

(١٤٧) لاتسلك هذه الطريق الآن سوى القوافل التي تصعد شمالاً، لأن دجلة ليس صالحاً للملاحة والسير بمعاكسة التيار. يستخدمها البريد لأنه يتمكن من السير براً بشكل أسرع، وتمرّ هذه الطريق بأربيل، وآلتون كوپري، وكركوك، وكفري، وبعقوبة (الرحالة).



كلك الرحالة بنديه

تحت إدارتها. غير أن هذه المسؤولية قد ألغيت، فلم تعد الحكومة التركية تمنح أي تعويض لحماية المسافر والتاجر المحلّي، لذا فمن العبث الإستنجاد بالحكومة أو بالمحكمة ضد القبائل البدوية التي تتحدّى السلطان، بل إنها غالباً ما تكون بالإتفاق مع الحاكم والوالي.

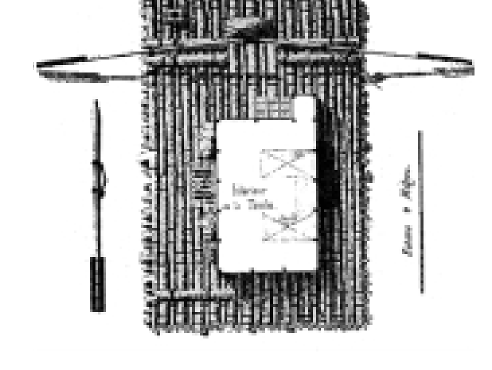
ليست طريق الصحراء أطول وأفضل بكثير، ويكفي لجعلها آمنة بما فيه الكفاية، وضع نقاط سيطرة جنود عبر النهر، وشقّ طريق خشن للعربات، وتشجيع ولو بسيط لقبائل الفلاحين التي قد تأتي لكي تسكن في الضفاف. إنه الضمان الأقل توفيراً. غير أن إرادة الباب العالي السيئة، وموقفه العدائي ضد أية محاولة تقدّم، يمنع الشركات الأجنبية من إنشاء خط سكة حديد يقود بسرعة الى الهند. والخليج الذي يضمن القوارب بشكل كبير، وإن خطاً حديدياً سيسهل كثيراً الطريق من البصرة الى بغداد فالموصل، وحلب، والأسكندرونة، وقد حاولت بعض القوارب البخارية صعود الفرات، إلا أنها عزفت عن إستمكال الشوط[١٤٨].

الجمعة ١٦ تشرين الأول (أكتوبر)

تشرق الشمس الساعة السادسة، فنسعد جداً، فقد كان الليل بارداً، حتى إننا

(١٤٨) من الملاحظات العديدة التي يفيدنا الرحالة بها تعمّد الدولة العثمانية في إهمال بلادنا فهي لاتبغي تقدمها، ولاتقوم بأي عمل بنّاء، ولاتشجع أية مبادرة خيّرة. راجع الهامش ٥٩.

لجأنا الى معاطفنا، بل إن المحرار قد إنخفض صباحاً حتى درجة ٤ فوق الصفر، بينما هو يتخطّى الثلاثين نهاراً.



مخطط الكلك

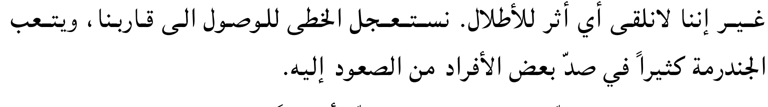
يتقبل دجلة في مسيره في بلاد ما بين النهرين، في أماكن عديدة، عيون نفط (قار) تنبع على طول ضفافه. العديد من هذه العيون كبريتية، ويعزى الى بعضها شفاء الأمراض.

حمام العليل (حمام علي)[١٤٩] التي نصلها في الساعة التاسعة، قرية صغيرة تسمّى هكذا بسبب عيونها. نتوقف لزيارتها. أثناء ذلك يشرع يوفان بذبح ما في قفص الدجاج.

تتكون هذه القرية المتهدّمة من بضعة شوارع بيوتها متهدمة، بدون سقوف، لاتتكون إلا من جدران حجارة مرصوفة بدون ملاط، يأتيها المرضى لكي يخيّموا فيها أثناء الموسم المعتاد. نصل الى العين المنبثقة من صخرة. إنها تقطر نقطة نقطة في حوض أسود فيه إنعكاسات مشعّة ذات منظر مقزز. نلقى بعض التعساء يستحمّون فيها. أحدهم مخيف جداً، مبتلى بداء الخنازير بدرجة مستفحلة، ليس جسمه سوى هيكل عظمي متلبّس بجلد، تتكاثر فيه الآكلة، ولم يعد لرجليه ويديه شكل. يدعونا الجندرمة الذين يرافقوننا الى أن نتحسس الماء للتأكد من حرارته. لمن نافلة القول التأكيد بأننا نمتنع، فإن المنظر الذي أمام أعيننا فظيع.

نلاحظ أثناء سيرنا، الى اليمين، تلاً صغيراً يبدو أنهم بدأوا فيه ببعض الحفريات،

(١٤٩) يكتبها بنديه بحسب اللفظ الشعبي Hammam - Ali: بلدة قرب الموصل، وعينها المشبعة بالقار معروفة، تصلح لشفاء الأمراض الجلدية وغيرها.



غير إننا لانلقى أي أثر للأطلال. نستعجل الخطى للوصول الى قاربنا، ويتعب الجندرمة كثيراً في صدّ بعض الأفراد من الصعود إليه.

الضفاف مستوية ومملّة. إنها الصحراء، وثمّة أحياناً بعض التلول، من اليمين ومن اليسار، شبيهة بتلك التي تغطّي نينوى وخورسباد. نستلقي فوق أسرّتنا وندخّن تاركين العنان لأنفسنا لإسترخاء عذب، يساعدنا المجرى الهادىء على ذلك.

بعد نحو ساعة نصل الى قرية صغيرة، منها نتمكن من الوصول الى النمرود، والى الأطلال الشهيرة لقصر سردانابال(١٥٠).

أترك يوفان في الزورق والجنود والكلاكين، وأمضي الى القرية يرافقني هاملن وبطرس وأحد الجندرمة. أظن بأن أسلحتنا المحمولة بشكل بارز توحي الى السكان بخوف مقدس، إذ يبدو إستعدادهم غير جيّد تجاهنا(١٥١)، ورغم ذلك أسأل أن يعيرونا جياداً تحملنا حتى النمرود. المسافة قصيرة، نحو ألف أو ألف وخمسمائة متر، غير إن الحرارة محرقة.

ودجلة، كما قلت، من الأنهر الأشد مزاجاً. لقد غيّر مجراه مراراً بمسافة كيلومترين أو ثلاثة. ففي الزمن الذي كان القصر فيه مأهولاً، كان يجري بالتأكيد تحت أقدام الهضبة التي تخفي طيّها الأطلال.

نتجوّل حول هضاب التراب الذي يغطّي تنقيبات الحفريات السابقة المهملة، مبتدئين بالهضبة الكبرى، الشمالية الغربية التي يفترض إنها تضمّ قبر سردانابال(١٥٢). نميّز في الدهاليز وفي المقاطع التي تحدّها من جهة ومن أخرى، جدرانا صخرية ذات سمك غير إعتيادي، محفورة من مسافة الى أخرى، بما يشبه مداخل مجازات قد بوشر بفتحها، إلا إنه لم تتم زيارتها وإكتشافها. من أعلى

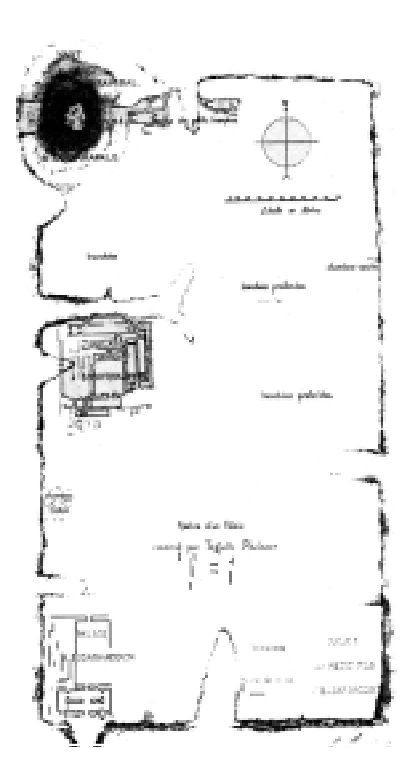
(١٥٠) إتخذ شلمنصر الأول مدينة كالح – نمرود مقراً لحكمه. أمّا القصر الشمالي الغربي فقد بناه آشور ناصربال الثاني (٨٨٣–٨٥٩ ق.م) ولعله المقصود هنا بسردانابال. وتقع (نمرود) على بعد ٣٧ كم جنوب غربي الموصل، جرت فيها إكتشافات جديدة في السنوات الأخيرة، وهي إحدى العواصم الآشورية الأربع. راجع الهامش ١٣٢.

(١٥١) تحفّظ آخر ليس في محلّه، وتوجّس لا سند له، يبديهما رحالتنا المتغطرس.

(١٥٢) بوسع القاريء أن يتابع جولتنا على الخارطة المرفقة بالرحلة (الرحالة).

الهضبة العالية، يمكننا إحتواء مجمل الخرائب.

إنها تشغل مساحة تقرب الى الستمائة والخمسين متراً طولا، من الشمال الى الجنوب، وثلاثمائة وخمسين متراً عرضاً من الشرق الى الغرب. وقد كانت ترتفع فوق هذه الساحة أرضية مشيّدة بالطابوق والتراب، محاطة ببناء صلب. وبوسعنا أن نميّز بقايا تسعة أبواب مختلفة. ويقوم تحت أقدام الناووس هيكلان مخصصان للآلهة الآشورية.



خارطة نمرود

إذ نترك الناووس ونتوجّه الى الجهة الغربية، نجتاز وادياً عميقاً، يبدو إنه موقع درج، أو إنه طبقة منحنية تقود الى النهر. ثم نصادف أطلال القصر الرئيسي الذي كان مرتفعاً عن دجلة بأرضية أشبه بالسطح لقد كان مدخله، حسبما يقول لايارد، بإزاء الناووس، أي بإتجاه الشمال، وكان المدخل مزيّناً في السابق، كما في قوينجق، بالعنقاء وبثيران مجنحّة ضخمة. لقد تهدمت بعض هذه الآثار المدهشة، وقد تمكّنوا من حمل بعض البقايا الى لندن.

يمثل الخراب هنا طابعاً متميزاً، فالحجارة المطروقة تنسحق ثم تتفتت هشيماً، وكأنها قد أخضعت لمفعول النار ثم الماء، هكذا تبدو للعيان. ويبدو التأثّر شديداً في بعض الأماكن، بحيث أن المعالم البارزة هي وحدها الظاهرة فيها.

نلقى في حقل الحجارة حفراً (ثقوباً) كانت تغور فيها قضبان الحديد، وفي الزوايا

آثار الكلاليب التي كانت معلّقة بها، وكثيراً ما لاحظنا أطراف الزوايا اليمنى مسدودة بحجر منحوت ومثلّث الزوايا، وتبدو منحوتات كثيرة مكسورة بنوع متعمّد. لم يقم البابرة (البرابرة) بهذه الأعمال الهمجية، بل هم الإنگليز أنفسهم ابان تنقيباتهم، فهم إذ لم يتمكّنوا من حمل كل ما كشف النقاب عنه، بدلاً من أن يتركوا لآخرين فرصة الإنتفاع منه، فضلّوا سحق قطعة مهّمة سحقاً[١٥٣].

والإنگليزي لايفقه القطعة الفنيّة، ولايثمّنها، وإذا ما حاول أن يملأ المتاحف، فهو إنما يفعل ذلك بروح التقليد والتعالي[١٥٤].

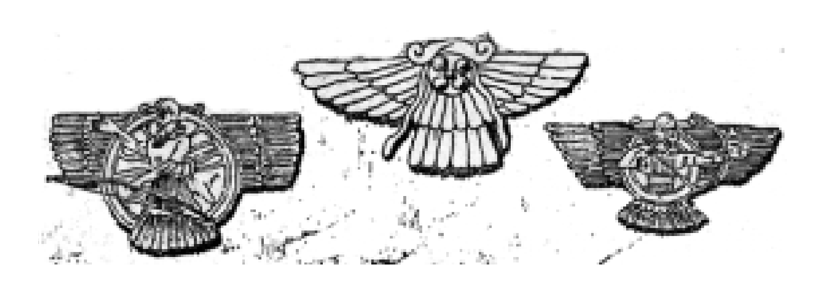
نستمرّ دوماً في المسير بالإتجاه عينه، فنلقى منحدراً آخر شبيهاً بالسابق، مما يدلّ على حافات السطح. وثمّة أثر لدرج آخر. ولطابق منخفض، حتى نبلغ الزاوية الغربية حيث يرتفع قصر أسرحدون. لقد أتلفته النار بشكل كامل، بحيث بات من الصعب جداً إيجاد الخطوط العريضة له وتركيب خارطته. لقد كان قصر أسرحدون أقل علواً من قصر حفيده الواقع في الزاوية الجنوبية الشرقية، حيث الأطلال هي أقل مرئية. وقد كان مفصولاً بمنحدر آخر، أي بطبقة منخفضة ودرج أشدّ عرضاً من الآخر، لذا فهو بمثابة المدخل الرئيسي للأرضية العامة.

آزاء هذه المداخل، ووسط الأرضيـــة، تقـــوم بعض أطلال بناية منســـوبة الى تغلتبلاسر، قد جرى هدمها، حسب لاياراد، من قبل أسرحدون الذي إستخدم موادّها لتشييد قصره.

ليس ثمّة أي أثر للتحصينات ولا للأسوار من الجهتين الشمالية والشرقية، ويبدو إنه لم يكن للواجهة الشرقية، سوى مدخل واحد. لقد كانت المباني بدون حماية من

(١٥٣) يلاحظ مسيو دي ريفوار de Rivoyre في رحلته الى بابل أعمال الهمجية عينها، فيقول: «حين كشفت الحفريات في الحلة (بابل) عن بعض الأفاريز الثقيلة جداً، وعن بعض الألواح الجدارية الضخمة لكي تغلف وترسل الى لندن، أتعلمون ماذا حدث؟ ليس أبسط من الأمر التالي: لتعوّدهم على شبح التنافس مع جيرانهم، وعلى التعالي المقصود، وخشية أن يسيطر غيرهم عليها (على الآثار)، يسحق منافسونا (يقصد بهم الإنگليز) اللقى بكل بساطة وبالمطرقة، في مواضعها عينها، فإن لم يكن لهم أن يحصلوا عليها هم أنفسهم، فلا ينبغي أن يحصل عليها الآخرون! (الرحالة): John Bull, D. de Rivoyre, Les Vrais Arabes et Ieur pays.

(١٥٤) مبالغة أخرى لرحالتنا، فهو فرنسي لايحب الإنگليز.



مشهد من نمرود

هذه الجهة. ونلقى في تحصينات التراب التي كانت تشكّل سور الحماية لمدينة نمرود، آثار نحو خمسين برجاً في الواجهة الشمالية، وفي الواجهة الشرقية كذلك، لكنها هنا أقلّ وضوحاً. أما جنوباً فقد إمّحى أثر التحصينات تقريباً، غير إنه من المستبعد أن يكون دجلة قد أغرقها، لأن مستوى النطاق هو أعلى من حوض النهر. ولعلّ الحفرة العميقة المملوة بالماء (الخندق) كانت تستخدم للدفاع.

نعود الى الهضبة الرئيسة، حيث ضريح سردانابال. وبينما نحن نتجوّل في المعبد الصغير الواقع تحت النهايات الشرقية من الهضبة، حصل إنهيار أرضي كشف النقاب عن حجر بدا لي غريباً، طوله سبعون سنتمتراً وعرضه خمسون، وقد نقش عليه مخطط مذبح مثلّث الأقدام شكلاً، يعلوه رسم أحد الآلهة، ومن كل جهة شخصان، لاشك إنهما كاهنان يمسكان بسمكة، وفي الأسفل أربعة أو خمسة أسطر من كتابة بالأحرف المسمارية. سمك الحجر ثمانية سنتمترات تقريباً، دون إحتساب نحت الأشكال، وجسم الحجر أملس، أما المنحوتات فشديدة الوضوح، وعندما قلبنا الحجر، رأيناه منحوتاً أيضاً. لقد كان السطر الأول مكوّناً من زخرفة بيضوية الشكل فيها أحرف سحرية محفورة بشكل مقعّر، تحتها سطر يمثّل أشخاصاً ونحو عشرة أسطر مكتوبة بأحرف أدّق مما على الوجه الآخر. إستغرقنا ساعة في تنظيف الحجر. وكان رئيس القرية يريد في باديء الأمر منعي من حمله، إلا أن بعض الهدايا ما عتمت أن بددت تردده، بل راح يصرّح بما إني لن أتحدث بسوء عن محمد (ص) فإنه مستعدّ لكي يقدّم لي العون. وقد كان النقل والإبحار شاقّين، إذا يتطلّب الأمر أن نضع محملاً يحمله بمشقّة عشرة أشخاص حتى الكلك، لكننا كنا نرى هذه القطعة في

أحد المتاحف. لقد فعلنا ذلك بدون تركيا، ومن دون سوء نية وإزدواجية الموظفين في بغداد.

ثمه بقايا الفناء من التل وحتى النهر، وفي أماكن كثيرة آثار طلاء شبيه بالقار، لكنه أشدّ صلابة، فهل كان ذلك سداً، أم إنه حاجز، أم رصيف؟[١٥٥]

نصف أهالي القرية يستعرضوننا راجلين أو ممتطين الجياد، ونحن نجتاز بعض بيوت الطين الوضيعة. أمام أحد البيوت، نجد رجلاً وإمرأته، مازالا شابيّن، جالسين أرضاً، الواحد آزاء الآخر، وأمامهما إناء خزفي مملوء بماء الصابون، الرجل عار حتى الحزام وقد أحنى رأسه في الإناء، والمرأة تغسل له شعره بكل عناية. الرجال هنا يتركون خصلات شعرهم، يشدّونها الى الوراء، أو يتركونها تتدلّى تحت عباءاتهم، ويصنع البعض لهم ضفيرتين يدعونهما تنزلان الى الأمام، تحت الحنك وعلى الإكتاف.

يغدو الوقت متأخراً حين نستأنف المسير. ولكي نرتاح من التعب، نستحمّ سباحة ونحن نتبع القارب، وندخنّ الغليون بعد العشاء. الليل هاديء، والنجوم متلألئة، ولا شيء يزعج هدوء الصحراء. نتوقّف في الساعة التاسعة.

السبت ١٧ تشرين الأول (أكتوبر)

لقد كان الليل بارداً أيضاً. إنخفضت درجة الحرارة حتى ٣ فوق الصفر في الساعة الرابعة صباحاً، ولا أظن بأن الرجال الراقدين خارج الخيمة قد أحسوّا بالبرد.

نجتاز في الساعة الثامنة شلالاً علوّه خمسون سنتمتراً، لاشك إنه سدّ قديم متهدّم. من السهولة بمكان، بفضل بعض أقلام الديناميت، القيام بحفر قناة تسهل شأن هذا الممر الخطر، إلا أنهم حذرون من القيام بعمل مفيد كهذا. نضطر الى جمع كل الأمتعة وكل التجهيزات في الخيمة أثناء عبور هذا الممر. يجرفنا التيار، حتى نلقى أنفسنا في هذا المأزق، يميل الزورق مترنحّا، وبعث صوتاً شديداً، فيبدو وكأنّ كل شيء قد تكسرّ. فتنقلب الأمتعة، وتلمس إحدى زوايا القارب الأرض، فقد حصل الزيغان،

(١٥٥) مشاهدات بنديه في النمرود ذات فوائد. ويمكن للزائر أن يطلع اليوم على آثار هذه العاصمة الآشورية بعد قيام المؤسسة العامة للآثار والتراث بإجراء تنقيبات وأعمال صيانة.

لكننا نعبر هذا الحائل، وبدلاً من أن يظل القارب مستطيلاً، يغدو معيناً، وقد تمزّقت بعض الأربطة، وبعض القرب تشققت، وما نزال نعوم مع الموج حتى وصولنا أقرب ضفة، فيقضي أصحاب الكلك ساعة في إصلاح بعض الأضرار، بينما نتمشّى نحن أثناء ذلك على الساحل المرتفع.

نقضي النهار بلا عمل. وبالتدخين. ترجماننا الجديد يرضينا جداً. إنه لطيف، ومجامل، يتطلّع إلينا بسذاجة، بعيني كلب كبير. يعدّ لنا القليون بشكل ماهر بحيث يجنبّنا عناء إعداده. إنه نظيف وشديد الإهتمام.

نمرّ في الساعة العاشرة أمام مصبّ الزاب الكبير. مياهه الزرقاء النقية التي تصل من الجبال، تلوّن مياه دجلة الغبراء والصفراء قبل أن تختلط بها. يصبّ الزاب الكبير في دجلة من خلال رافدين، أحدهما في موسم الجفاف هذا من السنة.

الساعة الواحدة بعد الظهر، يؤشر المحرار درجة ٣١، فثمّة إذاً فرق ٢٧ درجة خلال تسع ساعات[١٥٦].

نمرّ من حين لآخر أمام قرى صغيرة يتطلّع أهاليها بفضول الى خيمتنا البيضاء وهي تعوم، وتنبح الكلاب. الضفة مستوية بحيث يضيع مدى البصر في الصحراء الرملية، وثمّة بضع تلول يصطدم بها التيار، فيرتد، حتى تسقط السواحل عمودياً في النهر.

نستمتع بمشهد عجيب في الساعة السادسة، هي لحظات مغيب الشمس، فالسماء ذات زرقة شفّافة، مذهبّة بفضل الشعاعات الأخيرة. وليس من ريح يعكّر الجو، والنهر عريض، ومهيب، يجري دون أقلّ تشنج، ولكي يعطي حياة لهذه اللوحة، تمرّ في البعيد قافلة جمال تقطع النهر على الأقدام. صراخ الجمّالين يثير الحيوانات، تستنفرها قليلاً. بعد عبور آخر جمل، يولد الصمت من جديد، وتختفي القافلة في الأفق بكل هدوء.

يوقظنا يوفان من إنخطافنا، يسألنا إذا ما كنا نودّ أن نتعشى. أية لذّة أن يخدمك خدم كهؤلاء. كأنك وحدك. والمسلم هو كامل المزايا، من هذه الناحية. جنود جذّافون،

(١٥٦) ملاحظة أخرى ذكية يسجلها بنديه. فالطقس في بلادنا متقلّب كثيراً، ودرجة الحرارة تصعد وتنخفض خلال ساعات قليلة بشكل غريب.

خدم، لاتسمع لهم صوتاً، ولا صراخاً، ولا ضحكاً. إنهم قابعون في أمكنتهم لايغادرونها البتة، طيلة النهار. يفكرّون، ويحلمون. الجنود يساعدون، من وقت لآخر، في المطبخ. كمسلمين حقيقيين، لايأكلون اللحوم التي لم يذبحوها بأنفسهم. ولكي ينعموا بما يفضل عنا، سألوني فضلاً كبيراً أن يكونوا ممن يعملون في الفناء الداخلي.

يخيّم الظلام في الساعة الثامنة، فنتوقّف قرب الساحل، ونعتكف في الخيمة. أقرأ بعض النشرات التي جلبتها من الموصل[١٥٧].

كنّا قد نمنا منذ ما يقارب الساعتين، وفي نحو الساعة الحادية عشرة، سمعت صوت جلبة وكلام، ودخل بطرس مثل مجنون، فقفزنا، أنا وهاملن، وأخذ كل منا بندقيّته الجاهزة وهلعنا الى الخارج. لقد كان ثمّة نحو خمسة عشر نفراً يصيحون، ويقومون بحركات وثلاثة أو أربعة منهم، سكاكينهم بين أسنانهم، يرمون بأنفسهم في الماء لكي يثقبوا القرب. أحد الجندرمة يقطع الحبل الذي يشدّنا الى الأرض، فلقد كنا مع الأسف قريبين جداً الى الساحل، إذ كان الكلك فوق الرمال، حتى ظننت إنه لم يمكننا النزول في الماء، غير إننا تمكّنا بعد جهد جهيد من الإبتعاد عن الساحل، فأخذ بعض القراصنة يعومون، إلا أن الجنود أطلقوا عليهم الرصاص، وأفرغت أنا جميع إطلاقات بندقيتي من نوع وينجستر[١٥٨].

لذعرهم من الإطلاقات، لجأ السابحون الى الضفة، وواصلنا نحن بهدوء، إنما بتحفظّ، إذ لاينبغي أن ننجرف الى عمق قليل، فالجماعة تتبعنا على الساحل. أحشو بندقيتي وأطلق بضع إطلاقات، ثم إذ لم أعد أرى بعد أحداً، أعطي الأوامر

(١٥٧) من جملة الكتب التي كنا نقرأها، كتاب بالإنكليزية. فإننا أثناء تجوالنا في ڤيينا، رأينا لدى مكتبيّ (دليل في تركيا الآسيوية، وأرمينية وفارس). لايشتمل هذا الدليل إلاّ على رحلات الرحالة الرئيسيين دون تقديم أي شرح مفيد، غير إن إحدى عباراته الأولى كانت: «ليس ثمّة مصنفّات حول الرحلات الى بلاد ما بين النهرين وكردستان، ولا شيء أفضل في هذا الصدد من (عودة العشرة آلاف) لكزينيفون، لذا أنصح القاريء بالرجوع إليها» (الرحالة). بشأن هذه الرحلة، أنظر: حملة العشرة آلاف، الحملة على فارس، للمؤرخ الأغريقي زينوفون، ترجمة يعقوب أفرام منصور، الموصل ١٩٨٥.

(١٥٨) من ماركة Winchester.

بالإنزال على الضفة المعاكسة. واحد من الجنود يقوم بالحراسة على اليبس، بحيث يتاح له الرصد من البعيد. أمّا البقية ويوفان معهم فيسهرون من جهة النهر، ولاسيما من الجهة العليا من المجرى، لأن هؤلاء الأشقياء قد تعوّدوا على السباحة بدون ضجّة، إذ إنهم يركبون قربة منفوخة ويدعون أنفسهم للتيّار فيجرفهم الماء. نعود الى خيمتنا، وما يلبث النعاس أن ينسينا هذا الخطر.

١٨ تشرين الأول (أكتوبر)

ننطلق في الساعة السادسة، لدى إنبلاج الصباح، إذ أنه على بعد مسافة قريبة توجد مناطق سريعة الجريان وصعبة ينبغي إجتيازها. بعد نحو نصف ساعة، نصل فعلا الى موضع ترتفع فيه صخور ضخمة تهددنا بأمواجها الشديدة ونحن وسط تيّار سريع.

حوالي الساعة العاشرة نمرّ قرب ضيعة أعراب. رجال ونساء عراة، ثيابهم على رؤوسهم وهم يعبرون النهر، ويمسكون قربة منفوخة بذراعهم لكي يستندوا إليها، وهم لايعومون إلا بأرجلهم.

نجتاز في الساعة الرابعة على مقربة من تلّ مرتفع على الضفة اليمنى. إنها هضبة قلعة الشرقاط، مدفونة فيها أطلال قصور آشورية، وأهمها الهضبة الكبرى المعروفة، مساحة أرضيتها أكثر من أربعة كيلومترات. إنه موقع أقدم مدن آشور، كشف فيها لايارد عن المنحوتات والطابوق، فوجد إسم ملك منحوت على ثيران المداخل الرئيسة للنمرود. يفترض أن تقوم كالح في موقع هذه الأطلال، وهي إحدى المدن القديمة الأربع المذكورة في التوراة (سفر التكوين)، بينما يزعم آخرون إن (أور)، مدينة إبراهيم، هي القائمة في هذا المكان[١٥٩].

ما هو ثابت، أن هذا الموضع هو موقع Caenes المدينة المندرسة، يذكر كزينيفون بأن العشرة آلاف يونانيا قد عبروا دجلة على مقربة منها، حين مات كورش قرب

(١٥٩) قلعة الشرقاط يكتبها بنديه Kalaat - Shergat وآثار الشرقاط هي بقايا مدينة (آشور) العاصمة المقدسة الأولى للآشوريين. تقع على بعد ١١٠ كم من الموصل قرب قضاء الشرقاط، ويرجع تأسيسها الى الملك آشور أبلط سنة ١٣٦٢ ق.م كشفت فيها الحفريات عن معابد وقصور وزقورة وأسوار، وهي ليست كالح ولا أور، كما يقول بنديه.

بابل، فعادوا الى بلادهم[١٦٠].

مجرى النهر هو الآن أكبر عرضاً مما في الموصل، فإن الروافد التي تقبّلها من الضفة اليسرى، والوافدة من جبال كُردستان، جعلته ينمو. عند المساء، نرى على الساحل الأيمن مجاميع غفيرة من الدرّاج، وبين الحين والآخر ينابيع كبريتية تنشر رائحتها التي لاتطاق، وكأنها بيض فاسد.

المساء جميل كالأمس. إنه أجمل أوقات النهار.

ساعة بعد العشاء نتوّقف على الساحل المعاكس لقرية صغيرة حيث زراعة البطيخ بحجم كبير. نسمع طيلة الليل إطلاقات نار ونباح الكلاب. إنهم الأهالي يطردون الخنازير، إذ أن هذه الحيوانات تتكاثر في هذه الأطراف، وتأتي ليلاً لكي تلحق أضراراً جسمية بالبطيخ.

١٩ تشرين الأول (أكتوبر)

إنه اليوم الرابع من ركوبنا في الماء. أحد الكلاكين مبتلى بمرض الربو الحاد، يسألني علاجاً ضدّ السعال، فلا يسعني إلا أن أنصحه بأن يغيّر مهنته، فإنه بهذا الوضع المزعج، يقضي نهاره كله في الماء، غائصاً أحياناً حتى نصف جسمه لكي ينفخ قربة ويملأها هواء، يسير لاريب الى القبر بأسرع مما يريد الله منه.

ثمة بعض حقول دخن وقنب على الساحل الأيمن. وسط هذه الحقول، وفي الشمس المرتفعة، صبيان مسلّحون بالمقاليع[١٦١]، يتسلقّون فوق حصيرة تحملها أربعة أوتاد، وذلك لإبعاد العصافير بتوجيه الحجارة إليها. ومن حين الى آخر نلقى عصافير غرقى تعد بالآلاف.

(١٦٠) لقد كانوا يبلغون أبعد من هذا الموقع، حتى أطراف Abou Shita فيعبرون النهر، ويصلون لاريسا (النمرود)، ومسبيلا (نينوى)، ويستريحون في تلكيف، ثم يعبرون الخابور قرب زاخو، حتى يبلغوا كردستان (بلد الكارنوك Carnuques – كذا والمقصود السر Carduques أي بالدال لا بالنون) ثم يواصلون طريقهم عبر الجبال، فيقطعون Teleboas أحد روافد الفرات، ثم يعبرون فاز، أي آراكس Phase, Arax ويتجهون شرقاً، ويجتازون هرباز Harpase ويعودون غرباً، حتى يصلوا طرابزون Trébizonde ويعودون الى بلادهم بمحاذاة الساحل (الرحالة).

(١٦١) مايزال (المقلاع) معروفاً حتى اليوم في الأطراف التي يذكره الرحالة فيها.

الساعة العاشرة نمر أمام مصبّ الزاب الصغير. وبعد الظهر يبدأ ظهور الذباب. إنه من نوع مزعج جداً. ودرجة الحراة في الظل ٣٥°.

نجتاز في الساعة الخامسة مقطعاً من جبل حمرين بشكل نصف دائرة، يمتدّ پشت كوه في لورستان الفارسية[١٦٢]. ونصادف ينابيع كبريتية أخرى تلوّث الهواء.

نقوم، بعد العشاء بعمل غرفة مظلمة، وذلك بوضع سريري المخيّم فوق بعضيهما، وإكسائهما بالأغطية التي نغطّي بها أنفسنا، وذلك لإستبدال الورق الحساس لأفلام التصوير، أغوص في هذا الحيّز الضيق وأسجن نفسي فيه مدة ربع ساعة، ومصباح زجاجي أحمر يزيد من درجة الحرارة.

نمرّ قرب مخيّم أعراب يشعلون نيراناً شديدة. الماء أقلّ عمقاً. نسمع في بعض الأمكنة صوت القرب وهي تصطك بالحصى. لقد كانت مائة وخمسين قربة ساعة السفر، ولم يبق منها أكثر من مائة لدى الوصول.

نتوقّف الساعة الثامنة والنصف قرب ضفة عالية نوعاً ما، مغطّاة بالعوسج. فيها آثار ثعالب وخنازير وحيّات كثيرة. الرجال الذين يفضلّون البقاء على اليابسة، يضرمون ناراً كبيرة. أسهر لكي يكون دوماً مَن يحرس القارب، مصوّباً نظره جهة النهر، كما الى الساحل، ومحترزا من الريف.

٢٠ تشرين الأول (أكتوبر)

لا شيء مثير اليوم.

نلاحظ صباحاً آلاف العصافير وهي تهاجر أفواجاً.

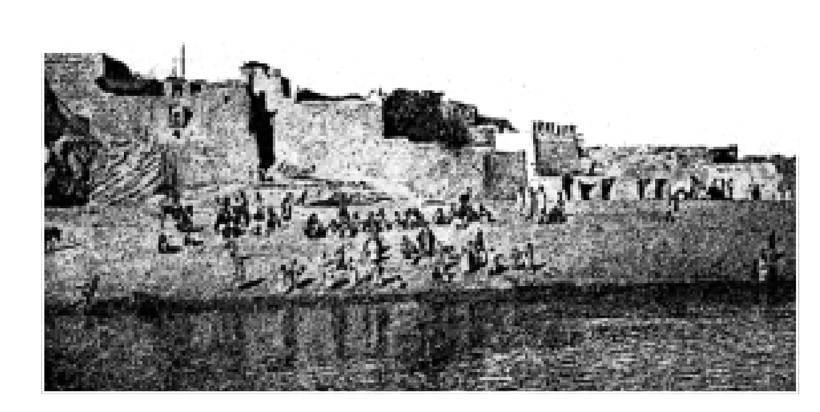
نصادف الساعة الحادية عشرة آثار فشل زورق بخاري إنگليزي حاول أن يصعد دجلة بتهوّر، دون أن يقوم بالمجسّات المطلوبة. إنها ضفاف مستوية ورتيبة.

نصل تكريت في الساعة العاشرة مساء.

٢١ تشرين الأول (أكتوبر)

يتطلّعون الى تكريت كما الى واحة، مع إنه ليس فيها سوى أربعة أشجار نخيل.

(١٦٢) هكذا وردت هذه الأسماء في الرحلة: Djebel - Hamrin, Ponschti, Kou, Louristan



تكريت

البارحة مساء، لدى وصولنا، كان القمر ينير إحدى أشجار النخيل هذه الواقعة وسط ساحة صغيرة محاطة ببيوت منخفضة، بإتجاه النهر. إن التطلّع إليها في هذا الصباح يعطيها جمالية أقلّ من يوم أمس.

أول همّنا تجديد تجهيزاتنا. نشتري بعض الدجاج وخروفاً يتعهّد الشرطة بذبحه وإعداده، بينما نقوم نحن بجولة في المدينة. يكلّفنا الخروف سبعة وعشرين قرشاً (خمسة فرنكات و ٤٠). نترك للشرطة الإنتفاع بجلده، وقد كنّا نستطيع بيعه بخمسة قروش (فرنك واحد). لقد دفعنا أكثر مما يدفع أهالي البلد، فلقد كان للطباخ عمولة في الأمر[١٦٣].

إن الأمير صلاح الدين مولود في تكريت. شهرته المعروفة في الحملة الصليبية الثالثة وحملاته على المسيحيين، فقد حارب بشهامة ومهارة، فقهر ريشارد قلب الأسد[١٦٤].

(١٦٣) شكوك، ظنون وإدعاءات، أم حرص شديد ودّقة ملاحظة كبيرة؟

(١٦٤) البطل صلاح الدين الأيوبي (١١٣٨- ١١٩١م)، مؤسس الدولة الأيوبية. هزم الفرنجة في معركة حطين سنة ١١٨٧ وفتح بيت المقدس. كانت ولادته في تكريت. الأسماء الواردة هنا يكتبها بنديه هكذا: Tekrit, Salah-ed-dine = Saladin.



قلعة تكريت

القلعة أطلال، وتقع في جهة المدينة العتيقة، وترجع الى عهد تيمورلنك، وقد مني سابور بالفشل أمام أسوارها. إنما المدينة بعيدة اليوم عن مجدها الغابر.

في الساحة التي حططنا الرحال أمامها، تقوم ساحة رملية كأنها ساحل رملي. قد بسط فيها باعة البطيخ والرقّي سلعهم، وهم ينتظرون المشترين بفارغ الصبر. وفي الطرف الآخر، قصّابون قد ذبحوا خروفاً، وعلقّوا الحيوان من إحدى رجليه، وراحوا يقطعون للمارة القطعة التي يريدونها.

تضمّ المدينة نحو ألفي بيت، دون إحتساب الأخربة الكثيرة التي تمتدّ الى الوراء، وكأنها ضاحية مهملة أو متهدّمة. ويرتفع الى الجنوب، تلّ مستقيم الشكل، على بعد مائتي متر في الطرف السفلي من المجرى حيث توقفنا. أما شمالاً، فالساحل أقل علواً. والمدينة أشبه بمسرح وسط هذين المرتفعين.

نجتاز طرقات تكريت الصغيرة والمملوءة أتربة بيضاء هي بقايا جدران البيوت المصنوعة من الوحل الجافّ الذي ينحلّ في الشمس. وإذ نبلغ نهاية المدينة الحالية، نهيمن على كل إمتداد المدينة القديمة، حيث تبدو الجديدة خارجة عنها وكأنها حيّة تترك جلدها متخلصّة منه.

نمرّ أمام القلعة، ونحن ننعطف الى الجنوب قليلاً. لم تعد سوى كومة مشوهة لأنقاض أسوار مشيدّة بسمنت الحصى الخشن. وتقوم المقابر على مبعدة من الأطلال.

نميّز وسطها مسجدين أو ثلاثة في الأفق، ومراقد باشوات أو أثرياء المسلمين. وفي الجهة الشمالية آثار باب ذي مساند ضخمة مشيّدة بالحصى والسمنت، نصفها متهدّم، كأنه مدخل قلعة أخرى كانت تسيطر على المرتفع. لايحمل هذا الباب أي أثر منقوش.


عرب في تكريت

إذ نسير بمحاذاة الساحل، نعود قافلين الى الكلك، فنمخر.

دجلة عريض، وضفافه منخفضة، بحيث إننا نشاهد من جميع الأطراف أقصى ما يمكن من مدى النظر. الشمس محرقة. والذباب لايحتمل. تصعد درجة الحرارة حتى ٣٨.

فنقوم بإستراحة الظهيرة. حتى نمرّ في الساعة الثالثة أمام الإمام – الدور[١٦٥].

إنه قبر مربع الشكل يرتفع على علو خمسمائة متر عن الساحل، قبّته من الطراز العربي، جميلة جداً.

منظر عادي في المغيب. إنه الهدوء المعهود، يريح النفس والجسد. النهر أشدّ عرضاً، ومجراه أكثر تماثلاً وهدوءً، بحيث ينسجم بنوع أكبر مع السهول الفسيحة التي تحيط به.

نتوقّف في الساعة الثامنة مساء قرب مخيّم صغير لأعراب مزارعين، ومع إنهم يبدون غير مغرضين، فإننا نخيّم على الساحل المعاكس. يأتينا إثنان أو ثلاثة منهم حاملين الرقّي والحليب. إنهم يحملونه على الرأس أثناء عبورهم النهر سباحة[١٦٦].

٢٢ تشرين الأول (أكتوبر)

نمرّ صباحاً أمام سامراء وجامعها الشهير. لقد كانت سامراء أيام الخلفاء مدينة

(١٦٥) إنها (الدور)، يكتبها بنديه هكذا: Imam - Dour.

(١٦٦) وتكذب ظنون بنديه، فالأهالي أناس طيبون، يقدمون له ولأتباعه الرقّي والحليب، وربما اللبن، أما القراصنة وقطاع الطرق فأنفار معدودون لايحق تعميم ظاهرتهم على القبائل والسكان جميعاً.

كبيرة ومزدهرة، بل كانت المقرّ المفضل للخليفة الثامن المعتصم بالله الذي دفعته طباع أهالي بغداد القلقة الى تغيير مركز الحكم. لكنها ليست الآن سوى ضاحية ذات شأن صغير[١٦٧].

لقد شيّدوا برج سامراء (الملوية) كما كان لهم أن يتخيّلوا برج بابل، أي بدرب دائري يتصاعد حلزونياً حول المركز. أما الجامع فمكان زيارة للشيعة، إذ دفن فيه آخر إمام من سلالة علي (رض)، وفيه يتوارى الإمام الثاني عشر، المهدي الذي سيظهر يوماً كالمسيح.

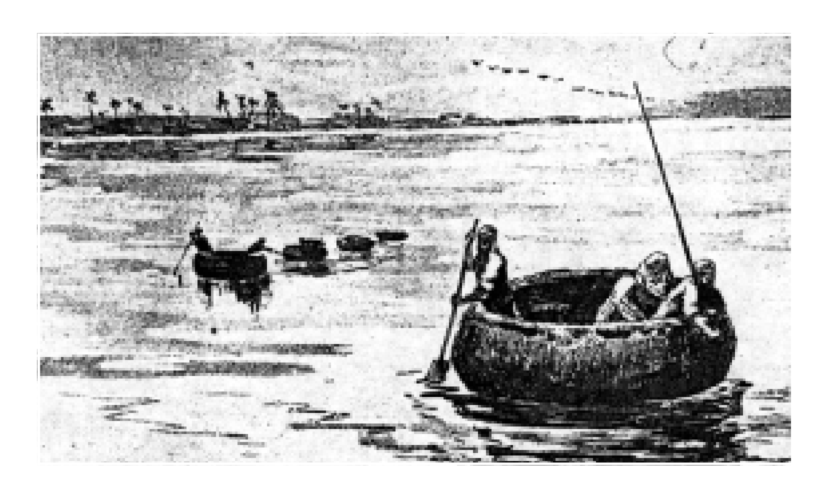
نلتقي الساعة الثامنة بقافلة فرس يعبرون النهر.

بعض البيوت التي على الساحل هي منازل نوتية حطوا في هذا المكان حيث النهر يشقّ الطريق، وذلك لكي ينقلوا المسافرين. زوارقهم غريبة الشكل. إنها أعشاش كبيرة، دائرية الشكل، مصنوعة من خيزران محبوك، ومكسوة بالقار، يسمونها (القفة)[١٦٨]. إنه النموذج المستخدم في المنطقة كلها. إذ يبدو بأن فنّ الملاحة لم يتقدّم منذ العهد الآشوري. فقد وجدت ألواح جدارية في خرائب النمرود ونينوى تمثل هذه الزوارق ذاتها، يسيّرها المجذاف نفسه الذي مازال يقودها في التيّار، والى جانب هذه الزوارق نحتت رسوم رجال ممتطين قرباً منفوخة، كما بوسعنا أن نشاهد الآن أيضاً في كل لحظة. والأمتعة مكوّمة كيفما كان، كمخيّم البوهيميين، مع النساء والأطفال. بعضهم ينزلون الجياد الى الزورق، وآخرون يدفعون بها سباحة، وبعض النساء قد تخلّفن عن الركب، فهن يقمن بعملية التغسيل في النهر، بل إن إحداهن تعوم، بينما تخفي الأخريات بملاءاتهن العائمة عن أعين العامة.

بعض أشجار النخيل تضفي على الضفاف منظراً جديداً. وترتفع الحرارة الى درجة ٣٩ الذباب لا عدّ له، ومساء يستبدل بفراشات صغيرة شبيهة بعثّة الثياب. البعوض نادر، فهو لم يلسعنا.

(١٦٧) Samarra سامراء، أو (سُرَّ مَن رأى)، أسسها العباسيون. ومن آثارها الشهيرة الملوية والجامع الكبير وبعض القصور.

(١٦٨) يكتبها Kouffeh وأنظر رسمها.



القفة - بغداد

نلمح في الساعة الحادية عشرة تلّ محاسي[١٦٩]،

الجامع الكبير المربع الشكل، والخان الفسيح الذي يهيمن على السهل بمهابة. نظراً لوقوعه في منعطف النهر، نشاهده مدة تقرب من ثلاثة أرباع الساعة، فإننا ندور حوله.

بتأرجح الكلك، ويتفكك قليلاً فقليلاً. فقد تكسرّت أحزمة الخيزران في عدة مواضع، وتشققت بعض القرب، وإنعدم هواؤها، فبات من الصعوبة بمكان أن نسير بدون رجّات، فهو يصطدم بإستمرار بالحصى والصخور. لقد آذاه كثيراً شلال اليوم الثاني، وسيكون غير صالح للإستعمال في نهاية الرحلة.

تصبح رائحة لحم الخروف كريهة، فأوعز بأن يرمى بقسم منه على مرأى من الرجال الآسفين عليه، فإن حاسة الشمّ لديهم أضعف مما لدينا، لذا لم يعيروا أهمية للرائحة الكريهة المنبعثة منه.

نمرّ عند مغيب الشمس على مقربة من خيم بدو. الأطفال عراة يتجوّلون وسط الدجاج والحمير والثيران، بينما تقوم النساء أمام أكواخ الأغصان بأعداد طعام المساء، بزر القنب والحليب الساخن، والرجال جالسون القرفصاء يتأملونهن بصمت.

(١٦٩) Tel - Mahassi



القفة في لوح قديم

لن نتوقف هذا المساء، بل سننجرف طيلة الليل مع مجرى المياه.

٢٣ تشرين الأول (أكتوبر)

ثامن يوم من الملاحة.

يغدو التيّار أبطأ، رويداً رويداً، فنسير ببطء شبيه بإنعدام الحركة. لم نبلغ سنديا[١٧٠] إلا في الساعة الرابعة صباحاً، بينما كنا نأمل أن نصلها البارحة. نرى بساتين نخيل ذات شأن كبير في الحويش[١٧١]، في الساعة الثالثة. ونشاهد في الساعة الخامسة قرية جديدة الصغيرة[١٧٢].

خنزيرات خشب بدائية منصوبة من كل جانب من النهر لرفع المياه في القرب. الطريقة بدائية تماماً. فإن ثيراناً يقودها طفل تسحب القرب التي تمتلىء من النهر لكي تصبّ ماءها في ساقية حتى تبلغ الضفة، وهناك تجري في ألف ساقية لإرواء الحقول. الصرير المستديم لعجلات الخشب لايطاق، وسوف يلازمنا هذا الصخب بشكل متصاعد حتى بغداد.

(١٧٠) Sindia

(١٧١) Howeish

(١٧٢) Djedeida



دجلة بين بغداد والكاظمية

٢٤ تشرين الأول (أكتوبر)

سوف نصل بغداد اليوم. نحن في الكاظمية (الكاظمين)[١٧٣] في الساعة السادسة، إنها ضاحية على بعد بضعة كيلومترات من بغداد، شهيرة بمزارها الشيعي. ثمّة نوتية يتعمّدون الإحتكاك بقاربنا وهم يمرّون بقربهم، حتى أن أحد صناديقنا يوشك أن يسقط في النهر، ويبدو أنهم مرتاحون جداً إذ يتمكنون من السخرية بنا. لقد كانت البندقية بيدي، لذا صوبّت إطلاقتين الى زورقهم، تحت خط التجذيف بقليل.

نصل جسر القوارب، قرب الكاظمية، ساعة فتحه تماماً. جذوع نخيل تملأ حافات النهر الذي قد أصبح عريضاً ومهيباً جداً. الموضع جميل جداً. نرزم أمتعتنا المتناثرة، ونترك بزّتنا غير المنتظمة لكي نرتدي أفضل منها.

ينحرف النهر، حتى تبدو بغداد أخيراً. من كل ناحية من دجلة ترتفع قصور منيفة تستحمّ أسوارها العالية المشيدة بالطابوق في مياه النهر. يكثر النخيل ما بين

(١٧٣) الكاظم أو الكاظمين، يكتبها رحالتنا بعدة أشكال: Kadhimein, Kasméne, Kazhmein. والكاظمية من ضواحي بغداد، على إسم الأمام موسى الكاظم من سلالة الرسول من إبنته فاطمة.

السطوح، وتنتصب أشجاره فوق المياه بحيث تهمين على البيوت بأغصانها الخضراء. والمدينة في البعيد، كتلة ضخمة لآلاف البيوت. وفي البعيد البعيد بعض القباب الجميلة، وأحد المعالم الخالدة، وبرج، أو منارة مكسوّة بالخزف القاشاني ذي الألوان الجذابّة، ترتفع فوق حدائق المدينة، وتتصل أشكالها الرفيعة بزرقة السماء. شمس بهيّة تضفي على المشهد ضياء منعشاً بحيث تبدو المدينة ساحرة. والصحراء المحيطة بها تعكس الضياء، فتلّفها بهالة، فتبدو وكأنّها معزولة عن العالم بأسره. هذه هي بغداد، مدينة ألف ليلة وليلة.

ينبغي النظر الى الشرق كلّه من خلال نظرة ضيقة. فالطبيعة وحدها هي المثالية هنا. إذ نقترب، نشاهد بأن تلك القصور ليست سوى خرائب قد زرعت وسطها أكواخ خشبية حقيرة. أما أطلال الأسوار التي قد سقط قسم منها في النهر فهي من الطابوق والسمنت، سميكة ومتينة، يقرب سمكها من المتر. في مدخل المدينة، نحاذي الضفة اليسرى على ساحل رملي.

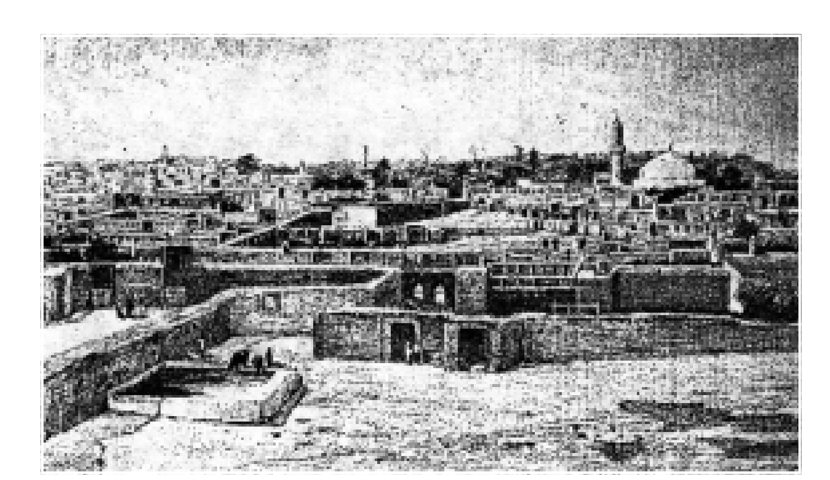
بغداد*

من ٢٤ الى ٣٠ تشرين الأول (أكتوبر)

الوصول الى القنصلية. فندق أوروبا. نانو نوري. الحنّاء. الأوروبيون في بغداد. الآباء الكرمليون. النواقيس والقرآن. برج بابل. بغداد. الضواحي. الأسوار. المراقد والجوامع الرئيسة. زيارة الى خشمين. الترامواي. جامع الإمام موسى. تعصب الناس. عشاء لدى السيد أصفر. البريد عبر الصحراء. عرب شمر والحمويون. إرسال الرزم، ومصاعب ذلك. شاه فارس في زيارة الى بغداد. رفض الوالي إعطاءنا جندرمة. مجاميعنا تسرق. الرحيل عن بغداد.

تركنا الكلك بحراسة يوفان والجذافين والجنود، وتوجهنا صوب القنصلية. واحد من الجندرمة وبطرس يرافقاننا. الطريق طويل جداً. نقطع أولاً ساحة كبيرة مكشوفة للشمس، هي الميدان، محاطة بباعة لكل أصناف السلع. ثم نجتاز فناء معسكر المدفعية، وهي مزدانة بمدفع برونزي قديم كبير، ثم نتابع السير في أروقة السوق،

* الفصل العاشر من الرحلة.



بغداد

فيقودونا الى الحي المسيحي (عقد النصارى)، وذلك من خلال دهاليز طرقات إتجاهها مواز للنهر تقريباً.

نصل القنصلية. يبدو مسيو دي سارزيك[١٧٤] مستعجلاً جداً للعودة الى الريف، حيث إنه في عطلة، وقد أرغمه وصول المونسنيور ألتماير على تركه بضعة أيام. لذا لم يكن له أن يعنى بإيجاد بيت نستطيع أن نقيم فيه. «ثمه فندق –قال لنا– يديره يوناني، غير بعيد من هنا، سأعمل على أن يقودوكم إليه». قدّم لنا الرسائل التي كانت قد وصلتنا الى القنصلية، ثم مضى فوراً لكي يهتمّ بتهيئة سفره. وقد بدا لنا مسيو دي سارزيك كذا مستعجلاً، بحيث إننا إذ خشينا أن نكون بدون اللياقة اللازمة، إستأذنا في الإنصراف بعد زيارة بضع دقائق. يطلب الى أحد القواصين أن يرافقنا، ويضيف وهو يغادرنا:

«إن كنتم بحاجة ما لدى السلطات، فلا تعتمدوا على وساطتي، لأني لست بوضع جيد مع الوالي، ومع نائب الوالي، وكل الموظفين. حاولوا أن تدبروا أنفسكم

(١٧٤) خلف مسيو دي سارزيك مسيو بيرتييه Peretié في منصب قنصل (فرنسا) في بغداد، وبدأ بحفريات، غير بعيد عن بغداد، في تللو (Tell Ho) نبهه إليها أحد السكان، إعترافاً له بالجميل لخدمة قدمها له، وقد كشفت تنقيباته فعلاً عن لقى مثيرة حقاً، فهي تحمل كتابات هيروغليفية (تصويرية) تسبق الكتابة المسمارية (الرحالة). وبشأنه أنظر الهامش ١٤٢.

بأنفسكم، بواسطة الإكراميات (البقشيش)». فننسحب عندذاك من دون ما إلحاح، ونحن مستغربون من لقاء كهذا. في أي بلد آخر لم أكن لأستقبل ببرودة كهذه من قبل أي من المواطنين[١٧٥].

يقودوننا الى الفندق الشهير، الذي لايتردد في إتخاذ إسم له هو (فندق أوروپا). لايعرف صاحبه ماعدا اليونانية والعربية. كل ما تخلص إليه، هو إنها الساعة الواحدة، وإننا جياع. يقدم (صاحب الفندق) ذاته واضعاً إياها تحت تصرّفنا بكل طيبة خاطر، ويعطينا أفضل غرفة[١٧٥*].

يأتينا كلداني سائلاً أن يعمل لدينا كدليل وترجمان حتى طهران. يسلمنا بطاقة من القنصل تحمل هذه الكلمات: «مسيو دي سارزيك يوصي السيدين بنديه وهاملن بالمدعو (نانو نوري) حامل الكتابة، إن كانا بحاجة الى ترجمان». أثناء المحادثة القصيرة التي كانت لنا مع مسيو دي سارزيك، حدّثنا فعلاً عن هذا الرجل الذي يدعي إنه كان في خدمة (مسيو گوتييه)[١٧٦]، الرحالة الشاب من ليون. وكان الدومنيكيون في الموصل قد حدثونا عنه. وكان مسيو گوتييه معجباً به، حتى إنه أكرمه بفرس عندما تركه. غير إن ثمّة علامة شك: لمَ لم يحتفظ هذا الرحالة الذي ظل يقطع البلاد بترجمان جيد كهذا؟ يدّعي نانو إنه مرض. وبما إنه لايجب أن يكون المرء معقداً في بغداد، فإننا نقبل نانو منذ اليوم، معتمدين عليه لكي يساعدنا في أمر عبور أمتعتنا مكوس (كمارك) بغداد.

نمضي بعد الغداء لزيارة المونسنيور ألتماير والآباء الذين يرافقونه. لقد إستغرق هؤلاء المرسلون يومين أكثر منا في ركوب دجلة، فقد لحقت بهم ريح شديدة جداً مدة ست وثلاثين ساعة، بحيث أنهم أرغموا على التوقف على الساحل منتظرين هدوء الريح.

(١٧٥) سواء في الموصل أم في بغداد، لايلقى بنديه إستقبالاً حميماً من قبل مواطنيه والمسؤولين الفرنسيين، فهل من حقه أن يلوم الآخرين، والغرباء، ويتهمهم بشتى التهم كما فعل مراراً في مذكراته؟

(١٧٥*) أنظر الهامش ١٩٤.

(١٧٦) M. Gauthier

ونقصد السيد (خوري) وكيل القنصلية الذي يستقبلنا بلطف كبير. إنه مولود في دمشق، ومن أقارب مسيو سيوفي. يصل من موقع فرنسي في الزنزيبار حيث كان في موضع إعتبار مرموق لدى السلطان.



سوق بغدادية

نعود الى الكلك، مجتازين الأسواق من جديد، ونقوم بإنحراف بسيط لكي نتصل بالمصرفي (أصفر)، منبّهين إياه إننا سنطلب إليه في الغد مبلغاً كبيراً بموجب كتاب القرض (الكمبيالة). نسير فوق ظهور حمير بيضاء ضخمة الحجم (حساويات)، مكسوة بأقمشة غريبة بلون الحناء[١٧٧]. تستأجر بسعر معتدل جداً. إنها عربات بغداد. تسير بشيء من المهابة اللطيفة. ندفع هذا، وندفع ذاك، حتى نصل الى الكلك. فنأخذ معنا أغراضنا النفيسة جداً، وندع القارب يمخر في الماء تحت حراسة يوفان وبطرس والجند، فهو سيرسو في مكان أبعد، على ساحل رملي صغير، وسط المدينة حيث سنتلقاه. أما زيارة المكوس فهي على جسر القوارب، حيث سيكون نانو موجوداً، وسيمنح الهدايا الضرورية تجنّباً للإزعاجات.

نجتاز مرة ثانية، على ظهور الحمير، الثكنات حيث الجنود يقومون بمناورات وتمارين على الطريقة الفرنسية. إن هذه المعسكرات هي كبيرة ومشيّدة بشكل جيد، وهي مشرفة على دجلة. والمستشفى العسكري في جهة، بحيث يبدو المشروع برمته وفق تصميم ذكي.

نجد الكلك في المكان والموعد المتفق ونزلاؤه، وهم إثنان أو ثلاثة من الأوروبيين

(١٧٧) إن صبغة الحنّاء ذات مظهر ولون شرقيين، فالنساء يصبغن الأيدي ويرسمن أشكالاً على الوجه والجسم. والرجال يصبغون الشعر واللحية والأظافر. والحيوانات نفسها تصبغ بهذه الصبغة التي كثيراً ما تكون ألوانها الحمراء جميلة (الرحالة).

المتشردّين الذين لانتمكّن من التعرّف على جنسيتهم بوضوح، وهم يحاولون هنا مواصلة حياتهم المشوشة.



شارع بغدادي

لا يوجد سوى ثلاثة فرنسيين في بغداد، أحدهم هو مسيو موجيل (M. Mougel) مهندس مناجم متميز، وموظف لدى الحكومة التركية. والثاني يدير معمل الرايات العسكرية، والثالث قبطان بارجة سابق.

٢٥ تشرين الأول (أكتوبر)

معنويات فندق أوروبا بحاجة الى المزيد من إهتمام، لا ريب في ذلك. فقد لعبوا طوال الليل. وفي الساعة السادسة، إذ خرجت من غرفتنا، لمحت من خلال أغطية شباك مشرف على الشرفة ستة أنفار، يضيئهم مصباح مدخن، جاثمين حول سجادة خضراء. ومضيفنا بين اللاعبين. إنه من جنسية يونانية.

نمضي صباحاً لزيارة الآباء الكرمليين الساكنين في بغداد منذ زمن طويل، بعد أن خلفوا الكبوشيين الإيطاليين[١٧٨]. يحدّثنا هؤلاء الآباء عن كل الصعوبات التي حصلت لهم إبّان تشييد الكنيسة، لاسيما لدى محاولتهم وضع ناقوس في منارتها، كما يقول المسلمون حين يتحدثون عن برج الأجراس.

لدى خروجنا من عند الكرمليين، ندخل الى كنيستهم حيث كان يقام القداس. ليس فيها كراسٍ ماعدا في مؤخرة الكورس (الجوق). أما القسم الأكبر، حتى مصطبة

(١٧٨) منذ تأسيس أسقفية بابل اللاتينية في بغداد، سنة ١٦٤٨، أستقر بعض المرسلين من رهبان كبوشيين وكرمليين فيها. ويعزى وجود الكرمليين في بغداد الى الراهب عمانوئيل وللقديس ألبير الذي عمل في بلاد ما بين النهرين منذ سنة ١٧٢٨ وحتى ١٧٧٣، وكان قد سبقه الكرملي يوسف ماري ليسوع سنة ١٧٢١. وكان عدد الكرمليين في بغداد أربعة سنة ١٨٨٥ (أنظر: الكرمل، تأليف الأب ألبير أبونا، بغداد ١٩٧٨)

المذبح، فمفروش بالحصران، يأتي المؤمنون فيركعون فوقها، الرجال الى اليمين والنساء الى اليسار. ويجلس هؤلاء منعزلات، ومنظرهن جميل، فأنت تَراهُنّ بأغطية الرأس الزاهية الألوان تزيدها أشعة الشمس لمعانا إذ تنفذ من خلال الشبابيك.

من جملة الكرمليين الذي سكنوا بغداد من هم ذو منزلة، بحيث أنهم حين قدموا الى پاريس كانوا يعظون بكل جدارة. يحكى بأن أحدهم، إذ كان يتحدث في كنيسة سيدة الإنتصار (في پاريس)، فاه بعظة متميزة حول بلبلة الألسنة والديانات لدى الشعوب المجاورة لبرج بابل، بحيث أن أهالي الخورنة قدّموا له تمثالاً لمريم العذراء. ونذر الأب المحترم أن يحمل هو بنفسه هذا التمثال حتى قمة الهضبة التي يرون فيها قاعدة برج بابل. فلما رجع الى بغداد، أكمل نذره بجهد كبير ودون خلّو من أخطار جسيمة.

بعد بضع سنوات، جاء أهالي البلد معلنين لقنصل فرنسا إنهم قد إكتشفوا قطعة عجيبة فوق هضبة بابل، فوعدهم القنصل بمكافأة لمن يحمل إليه تلك القطعة، فحملوا إليه التمثال الذي نعرف تاريخه، فإستدعى الى العشاء الأب الذي كان مايزال يسكن في بغداد، واعداً إياه بأنه سيريه بعد الطعام قطعة ذات نفع ديني وجدت في برج بابل، ما عتم أن عرف فيها المسكين تمثاله، إنما بسبب عدم قدرته وأستعداده، لم يتمكّن من إيصالها الى موضعها.

لن ألحّ في وصف بغداد، فقد قام بذلك بشكل كامل مسيو دي ريفوار سنة ١٨٨٤ وقد نشر في هذا العام عينه تقرير في (حول العالم) بقلم مدام ديلافوا التي زارت هذه المدينة قبل سنتين[١٧٩]. وقد كان من حظ مدام ديلا فوا أن تكون فيها أثناء قنصلية بيريتييه الذي كان يسكن في بغداد مع إمرأته وبناته، وبواسطتهم كان لها أن تعرف كل المعلومات والأخبار المطلوبة. لذا سأكتفي بتقديم جولاتي في بغداد، بإيجاز.

بغداد هي المركز الأكبر لتموين القوافل، ورأس خط الزوارق البخارية التي تمخر في دجلة. جعلتها تركيا عاصمتها ثانية، فلها حكومة عسكرية لاتراجع سوى وزير الحربية.

(١٧٩) وردت هذه الأسماء هكذا: M. de Rivoire (Rivoyre), Les vrais Arabes et Ieur pays; Tour du monde: Mme Dieulafoy.

وبغداد لاتشبه القسطنطينية مركزاً، ومساحة، ومدنية فهي واحة كبيرة، وغابة عجيبة من النخيل الذي ينمو وسط الصحراء وعلى ضفاف دجلة. تحيط بها الرمال من جميع الجهات مسافة أيام من السير، فالصحراء في الشمال الغربي، وفي الجنوب أهوار شط العرب، وفي الشرق جبال كُردستان على بعد مسافة طويلة.

بعد أن إجتزنا أسوار التراب التي تحيط ببساتين النخيل والرمان والأشجار المثمرة الأخرى، خرجنا من التحصينات من باب صغير تحرسه سيطرة بضعة جنود. إستدرنا الى اليسار، محاذين الأسوار من الخارج، التي هي في حال لاتصلح للدفاع. فالأسوار الترابية والمشيّدة بالطابوق غائرة في الخنادق التي قد إمتلأت تقريباً، غير أن ما تبقّى منها يعطينا فكرة عالية عما كانت عليه المدينة من أهمية في غابر مجدها. الزوايا الرئيسة للأسوار مشيدّة بأبراج مرتفعة، تحمل معظمها أشرطة نقوش تبرز فيها بوضوح آيات قرآنية. وثمّة مساحة كبيرة فارغة، كأنها ساحة كبيرة للأسلحة أمام هذا الجزء من الأسوار، وهنا وهناك نخلتان أو ثلاث تحتضن مسجداً أو مرقداً. أما المقابر فخارج المدينة، ومررنا بمقبرة ضخمة وفسيحة ونحن خارجون.

نصل أمام باب الطلسم الشهير الذي منه دخل مراد الرابع منتصراً، الى بغداد[١٨٠]. إنه باب مبني، فثمّة عادة تقضي ببناء الباب الذي منه يدخل سلطان منتصر الى مدينة محصنة.

نلمح في المدينة، على بعد، القبة المسطحة لمرقد عبدالقادر التي شيدها مراد الرابع بعد إستيلائه على بغداد[١٨١]. وأبعد منها، جامع الشيخ عمر[١٨٢]، وجامع الأميرة زبيدة[١٨٣]، المرأة المفضلة من قبل الخليفة هارون الرشيد، والتي كان لها التأثير الكبير على هذا الخليفة المقتدر.

(١٨٠) يكتبه بنديه هكذا: Talim ويقصد به باب الطلسم. وأشهر أبواب بغداد: الأبواب الأربعة: البصرة، الكوفة، خراسان، الشام، ثم الباب الأبيض، الباب المظلم، باب الأعظم. أما مراد الرابع (١٦٢٢-١٦٤٠) فقد إعتلى العرش والبلاد في فوضى من جراء إنهماك أسلافه في أمور خاصة، فأصبحت بغداد تحت السيطرة الصفوية، وفشل خسرو شاه في إسترجاعها، فجهز مراد الرابع حملة أولى ثم ثانية، حتى نجح قي إسترجاعها عام ١٦٣٨.

(١٨١) قبة مرقد الشيخ عبدالقادر (الكيلاني)، شيدها مراد الرابع.

(١٨٢) جامع الشيخ عمر.

(١٨٣) جامع الست زبيدة.

إذ نسير بإمتداد التحصينات، نجتاز حي ثكنات الفروسية الرحبة، حتى نعود من باب الشمال. نحاول أن نزور الجوامع، أو رؤية المداخل على الأقل، إذ يستحيل الدخول الى الداخل، فنمر على التوالي أمام جامع عبدالقادر، وجامع عبدالرحمن وجامع الشيخ يوسف[١٨٤]. جميعها مشيدّ بالطابوق، ومكسوّة بمربعات من الخزف الأزرق، والأسود، والأصفر، والأبيض، مشكلّة هكذا رسوماً لطيفة جداً في أغلب الأحيان، بحيث تعطي هذه الرسوم مظهراً شفافاً وجميلاً للمنائر.

٢٦ تشرين الأول (أكتوبر)

نعزف عن زيارة (بابل)، إذ ينبغي إعداد قافلة (كروان) خاصة، والوقت الذي نستغرقه لذلك سيرغمنا على أن نضحي بجزء من رحلتنا الى كُردستان.

نتجوّل في الأسواق. إنهم يطالبوننا بأسعار مرتفعة جداً، بحيث إننا نكتفي بمشاهدة ما نرغب فيه، ثم نبعث بشخص ثالث لكي يشتريه. إذ كنت أتعامل في الموصل مع يهودي بشأن ثوب موشّى، كان جوابه للمترجم: «أنا أعرف جيداً بأنه لايسوى المبلغ الذي أطلبه، لكن، بما أن هؤلاء السادة يهوون البضاعة، فإني أضاعف الثمن!»

إذ أعود الى الفندق، أرى صاحبه مغضباً. هذا الصبح، إذ دخلت غرفتي لكي آخذ غرضاً نسيته، وجدت خادمين يعبثان بأمتعتي، فأبعدتهما ركلا. لقد شكياني الى سيّدهما قائلين إني ضربتهما دونما مبرر. ولحسن حظنا، يأتي السيد خوري في اللحظة التي ندخل فيها الى الفندق، وبوسعه أن يشرح الحقيقة. لقد كان علينا بعد ذلك أن نعطف على هذين المسكينين، وأن نتشفع لهما.

علينا أن نتعشّى هذا المساء لدى السيد أصفر صرّافنا. لذا خصصنا فترة بعد الظهر لزيارة الكاظمية ومرقد الأمام موسى.

(١٨٤) ورد ذكر جامع عبدالقادر الكيلاني، وجامع عبدالرحمن، وجامع الشيخ يوسف (الحسن). بشأن بغداد وخططها، أنظر: خطط بغداد وأنهار العراق القديمة لمكسمليان شتريك، ترجمة د. خالد إسماعيل علي؛ وخطط بغداد في القرن الخامس الهجري للدكتور جورج مقدسي وترجمة د. صالح أحمد العلي؛ وبغداد مدينة المنصور المدورة لطاهر مظفر العميد، وبغداد مدينة السلام، الجانب الغربي، مجلدان، تأليف د. صالح أحمد العلي والخ.

بعد الغداء، وبرفقة نانو، نعبر النهر على جسر قوارب. وبعد بضع خطوات، وسط أزقّة قذرة في الضفة اليمنى، نصل الى ساحة صغيرة حيث يوجد ترامواي[١٨٥]. العربة الحقيرة تشبه العربات القديمة المهملة عبر الطرق، بعد إستهلاكها، يستخدمها بعض المتسكعّين كمأوى. الأبواب وزجاج الشبابيك غير موجود، وبعض الشبابيك تترك أشعّة الشمس تدخل من خلال العارضات المكسورة، واللوالب شبه محطّمة.

كل نصف ساعة، حصانان مربوطان يقودهما حوذي لايجيد السوق. يحاول السائق أن يعطينا عملة مزيفة. الخط يسير بعض الوقت في شارع مزدحم جداً، ثم بإمتداد جدران حيطان طين تحيط بالبساتين، فنترك بغداد.

ندخل سهلاً محرقاً، وقبل بلوغنا الصحراء التي تمتد غرباً بما لايحدّها النظر، يرجونا السائق مرتين أن ننزل، لأن السكة قد تكسرّت بمسافة عشرة أمتار، وغارت العربة في بالوعة بحيث أن محورها راح يسير على الأرض. منذ ستة أشهر والخط على هذه الحال، أي منذ حدوث عاصفة في شهر أيار الماضي. وإدارة المشروع تجد راحة أكبر في الرجاء الى المسافرين أن يترجّلوا في الأماكن الصعبة، من القيام بالتصليحات اللازمة. وفي نقطة أبعد من ذلك نجد الخط قد غار في الأرض، فيقوم فريق من الرجال بسند العربة ومنعها من السقوط. طول الخط أربعة كيلومترات، وتقطع العربة هذه المسافة بخمسة وعشرين دقيقة، رغم هذين التوقّفين، لأن الحوذي، طيلة المدة الأخرى، يضرب الجياد بالسياط دونماً إهتمام بما تسببه من ضوضاء.

قبل الوصول الى الكاظمية بقليل، نتبع ضفاف دجلة، ونعبر غابة نخيل عجيبة، حيث عدة خنزيرات خشبية ذات صرير جهنمي، تجرّها ثيران وجياد.

نصل مدخل الضاحية، فيتوقف الترامواي. نغادره لكي نتوجه الى مرقد الجامع المقدس، الإمام موسى الذي يقال إنه مدفون في الكاظمية، هو الإمام الأول الذي يقرّه الشيعية. أما الإثنا عشر السابقون فيقرّهم السنيون. إنه مكان حج يحترمه الفرس، وهم من يؤلفون معظم القرية، إضافة الى بعض اليهود. ولايوجد فارسي واحد يقصد كربلاء دون أن يأتي لتقديم الإكرام في الكاظمية.

(١٨٥) مايزال المقدمون في السنّ يتذكرون (ترامواي) الكاظم. وصف بنديه دقيق، إنما فيه من السخرية ورثاء الحال الشيء الكثير.

الجامع موضع إحترام كبير، بالنسبة للشيعة. ونظرة الأوروبي وحدها كافية لكي تدنّسه[١٨٦]. كنا قد وصلنا القبة، مندهشين حيال هذا البناء. إذ إقتربنا من المدخل، بدأنا نسمع كلمات غير مستحبّة، وكان من السهل أن نعرف بإنها موجهة إلينا. وإزداد اللغط بعد بضع لحظات، وأحاطوا بنا، فبحثت عن نانو. لقد نجا بنفسه، عارفاً الى أيّ حد بوسع التعصّب أن يبلغ. لذا إبتعدنا، متجنبيّن بصعوبة مضايقات الجمهور.

الجامع زاهٍ، وهو مكسوّ بالخزف ذي الأشكال الملوّنة بالأزرق والأسود والأبيض والوردي، على شكل الورود، ومزيّن بقباب ومنائر مذهبّة. والمبنى مربّعة، في نهاية فناء تحيطه أروقة، وتختلط جدران رباط الفناء ونهاياتها بجدران المبنى. الأرضية مرتفعة بفضل قبّتين ذهبيتين ضخمتين على شكل الفطر. في الزوايا الأربع، أربع منائر، أعلاها مذهّب، ومجمل البناء جميل وغني، والتنوّع الذي فيه دقيق ولطيف. لقد أوحى إليّ بمعالم الهند الجميلة.

حين نصل الى الترامواي نلقاه قد رحل. بعد ساعة أخرى يغادر التالي من الكاظمية. وبما أن ثمّة مؤجرّي حمير قرب المحطة، فإننا نستأجر ثلاثة حمير تقلّنا الى بغداد. نستغرق ثلاثة أرباع الساعة. لم نكن تعساء فوق تلك السرج العريضة ذات السجاد ومن دون ما ركب، بحيث تتدلّى الأرجل. تركنا الحمير حال وصولنا الى مدخل الضاحية، وقد كان حراس الحيوانات يتبعوننا راكضين بشجاعة. إستقلّينا قفّة لكي نعبر بها النهر، وأمخرنا حتى الساحل القريب من فندقنا.

بعد تغسيل سريع، إذ ليس لنا ثياب كثيرة، مضينا لدى (أصفر). إبنه فقط يتكلم الفرنسية. وكان مضيفنا قد دعا أيضاً مسيو لازار، وهو طبيب نمساوي يعرف لغتنا قليلاً. أراد أن يكون العشاء أوروبيا، وكانت الصحون تتعاقب بلا عدّ، يصاحبها ما يشبه البوردو، وما يشبه الشمبانيا، والبيرة. في إحدى اللحظات إنتابتنا كل هموم الدنيا، وكان علينا، أنا وهاملن، إن نحافظ على إتزاننا، فقد بقي من كأسي قليل من البيرة، وسكب الخادم سهواً قليلاً من الخمر، وإذ رأى أنه أخطأ

(١٨٦) مبالغة أخرى عوّدنا عليها الرحالة في مذكراته، فيها شيء من الصحة بشأن عدم السماح لغير المسلم زيارة الجامع في السنوات الماضية.

القنينة، أفرغ محتوى ما في كأسي في قنينة الخمر، وبعد لحظات صبّ من هذه الخمرة للمدعوين[١٨٧]. كانت بداية العشاء بشوربة خاصة، أعقبها صحن لحم مسلوق، ثم ثلاثة (صحون لحم) مقلي، الواحد دجاج، والثاني حجل، والثالث دراج، ثم الأضلاع، والسردين. وكفاكهة تناول كلّ منا صحناً كبيراً من الكريم الأبيض المحلّي، له طعم الطحين، كان موضوعاً أمامنا منذ بداية الطعام، ثم الفواكه، إنما من دون تمور، فإنها أنواع إعتيادية، مع إننا كنا نأمل أن نأكل أنواعاً شهية. لقد كانت الفواكه المقدمة: البطّيخ، الرقّي، الخيار، الرّمان، وبضع تفاحات. وبعد هذه الوليمة الحافلة، مضينا الى الديوان، حيث قدمت لنا القهوة بالفناجين.

يحكي لنا السيد أصفر إنه قد خدع بالشهير مسيو دوفورنو[١٨٨] الذي إستغلّ العديد من الأوروبيين من آسيا الصغرى وفارس. لقد أقرضه مبلغاً من المال، وذلك بتوصية من القنصل الذي كان قد إستضافه.

٢٧ تشرين الأول (أكتوبر)

نمضي الى البريد صباحاً، لأننا مستغربون من عدم إستلامنا جواباً على البرقيات التي أرسلناها منذ أربعة أيام. ثمّة طريقتان لإرسال الرسائل الى أوروبا: البريد التركي والبريد الإنكليزي. الأول والثاني يسلكان طريق الصحراء، فيمضيان حتى (هيت) على الفرات، ثم يعبران الصحراء على جمل سباق، فيصلان الشام خلال إثني عشر يوماً. هذان البريدان هما الأسرع، كلاهما يحملان أخباراً جديدة نسبياً، إلا أن الطريق التي يسلكانها خطرة، لذا لايحمل البريد كل ما له قيمة، إذ أنّ الحدّ من القرصنة محاولة شبه مستحيلة، والحكومة لم تدبّر أي شيء لحماية مؤسسة أوروبية، لذا فمع كيس البرقيات والرسائل، يحمل الحيوان لوازم ساعي البريد ولوازم الحيوان نفسه، أي أكياس طحين كبيرة يلتهمها ثم يجترّها وهو سائر.

وثمه بريد آخر ينطلق من بغداد، ويصعد الى الموصل، ثم عبر دياربكر وموش حتى يبلغ أرضروم وطرابزون. إنه البريد الداخلي والمحلي.

(١٨٧) أنّى لآداب المائدة الفرنسية أن تتقبل ذلك؟ إذ لكل أكلة شرابها الخاص، ولكل شراب كأسه، ووقته، ودرجة حرارته... وبنديه يعطي أهمية كبيرة للطعام.

(١٨٨) Defournoux.

وهناك طريقة رابعة، بواسطة الزوارق الإنكليزية. إنها الأشد أماناً بالنسبة لما له قيمة، إلا أن الضريبة هي ضعف الطريقة التركية، فإن هذه الأخيرة قد قبلت بتسعيرة المعاهدات البريدية.

بعد الغداء، ورغم تهديدات الطقس، نتجوّل مرة أخرى في المدينة والأسواق. ونمضي لزيارة قنصل فارس الذي قد سكن مدة طويلة في باريس. مسيو موجيل، المهندس الفرنسي، غير موجود في بغداد. إننا نأسف لذلك. مقابل ذلك، يطيب لنا أن نلتقي بمسيو أبيرهيدت[189]، قنصل روسيا. إنه في ديوانه مع أحد الأطباء ومع القائم بالشؤون المحلية. ينصحنا أن نحترس في المراحل الأولى لدى مغادرتنا بغداد، فإن قبائل شمّر والحمويين المتجوّلين بإستمرار، يهاجمون القوافل. لذا ينبغي إتخاذ أشدّ الإحتياطات لدى السفر في البلاد. وإن رؤساء العصابات يسكنون في المدن الحدودية: خانقين، قصر شيرين، وهم مستعدون للعبور من فارس الى تركيا لدى أول تحذير. إن أخ القائم بالأعمال المحلية، بعد أن تجوّل في البلاد التي تكثر فيها هذه القبائل: كرمنشاه، والسليمانية، وكركوك، تعرف على أحد رؤسائها، ورغم ذلك لم تخفّ الأخطار التي كان مقبلاً عليها، فأعطاه هذا الزعيم غلاماً إبن أربعة عشر عاماً، حمّله كلمة سرّ. لم يكن الغلام يسير في الطريق، إنما كان يتسلّق الأطراف العليا، فلم تحصل أية مشكلة للقافلة. وينصحنا هؤلاء السادة في حالة الهجوم أن نطلق العيارات، فتنجو العصابة بنفسها، إلا إذا كان أفرادها كثيرين.

إذ نودع مسيو أبيرهيدت، يسألنا في أية ساعة يسعده أن يلقانا في القنصلية، ويعجب كثيراً إذ يعلم بإننا نسكن في فندق أوروپا، لا في القنصلية، إذ لا شيء أشدّ إزعاجاً لأهالي البلد من أن يكون هناك دعم من قبل ممثل الحكومة، لأنهم سينساقون وراء الظنون، وسيشكّون في نزاهتنا.

مساء، لا شيء نقوم به في بغداد، لذا فإننا نتجاذب أطراف الحديث، وندخّن.

٢٨ تشرين الأول (أكتوبر)

أستيقضنا هذه الليلة بفزع بسبب ضوضاء مروّعة. أحد الجرذان التي تكثر في

(١٨٩) Eberhadt.

الفندق، كما في سائر بيوت بغداد، أمسكته مصيدة موضوعة فوق إناء، فأسقط الحيوان الإناء وهو في غمرة العذاب، فكانت الجلبة الثانية أشدّ من الأولى. ندخّن قليلاً ونحن في حالة إضطراب.

نقضي الصباح مع عامل يصنع لنا صناديق لتغليف أغراض مجاميع تمكّنا من الحصول عليها أثناء الطريق. أمضي فأسأل السيد أصفر، الذي يقوم غالباً بتدبير أمر هذه الطرود بالنسبة للمكوس، ثم إرسالها، لأن هذه الطرود تضمّ أغراض مجاميع مهّمة، وسوف أنزعج جداً إذا لم أرها تصل الى فرنسا. عليه تكليف أحد عملائه لكي يقدّم لنا جميع آنية الخمر الضرورية. ويقوم السيد أصفر بهذه الخدمة، إنما بشكل غير محمود. فرغم كونه مسيحياً، يظل تركياً لايريد خدمة أي أوروپي[190]. نبعث بالصناديق إليه[191].

أما الصناديق التي كانت تحتوي على الجماجم المأخوذة من وادي الزاب الكبير، وعلى كتابات النمرود، فإليكم ما حصل لها:

منذ غداة وصولي الى بغداد، مضيت الى المكوس (الكمارك) والصناديق معي. فأكدّ لي الموظف الأول، بفضل إكرامية، إنها ستمرّ دون أن يطّلع عليها أحد. غير أن رئيسه، وقد علم بسخائي، أوقف الصناديق، وحاول أن يحصل على فائدة ما. تجاوباً مع وعده الرسمي بأن الصناديق ستكون غداً على ظهر القوارب، نفحته هدية. لكن الموظف جاءني في الغد، ودون أن يمكنني من فكّ كلماته الغامضة، قائلاً: إن الحكومة قد صادرت الصناديق، وطالبت بفتحها. وكانت أقواله المشحونة بالتراجع تفيد إنه بوسعي رؤيتها، بفضل إكرامية أخرى. فوعدته بمكافأة إن أنا وجدتها، ولكني لن أعطيها إياه إلا بعد أن تكون الصناديق على ظهر القارب.

في الغداة، كما في الأيام التي تليها، أضيع ساعات في الگمرك، وجهلي للغة يسبّب لي حرجاً كبيراً.

(١٩٠) تعبير آخر يوحي بالتعصب والتعالي اللذين كان عليهما بنديه.

(١٩١) لقد وصلت هذه الصناديق الى فرنسا بعد ستة أشهر، منهوبة ومسلوبة بشكل مخجل، فقد أنتزعت منها أغراض ذات قيمة، وأقمشة موشاة، وزمرد، ومجوهرات، وقطع من العنبر (الرحالة).

يوم سفري، جاءني موظف الگمرك الذي كنت قد وعدته بمكافأة جيدة حين تصبح صناديقي في النهر، مبشراً إياي بأن الصناديق هي على الرصيف، جاهزة للتحميل. فذهبت للتأكد من الأمر. إنها صناديقي حقاً. وكنت على إستعداد لكي أمنح المكافأة، حين راودتني فكرة الأمر بفتحها. وقد رأيت ساعتها أن الرجل يحاول الإفلات، إلا أنني أمسكته من كتفه، فارتجف كورقة، وشاهدت بأن جماجمي وحجارتي وكل القضايا الأخرى المثيرة قد أستبدلت بقطع جبسية. لولا أن هاملن أسرع فأمسكني، لكنت قتلت السارق.

ولم يكن في اليد من حيلة، فإن أية مطالبة بوسعها أن تجلب لي مشاكل جديدة ومفاجآت جديدة، دون أي أمل في النجاح. وقد سبق القنصل وقال لنا أن لانعتمد عليه، فكان من الأولى الإستسلام: «لقد أراد الله ذلك –قال هاملن– فلا نحاول أن نتعارك!».

بينما يعني نانو بإعداد قافلتنا، نستقبل نحن قنصل روسيا وترجمانه. لقد كان الأخير مندوباً في خدمة شاه فارس إبّان إقامته في بغداد، مكلّفاً خاصة ببريده التلغرافي. وحين همّ بمغادرة بغداد، قدّم له قائمة حساب البريد، فرفض الشاه دفعها. وبعد إلحاحات مكررة، علّق بأن الصناديق التي كانت قد سارت قبله، يجب أن ترافق حتى الحدود، وهناك يدفع الحساب. فوضع المندوب منعاً على الأمتعة، بينما كان الشاه يلحّ على الدفع داخل أراضيه. «إنه لمن المستحيل، يا صاحب الجلالة، النزول عند رغبتكم. فأنتم إن رفضتم الدفع إلاّ في الجهة الثانية من الحدود، لن يكون لي أية وسيلة لإرغامكم على ذلك». فأجاب الشاه: «هوذا شيك على حساب طهران». أجاب المندوب: «لا أتمكن من قبوله»، أخيراً، رضي الشاه أن يعطيه شيكاً على حساب بغداد. وحين قدّم الشيك للبائع الفارسي الذي كان معنوناً بإسمه، لم يشأ أن يدفع، قائلاً: «لقد قدمت الكثير من المال للشاه حتى الآن، وقد أتعبني أمر الدفع بإستمرار، وأنا غير مطلوب له بشيء».

وشكا الترجمان البائع لدى الوالي، فأمر بجلب البائع الذي كان يرفض دفع المبلغ. وهذا بعد تأمل طويل، جاء في الغداة حاملاً الثلاثمائة ليرة تركية، مفضّلاً خسارة هذا المبلغ عن الإصابة بنقمة، فإن للملك، كما يبدو، عادة إستغلال العناصر الغنيّة



خيم أعراب قرب بغداد

التي في الخارج، فإنهم إن لم يقوموا بالخدمة المطلوبة، لن يتجاسروا فيما بعد على العودة (الى البلاد) خشية الإغتيال، وهو شرف أن يستقبلهم الشاه حين يقصدون البلد، ولايسمح بزيارته إلا للذين يقدّمون له كيساً جيداً من الفضة.

٢٩ تشرين الأول (أكتوبر)

كنا نؤمل أن نسافر اليوم. غير أن صاحب البغال الذي كان يبدو بأنه متفق وإياهم على كل شيء، أخذوا في اللحظات الأخيرة يثيرون صعوبات فوق صعوبات. فهم يحتاجون قبل كل شيء الى حصان آخر، على نفقتنا، لحمل رحال من سوف يحملون سرجنا، وهم لايستطيعون أن يحملوا شيئاً لدى عودتهم، فأسامحهم في هذا الأمر. ويسألون ليرة أكثر من المتفقّ عليه، تدفع مسبقاً، ثم يطالبون بليرتين، فأقبل بذلك أيضاً. ولكنهم يطالبون أخيراً بزيادة سعر كل حصان. لقد كان المتفق عليه ثلاثين قران، فطالبوا بثلاثين بيشليك[١٩٢]، وهو فرق يساوي زيادة ثلاثة وثلاثين بالمائة. لذا فإني أبتر المساومة هذه المرة، وآخذ المال المدفوع مسبقاً، وأرسل نانو بغاية السرعة الى السوق في محاولة لإيجاد أصحاب بغال آخرين، قبل أن يكون هؤلاء قد أوصلوا الخبر الى رفاقهم بإستياء.

(١٩٢) القران عملة فارسية، كان يساوي أيام بنديه (٠,٨٠) من الفرنك الفرنسي، أما (البيشليك) فعملة تركية أكبر قيمة من القران. أنظر ذيل الكتاب.

نتغدّى أثناء ذلك، حتى يأتينا نانو بجواب حسن. فأرسله لدى الوالي طالباً شرطة يرافقوننا حتى الحدود. لايعود إلا بعد ساعتين. والوالي يرفض إعطاءنا الجنود بقوله:

«الطريق خطرة، لأنها مشحونة بالعصابات. والحمويون في إنتفاضة. ومرافقة هؤلاء السادة ستجعلني أنا المسؤول عن أمنهم، فليسلكوا طريقاً أخرى». أي طريق؟

ليس بوسعنا أن نمرّ عبر البصرة، وبوشهر وشيراز، لأنها خارج مسار رحلتنا بكثير. لذا نقرر أن نعمل برأينا. بما أن الوالي لايريد أن يعطينا جنوداً، سنسافر وحدنا، وفي طريق التي قد عزمنا على أن نسلكها. ومن الممكن أن ما يقوله الوالي كذب، إذ لعلّه يريد مضاددتنا وتعويق مشاريعنا. ولايلزمنا سوى أيام ثلاثة للوصول الى الحدود الفارسية، ثم نكون في مأمن، إذ نكون قد تركنا تركيا أخيراً، فهي ألف مرة أكثر تعاسة، وأخطاء، وفساداً من فارس(١٩٣).

نمضي لرؤية السيد خوري، ترجمان القنصلية، ونحكي له همومنا ونعلمه بقرارنا. يوافقنا مبدئياً بأن علينا أن لانتأثر بكل ما يقال لنا. خلال الزيارة، يرينا مجموعة بديعة من الرماح، والأتراس، والأسلحة المختلفة المصنوعة في زنزيبار، ويأسف لمكانه السابق. إذ نعود الى الفندق، يبدو كل شيء معداً للسفر. نصفّي حسابنا مع صاحب الفندق ديمتري فيروز(١٩٤).

وخلاصة الأمر، بيته غير محترم وغير مريح، لكنه رجل طيبّ، إستقبلنا بشكل جيد.

يأتي السيد خوري، من باب الصداقة، لزيارتنا، بعد العشاء. الأمتعة كلها مهيأة. نرقد منتظرين ساعة الرحيل.

(١٩٣) مبالغة أخرى من مبالغات بنديه.

(١٩٤) Dimitri Firos صاحب فندق أوروبا Hôtel d`Europe أنظر الهامش (١٧٥*).

من بغداد الى كرمنشاه*

من ٣٠ تشرين الأول (أكتوبر) الى ٥تشرين الثاني (نوفمبر)

الرحيل عن بغداد. الصحراء. السراب. خان بني سعد. ديالى. بعقوبة. المقاهي والخانات. السفر من بعقوبة. شيراباد. نانو يعود الى بغداد. عائلة فارسية في سفر. السفر في الساعة الواحدة ليلاً. السير ليلا. قزلربات. أحاديث تركية. القائمقام. فزع خاطيء. خانقين. ضفاف النهر. الدكتور سآب. الحدود الفارسية. قوافل الموتى. قصر شيرين. أسطورة شيرين وفرهاد. شيرينبول. أكراد. قوافل كبيرة. أبواب زاگروس. كيرند. هارون آباد. مسيرة تشاد زيفار. ماهيدشت.

كنت قد رجوت (نانو) أن يكون موجوداً في الفندق نحو الساعة الثالثة صباحاً، إذ علينا أن نسافر في نفس الوقت صحبة قافلة أخرى. الساعة الخامسة والنصف، وهو لم يصل بعد. وأصحاب البغال جاهزون منذ وقت طويل. لذا أضطررت أن أبعث في طلبه. هوذا شخص آخر يحبّ الراحة، على ما يبدو، ويريد أن يسافر إنما بدون عجلة. ألم يكن قد شحن رأسه هذه الأيام لإقناعنا بالإستغناء عن يوفان الأمين، بحجّة إنه لن يتمكن من قطع الطريق؟ أظن بأن السبب الحقيقي رؤيته إياه شريفاً جداً، فكانت هذه النزاهة تزعجه.

نبدأ في الساعة السادسة فقط بتحميل الجياد، وهو أمر غير هيّن نسبة الى هذه الطريق الصعبة. نانو قد أثقل نفسه بالأمتعة بشكل غبي، يلزمه بغل حمولة له وحده، دون إحتساب لما يحمله بغله الخاص. لم يقبل بالركب الأوروپي الذي لنا، بل صنع له محملاً من فرش وركب فوقه. إني أتساءل كيف بوسعه أن يحافظ على هذا الحمل الضخم؟

تتحرك القافلة أخيراً، في الساعة السابعة. لقد كان من طيبة السيد خوري بأن يبعث إلينا قواصين من القنصلية لمرافقتنا وتسهيل حركتنا في الأسواق. نتبع طريق الأسواق العريض الذي كنا قد سلكناه لدى وصولنا. نمرّ أمام معسكر المشاة، ثم فناء ثكنة المدفعية، وبدلاً من أن نميل الى اليسار، بإتجاه النهر، نتخّذ طريقنا الى اليمين،

* الفصل الحادي عشر من الرحلة.

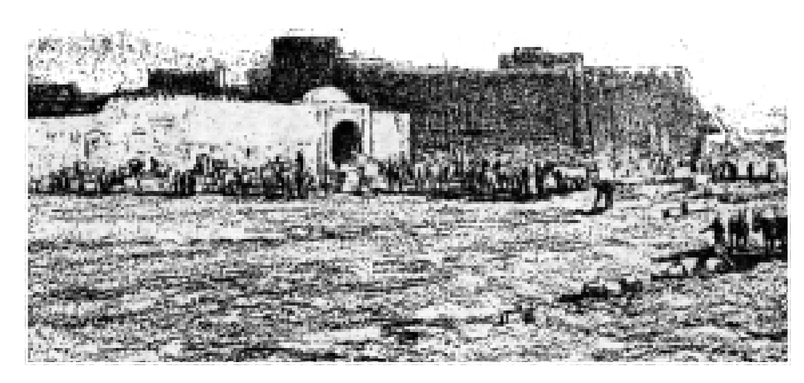
فالدرب أكثر عرضاً، ومحفوف بدكاكين الباعة، حتى نبلغ باب المدينة، يحرسه بضعة جنود. يتركنا القواصان، فندخل في الصحراء، ويمتدّ السهل الفسيح بما لايسع النظر أن يحدّه. ليس علينا سوى أن نتجّه بإستقامة، مقتفين أعمدة التلغراف التي تضيع صفوفها الجامدة في الأفق. بعد نحو ساعة، نلاحظ شرطياً يتبعنا. لاشك إنه مبعوث لكي يتجسس علينا، إذ يجب أن يكون الوالي مستاء جداً، لأننا لم نعر إهتماماً لنصائحه. لقد تجاوزناه ونحن نسافر في ولايته.

بعد ثلاث ساعات من المسير، وعلى بعد خمسة عشر أو ستة عشر كيلومتراً من بغداد، نصادف خاناً قديماً متهدّماً، يخيم فيه الرعاة، وغير بعيدة عنه قناة سقي يعمل فيها بعض الأعراب، عرضها متران، وعمقها نحو عشرين سنتمتراً، ويبدو إنها تتيه في الرمال يميناً وشمالاً. إنها الصحراء بكل جفافها. ونشاهد آثار السراب بنوع غريب جداً. فعلى بعد مائتي متر الى الأمام، تظن بأنك تشاهد بحيرة، بحراً وجزراً، وخلفنا، تبدو بغداد وكأنها وسط بحيرة. وتعطي المياه صورة معكوسة. بينما تستمر الطريق رملية، رتيبة. ومن حين لآخر سرب غربان تتشاجر وتتعارك حول الجيف وعظام الحيوانات الميتة في الطريق. نصل الساعة الواحدة بعد الظهر الى خان بني سعد(١٩٥). إنه خان كبير، كثيراً ما تقضي القوافل الليل فيه، فهو بمثابة طريق وسط بين بغداد وبعقوبة. بعض باعة الرقي، والشاي، والقهوة قد إستقرّوا حوله. وبما إننا شئنا الوصول الى بعقوبة في هذا المساء، لم نسترح سوى نصف ساعة فقط.

القافلة التي كنا نريد اللحاق بها هذا الصباح قد توقّفت هناك، وإتخذت إستعداداتها لقضاء الليل. إنها غفيرة العدد، إذ أنها مكوّنة من أكثر من مائة حصان (بغل). الأمتعة مجمعة في الوسط، والجياد مرتبّة حولها بشكل مربع، وجوهها الى الخارج، وأمامها كوم العلف وأكياس الشعير.

لعلّ أحدنا يتشكّى من بطء سرعة القوافل الكبيرة كواسطة للنقل. إن أصحاب القوافل بطيئون، غير متعجّلين، إلا أن مهمتهم قاسية ومضنية، إذ على رجل واحد أن يسهر على عشرة أو إثني عشر حصاناً، وأن يقودها. لقد شاهدت قوافل مكوّنة من أربعين جملاً يقودها ثلاثة رجال. وعلى هؤلاء الأفراد أن ينزلوا حمول جميع

(١٩٥) Khan Beni - Saad.



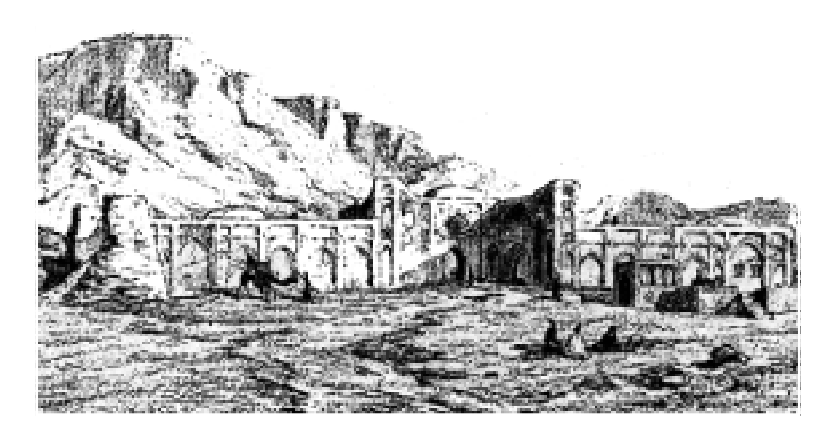
خان بني سعد

الحيوانات لدى وصولهم أول مرحلة، وأن يطعموها، ولايفكّروا بأنفسهم إلا آخر الكل. وطيلة النهار، تحت شمس محرقة تفوق درجة الخمسين، وسواء أمطرت الدنيا، أو أثلجت، أو إنجمدت، يسير هؤلاء المساكين بثيابهم عينها، ولا غذاء لهم سوى الرقّي والشاي. الطقس من أطيب ما يكون، رغم حرارته. نسير بإتجاه الشمال الشرقي، ونصادف ريح الشمال ترطّبنا وتطرد الغبار من جهة واحدة دون أن تزعج مؤخرة القافلة.

لا يسع المرء أن يتصّور كم بوسعه أن يخطأ في تقدير المسافات. فنحن منذ ساعة، أي منذ لحظة تركنا خان بني سعد، قد لاحظنا بعقوبة في البعيد، فتصورنا إنها على بعد ثلاث ساعات من المسير لا أكثر، غير إننا لم نصل مدخل القرية إلاّ في الساعة السابعة.

فالمسافة بين بغداد وبعقوبة يجب أن تكون من ستين الى خمسة وستين كيلومتراً على الأقل(١٩٦).

(١٩٦) Bakoubah مركز محافظة ديالى.
ويكتب الرحالة: «يقال إنها ثمانية فراسخ، إنما إن قدّر الفرسخ بأقل من ثمانية كيلومترات فالتقدير خاطيء، لأننا قد سرنا إحدى عشرة ساعة بخطوات ثابتة، وبجياد غير متعبة، وكان الطريق ممتازاً، مستقيماً، دونما صعود أو هبوط، ولم تكن درجة الحرارة مرتفعة بشكل مفرط، لذا فإن أقل معدل لسيرنا لم يكن بأقل من ستة كيلومترات في الساعة الواحدة»



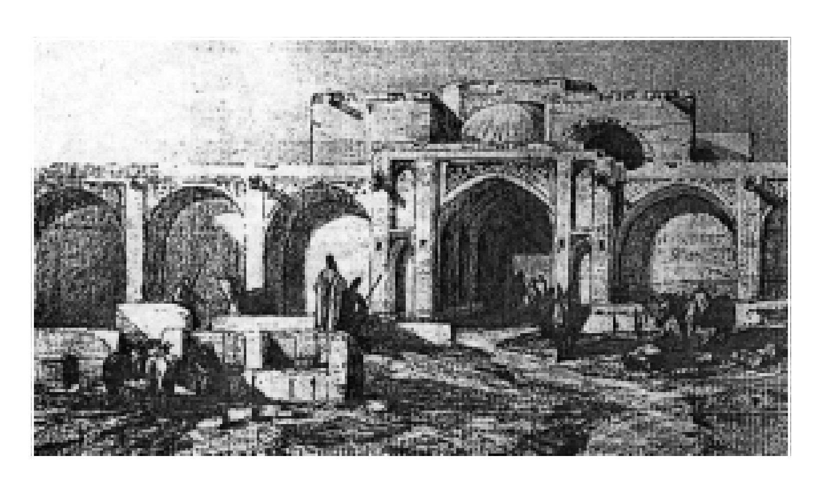
خان من الخارج

قبل الوصول الى بعقوبة، حاذينا فترة من الزمن (نهر) ديالى[١٩٧]، أحد روافد دجلة الذي يسقي واحة نخيل ورمان لها شهرة كبيرة. تمتدّ البساتين على الساحل المعاكس للضفة التي نسير عليها. وقد صادفنا أثناء النهار قوافل كبيرة مكوّنة من الحمير المحملة بثمار الواحة، تنقل الى بغداد.

بعد هذه المسيرة الطويلة في الرمال، يشعر المرء بالسعادة لدى رؤيته هذه المروج الخضراء. لايحتوي النهر في هذه الفترة من السنة على الكثير من الماء. والضفاف المرتفعة عمودياً، تحمل آثار إنهيارات، وهي مشقوقة بتصدّعات عميقة قد حفرتها في الأرض السيول الجارفة وذوبان الثلوج في الربيع. كاد الليل أن يسقط لدى وصولنا جسر قوارب ينبغي إستخدامه لعبور النهر. في الطرف الثاني، بيت صغير من الحجارة يجب أن نعبر أمامه لكي نستكمل الطريق. إنه بيت المكوس (الكمارك). الشخص الموظف الذي فيه يرفض ثلاث دفعات عملة نقود صالحة، ويحاول بدلاً من ذلك أن يردّ لنا قطعاً غير صالحة.

نتبع طريقاً محصوراً ضمن حيطان طين تحيط بالبساتين. القمر الذي يشعّ من خلال النخيل يعطي مسحة خاصة للمشهد. ونبلغ المدينة أخيراً، وندخل الأسواق على وقع

(١٩٧) Diyala.



خان من الداخل

الأجراس المتدلاة من الإثنين والثلاثين جواداً وبغلا. الأدلاء يتوزعون على سائر أطراف القافلة. تحدث ضوضاء لاتطاق، لكنهم يحبّون ذلك، بل يحسون بالنشوة وسط هذه الهمهمة الرتيبة.

الأسواق أضخم مما كنت أتصوّر، فلبعقوبة شأن لا بأس به. إنها مدينة أربعة أو خمسة آلاف من السكان. معظم الدكاكين مقفلة، غير أن ثمّة باعة الحبوب (الجرزات) والفواكه، تنيرهم شموع معروفة موضوعة في زجاج ملوّن أو مصابيح بدائية، يعرضون سلعهم على السابلة المتأخرين. نرى كذلك مقاهي واسعة مملوءة برواد يتمتعون بالأنس (الكيف) بكل هدوء، مدّخنين النرجيلة. إنهم مرتخون على دواوين حصران، متقاربون الى بعضهم بحيث يصعب المرور فيما بينهم، وثمّة مصابيح قليلة تضيء لهم. هذه الحشود البيضاء غير المتحركة، كاللعب، هي صامتة، أو تتحدث بصوت خافت وسط سحب الدخان. إنها صورة حقة للحياة الشرقية. كلهم ينظرون إلينا، إنما دون إزعاج، كالثيران في الريف تقف جامدة لتتطلع الى المارة النادرين[١٩٨]. بعض الأولاد يتبعوننا.

نتجوّل بعض الوقت في هذا الوسط الغريب، وندّق أبواب العديد من الخانات قبل

(١٩٨) راجع الهامش ٧٠

العثور على خان يمكنه أن يستقبلنا، فالأول ليس له مكان، والثاني لايضيّف مسيحيين[١٩٩].

أخيراً نكتشف خاناً نتمكّن من إستئجار مكان رحب ومريح في الطابق الأول (الأعلى) منه. إنها فسحة كبيرة مسيجة بسياج خشب، مشرفة على الطريق، ويمكن غلق الباب نوعاً ما، وفي أرضه بساط مقبول. الحارس طيّب، يساعدنا على إنزال حمول جيادنا وإيصال كل الأمتعة الى الأعلى، فثمّة خطورة عليها في الأسفل. ويمضي ليوقظ بائع قهوة (قهوجي) قريب، يأتينا حاملاً السماور[٢٠٠]، فيعد لنا الشاي، بينما يطهو يوفان دجاجة مع البطاطس للعشاء. لقد إستطاع أن يحصل عليها لقاء بضع رمانات. ويأتينا أحدهم، مرتدياً ملاءة ذات أزرار مذهبّة، فيطلب معلومات من قبل القائمقام، وذلك فيما يخص المسافرين الأوروبيين الذين رأوهما يمران في السوق. بعد إستلامه المعلومات، يحاول التدخّل في شؤوننا، لكني أبعده الى الباب، وأعني بتضميد هاملن الذي يتألم من رجله كثيراً، فالعقب منتفخ جداً، وبالكاد يتمكّن من السير. هل هي لدغة؟ أم هو جهد زائد؟ لقد جربّنا البارحة الدلك دون فائدة، لذا سنجرّب اللزقة.

يعود الشخص ذو الأزرار الذهبية قائلاً بأن القائمقام يريد رؤيتنا، نحن وجوازاتنا. أبعث إليه نانو، مخوّلاً إياه أن يقول له بأني لن أكلّف نفسي، لكنه يستطيع أن يأتي إن شاء أن يتحدّث إلينا.

نرقد بعد العشاء وسط الضوضاء الشديدة لآلاف الأجراس المعلّقة في أعناق الحيوانات المربوطة في الفناء.

٣١ تشرين الأول (أكتوبر)

علينا أن نقطع اليوم وغداً المرحلتين الأشدّ خطورة في طريق بغداد-كرمنشاه. إذ غالباً ما يمارس شمّر والحمويون القرصنة، بين بعقوبة والحدود التركية، ويسلبون المتأخرين عن القوافل. لقد أوصيت نانو جيداً، الذي كان ينام في إحدى غرف الطابق

(١٩٩) المقصود بذلك الأجانب، لا النصارى من أهالي البلاد.

Samovar (٢٠٠)

الأرضي مع يوفان، أن يوقظنا لكي نتمكّن من السفر في الوقت عينه مع التجار الفرس الذين كانوا يقضون ليلتهم في الطابق السفلي. ملفوفاً بالأغطية والملاءات والمخدات التي حملها لن يستيقظ أبداً.

ولا يوقظني أنا نفسي سوى الجلبة التي سببها التجار وهم يغادرون، فأنهض وأنزل مسرعاً، لكننا نحتاج الى أكثر من ساعة لكي نجهز القافلة. مايزال الظلام مخيماً، ولايكفينا القمر والنجوم رغم ما ترسل من أشعة لكي تنير لنا، لذا علينا أن نقوم بكل شيء ونحن نتلمس. وهاملن متألّم كثيراً بسبب رجله، بصعوبة يقدر أن يعني بنفسه وحدها. نترك الخان في الساعة الرابعة. نسافر وحدنا.

الليل رائع. كالأمس، نتبع حيطان الطين التي تحيط ببساتين بعقوبة، وذلك خلال ربع ساعة، إنما في الطرف الآخر من المدينة. ثم نلقانا في الصحراء. نقتفي خطوات القوافل السابقة. الصباح بارد. خلال بعض الوقت نسير ماسكين الأعنّة. ونحو الساعة العاشرة، بعد إجتياز أطلال كاراستيل[٢٠١]، نصادف القوافل الكبيرة محملّة بالطنافس وأكياس القطن وغيرها. ونشاهد في البعيد بعض الواحات، وتبدو الأرض مزروعة، ثمّة أشخاص يشتغلون في الحقول بالمحراث الخشن المتكوّن من كلاّب خشبي واحد.

نتبع قناة ذات أطراف مرتفعة الإنحدار، مغطّاة بالأعشاب والعوسج. السواقي عميقة يصل الماء بواسطتها الى الحقول، وهي تقطع الطريق بإستمرار مكوّنة مستنقعات وحلية. إن عبورها مغامرة حقة، وذلك بسبب خطر السقوط في الحفر، وهذا ما حصل فعلاً لواحد من جياد الأحمال.

نلمح شيراباد حيث سنتوقف هذا المساء[٢٠٢]. تسير الطريق بإنعطاف كبير، وتشكّل الأرض ودياناً طويلة غير بادية للعيان إلا قليلاً. الأعمدة التلغرافية لاتتبع الخط المستقيم، وبوسعي أن أعلل الأمر بسبب طبيعة الأرض، فإن مظهرها المائل الى السواد يحملني على الإفتراض بأنها تتحول في الربيع، بعد موسم الأمطار، الى أهوار خطرة. وفي البعيد سلسلة جبال حمرين التي تقطع دجلة قرب قلعة

Karastel (٢٠١)

Scherabad (٢٠٢)

شرقاط[٢٠٣]. هذا ما كان متوقعاً! نانو يسقط من فوق بغلته! فهو مستلق فوق أحد مطارحه، وفوق أكياس وأغطية بحيث لم يكن بوسعه المحافظة على توازنه إلا بجعل دابّته تزحف بدلاً من أن تسير. غير أن حيّة كبيرة خرجت فجأة من حزمة عوسج، أمام قدمي بغلته تقريباً، أرعبت الحيوان، فهرول مسرعاً، ونانو بأكياسه ورحاله ومطارحه تدحرج على الأرض، بينما كان أصحاب البغال يسرعون الى الحيوان الهائج، وأمضي أنا لمساعدة المسكين. لقد سقط سقطة مؤذية، وأصابته قبضة المسدس في جنبه، فقال إنه متألم جداً. لحقته بعض خدوش في الرأس، أمتطى دابّته ثانية، فواصلنا طريقنا. بعد أكثر من ساعة، تغدو الدنيا حارة جداً، ونودّ لو نصل.

نبلغ أخيراً شيراباد التي كانت في السابق محاطة ببساتين ساحرة قضت عليها موجات الجراد. الخانات مزدحمة، لأن جميع التجار الذين رحلوا قبلنا، حطّوا فيها، فلا نلقى مكاناً إلاّ في خان متوسط الحال حيث نحطّ الرحال. هاملن يتمدد منذ ساعة وصولنا. ونانو يبكي مثل طفل، إذ ليست له أية قابلية على المقاومة.

حولنا تجار يهود وعرب وأتراك وفرس. يبدو العديد منهم بحال موسرة. فهم يجلسون على طنافس جميلة، يدّخنون بالقلايين النفيسة، ويقضون الأنس (الكيف)، متطلعين إلينا بعين الرضى والرخاء. يتزين بعضهم بالخواتم الثمينة، لكنهم ليسوا متكبرين ولا مترفعين تجاه مرؤوسيهم والمساكين، بل يعاملون أناس الأسمال البالية والثروات بعين الإحترام الظاهري.

بجوارنا يهودي، قد صبغ لحيته وشعره وأجفانه بالحنّاء، بلون أحمر جميل، غير إن بعض الشعيرات الغبراء تبان في لحيته. إنه يسافر مع خادمه وإمرأته التي تمكّنت أخيراً من رؤيتها مع إنها إهتمت كثيراً في إخفاء نفسها. إنها شابة ووسيمة جداً، إذ أن سحنتها برونزية جميلة، وعينيها سوداوان مشعّتان، وأسنانها جميلة ومرصوفة جيداً، وهي ذات إبتسامة وإشراقة في الحركات، تقضي يومها ووجهها بإتجاه الحائط، تدخن النرجيلة، وتقوم بإعداد الطعام لصاحبها وسيدها.

نانو[٢٠٤] مايزال متألماً. الزمام لايناسبه. يتقلّب فوق سريره وهو يئنّ. في الساعة

(٢٠٣) جبال حمرين Djebel - Hamrin

(٢٠٤) أخطأ الرحالة فكتب (هاملن) وهو يريد (نانو). سياق الحديث سيؤكد بأن المقصود هو نانو، فقد عاد فعلاً الى بغداد.

الخامسة يقول لي إنه يفضل العودة الى بغداد من إستكمال السفر. وهذا ما يضايقني قليلاً، لكنه غير مزعج لي أن أجرّب المغامرة، وأحاول القيام بالمهمة وحدي، دون الإستعانة بمترجم. أصفيّ حساب نانو الذي قام بعمل جيّد فيما يخصّ بيع بقايا الكلك، لكنه لم يقدّم لنا خدمة أخرى مهّمة عدا ذلك.

إن حدوث مشهد من نوع آخر يجعلنا نغيّر فكرنا. كان يوفان قد أشترى دجاجتين بأربعة قروش (١٥ , ٠ من الفرنك) من صبّي. ولمّا علم هذا الصغيران الدجاجتين هما لأوروپيين، أراد أن ينتفع وأن يبيعنا إياهما بستة قروش.

١ تشرين الثاني (نوڤمبر)

إنه يوم عيد جميع القديسين في الغرب[٢٠٥]. أي نهار قاس وشاق. نانو قد رجل بالأمس. ولم نتمكّن من النوم منذ الساعة التاسعة والنصف مساء، إذ هاجمتنا عصابة قطط جاءت تحاول النيل من مؤننا باحثة عما يؤكل حتى تحت أسرّتنا والخيم، فأشاعت الفوضى في أمتعتنا.

كنا قد إتفقنا على البدء بتقديم الشعير للجياد في منتصف الليل، وعلى أن نغادر في الساعة الواحدة. لكن الأدلاء كانوا مايزالون يغطّون في نوم عميق. حاولت أن أوقظهم، غير إنهم لم يفهموا أو كانوا يتجاهلون إيماءاتي. ويوفان يحاول أن يكون صاحب إرادة، إلا إنه لايفهم هو الآخر. ثلاثة أرباع الساعة وأنا بفانوس صغير أقلّب القاموس الفرنسي التركي محاولاً تركيب بعض الجمل التي قد أحتاجها. أن يقوم المرء بتمارين تركية في مثل تلك الساعة، وبعد يومين من السفر على ظهور الجياد، لأمرٌ غير هيّن!

يوفان يفهمني بنوع أفضل. وأتمكّن أخيراً، في الساعة الواحدة، من أن يسمعني أدلاء القافلة، فيستيقظون ويقدّمون الشعير للحيوانات. لم يعد صوت الإجترار مسموعاً في الخان في الثانية، فقد كنّا على أهبة الإستعداد. وفجأة، وكأنّه على صوت الإيقاع، ينهض الجميع كل من غرفته، ويبدأون بإعداد الحيوانات، فيتغير المشهد تماماً. الكل جاهزون خلال عشر دقائق. هذا الفناء الهاديء حيث لم يكن

(٢٠٥) يقصد بذلك إنه يوم عطلة عندهم.

يسمع سوى إجترار الحيوانات، هو الآن منتعش حيوية بفضل ضوضاء السفر.

الليلة أقل نصوعاً من سابقتها، حتى إنه علينا أن نربط الجياد ونحملها على ضوء المصابيح. ورغم إننا بدأنا قبل الآخرين، فإننا لم نكن أول الجاهزين للسفر، ومع ذلك ترأسنا القوافل لتجنّب غبار الآخرين.

نحن في صحراء تامة. والحديث قليل عندما تكون الدنيا مظلمة، ولايسمع سوى وقع أقدام الحيوانات وبعض الهمهمات، بصوت خافت.

الدنيا باردة، أسير مشياً على الأقدام قليلاً لكي أدفيء نفسي. لكنني أنام بينما أنا أسير، لذا أمتطي الحصان. بعد ليلة كهذه وأنا بدون نوم، سوف أرتمي منهوكاً، وحالتي هذه تستمرّ ثلاث ساعات، حتى أخذت السماء تتلوّن جهة المشرق، فتبدد الخمول، ونبهني الضياء، فولّى التعب.

نجتاز جبل حمرين في الساعة السابعة. إنها هضاب قليلة الأهمية، ذات جفاف وعزلة خاصّين. ثم ينفسح سهل صخري طويل، تليه حقول قليلة الزرع، حتى نصل قرية قزلربات[٢٠٦]. يقطع القرية جدول يمضي فيتيه في الصحراء، نحاذيه، ثم ندخل من باب حجري منصوب وسط سوق طولها مائة متر على شكل نصف دائرة، وخلال خمس دقائق نبلغ الخان الذي في الطرف الثاني من القرية.

إنها الساعة التاسعة والنصف. نفضلّ المضي أبعد، من قضاء نهارنا متسكّعين في هذه الأكواخ الكبيرة، إلا أن أدلاء القافلة لايعزمون على السفر، ويقولون: الطريق رديئة وخطرة. فأسأل عما إذا كان في القرية أحد يتكلم لغة أوروبية، فيقودونني الى مكتب التلغراف بينما يظلّ هاملن أثناء ذلك في حراسة بقية القافلة[٢٠٧].

التلغرافي لايعرف من لغتنا سوى أحرف الألفباء، لذا أوجّه إليه الأسئلة بمساعدة القاموس، فيجيبني بنعم أو لا، ونتيجة أجوبته: إن الطريق ليست آمنة كثيراً، لكنه سيقودني لدى القائمقام لكي يعطيني جنوداً. أمضي سيراً على الأقدام مع تلميذ

(٢٠٦) Kizil - Rabat

(٢٠٧) يستعمل بنديه هنا لفظة فرنسية بمعنى (القطيع) بدلاً من القافلة (الكروان).

فولتا[٢٠٨] حتى البيت الطيني للقائمقام. إنه أمام قنطرة باب منزله، وقد جعل منها ديوانه، وكل الوجهاء محيطون به، عددهم نحو خمسة عشر.

إن فرينيه لم تثرها الدهشة وهي أمام المحفل (في أثينا)[٢٠٩]، كما إعتراني من الذهول والحياء، فهم يتحسسونني، يلمسونني، وواحد يتطلّع الى قبعتي، وآخر الى جزمتي (البوت)، والثالث الى بندقيتي ويرجوني القائمقام أن أجلس، ويطلب تقديم القهوة، بحيث يغدو المشهد هزلياً، إنما طويلاً. وأنا أشرح بقاموسي وبحركات شديدة بأن ترجماني قد بقي في الطريق وبأني أمضي الى فارس وأريد جنوداً يرافقونني لأن الطريق خطرة. يبحث التلغرافي في القاموس عن الكلمة التركية التي بوسعها أن تفي بالجواب، فيؤشرها بأصبعه، فأرى بإنه لن يكون لي جندرمة وحسب، إنما جنوداً حقيقيين[٢١٠]. إذ أشكر، أسمح لهم أيضاً بالتطلّع إليّ وتحسسي بعض الوقت، وأعرض عليهم سلاحي (وينجستر) الذي يذهل كل الحضور بآليته وإطلاقته، ويصل صاحب القافلة (الكرواني)، خشية أن أشكوه، ووجهه يتبسم، ويقبّل قدمي وركبتي. وإذ يراني القائمقام مستعجلاً، يأتي معي حتى مكتب البريد لكي يعجّل أمر الجنود.

إنها الساعة الحادية عشر إذ نغادر تاركين خلفنا برودة الغدير وظلال النخيل. الشمس محرقة، والأرض ترسل إليك حرارة تلهب الوجه واليدين. والجياد لاتتناول الشعير، ونحن كذلك لم نذق طعاماً منذ الساعة الواحدة صباحاً، سوى فنجان قهوة، أشتري بعض الرقّي للرجال، ونتغدّى على ظهور الجياد؛ ثلاث قطع حلوى من المنّ وكأسي عرق. بعد ساعتين من المسير في رمال السهل، نصل لدى أقدام لوتي

(٢٠٨) ألكسندر فولتا (١٧٤٥-١٨٢٧) فيزيائي إيطالي ومخترع معروف.

(٢٠٩) Phryné حسناء أغريقية من القرن ٤ ق.م، إستخدمها براكسيتيل نموذجاً (موديلاً) لصنع تماثيل أفروديت، ولما أقتيدت أمام محفل الأريوفاغي في أثينا لمحاكمتها بسبب تصرفاتها اللاخلقية، عفى عنها المحكّمون لجمالها.

(٢١٠) إن تشكيلة الجنود هي ذات قيمة أكبر من الجندرمة، فبالإضافة الى كون الجند أشدّ تسلحاً، فبإمكانهم إستخدام بنادقهم لدى أول هجوم، أما الجندرمة فلا يحق لهم إلا المجاوبة بسلاح شبيه بما للمهاجم، سواء كان عصا، أم حجراً، أم سكيناً، ولايحق لهم إستعمال البندقية إلا إذا كان للعدو سلاح ناري (الرحالة). وأنظر الهامش ٦.

باخچه[٢١١]: أرض مستوية واسعة وسطها محفور بواد، مما يدلّ على أن تشققاً قد حصل في الناحية الجنوبية الشرقية بسبب مياه الأمطار التي تمضي لكي تصبّ في كاني كند[٢١٢].

إذ نبلغ أعالي أولى الذرى، نشاهد بكل إندهاش إمتداد هذا السهل المتأجج. ونلتقي بفارسيَيْن في منتصف الطريق، جالسين على حافة الطريق يرافقان قافلة حمير. لقد رأيا رجلاً فارساً وخمسة مشاة مسلّحين يطوفون في مدخل المضيق الذي علينا أن نجتازه، وهما ينتظران قافلة لكي لايغامرا وحدهما في ممر صخور وآكام صالحة للكمائن. وإذ أوشكنا على بلوغ حافة التل، رأينا على بعد خمسمائة متر رجلاً فارساً يطوف متنحياً وكأنه يبغي السلب، فيحشو الجند البنادق ويهرعون للحاق به، بينما أستلم أنا قيادة القافلة، لكننا ما نلبث أن نطمئن فإنه شرطي يحرس قافلة وافدة من الجهة المعاكسة، وهو يتقدمها كالطليعة ليكشف عما في الأعالي المحاذية للطريق.

حين نصبح في أعلى التل، ينبسط أمامنا كل وادي ألوند[٢١٣] النابع من ديالى، وتبدو لنا واحة خانقين على ضفاف النهر، إلا إننا بقدر ما ننحدر الى الساحل، تختفي (خانقين)[٢١٤] خلف تلّ صغير محاذ للنهر، نستغرق ساعتين ونصف للوصول الى الأسفل.

نلاحظ القرية من جميع أطراف النهر الذي تنيره آخر أشعّة الشمس. الى يميننا ألوند، الغدير ذو المياه الغائرة، وعرضه نحو ثلاثين متراً، وهو يخرج من غابة نخيل محصورة ضمن هضبتين ذات إرتفاع عمودي. الأغصان المتقاربة تتشابك وتدنو حتى أعالي المياه بأغصانها البديعة. فتمدّ عناقيد التمور الشبيهة بعناقيد ذهب لا عدّ لها. خرائب جسر صغير أعمدته ساقطة في التيار، تبدو وكأنها تتعارك مع دوار الماء. ويغدو ألوند فجأة عريضاً وهادىء الماء، بينما نشاهد على الضفة عينها إنما

(٢١١) Louti - Baghtché

(٢١٢) Kanikhénd

(٢١٣) Abi - Elwend نهر ينبع من ديالى

(٢١٤) Khanikin قضاء في محافظة ديالى.

على بعد قليل، منظراً ساحراً لساحل النهر: بيوت مرصوفة بإنحناء جميل، وأعمدة تغمرها المياه، وبقايا معبد أو حمّام، وآثار سدّ أو رصيف صغير.

إنه آخر النهار. كلّ منا يقوم بالعمل الأخير. بعض النساء يأتين لإستقاء الماء، وأخريات يغسلن الثياب، بينما يسبح الأطفال قربهنّ. ورجال يقودون الجياد والثيران والحمير والجمال للشرب. الجميع على موعد قرب النهر بعد حرّ النهار.

علينا أن نعبر النهر. القاع عميق جداً، ولانريد أن نعرّض الأمتعة للبلل في لحظات نحن بحاجة الى إستخدامها، لذا نتبع إحدى طرقات القرية، إذ لايسعنا أن نحاذي الهضبة، ثم ننحدر الى مجرى النهر للبحث عن مكان أكثر ملاءمة للسير في الماء. لايبدو أن الناس هنا يحبّون الأوروپيين، فالنساء يشتمننا، وصبية صغار يرموننا بالرمال. ولانلقى قاعاً سهلاً، لذا نعود الى نقطة الإنطلاق، حيث ثمّة قفّة تقوم بمهمة العبور[٢١٥]. نضع أمتعتنا كلها وتعبر الجياد والمياه تغمرها فوق الصدور، ثم نحمل أغراضنا في الضفة الثانية، ونبلغ الخان بعد دقائق.

هاملن متألمّ، ويزداد ألمه رويداً رويدا. أفهم بأنه يوجد هنا، كما في جميع المدن الحدودية الواقعة على الطرق الرئيسة، طبيب أوروپي، فأسألهم أن يقودوني إليه. لحسن الحظ يتكلّم الفرنسية، وهو ألماني. لقد أتمّ دروسه في دوقية أولنبورگ، وإسمه مسيو سآب[٢١٦]. يجب أن أقول مادحاً بأنه قدّم كل الخدمات الممكنة، ولن يقوم بأكثر من ذلك لمواطن من بلده.

إنها الساعة الثامنة حين قدّمت له نفسي. كان قد أوشك أن ينتهي من العشاء. فأدخلني وقدّم لي أولاً كأس خمر، بعد ست عشرة ساعة وأنا فوق الفرس، ولم أذق طعاماً سوى حلوى المن وكأس العرق، فلا عجب أن بدت لي هذه الخمرة سلسبيلا. ثم نعود معاً الى الخان لكي يجسّ هاملن. يخشى من تقرّح في العقب، ويقول بالإستمرار على اللزقة، ويوصي بالإحتراز أثناء المسير قدر المستطاع، وبما إننا نسير

(٢١٥) إحدى العبّارات المعروفة.

(٢١٦) Duché d`Oldenbourg دولة ألمانية سابقة، أصبحت دوقية في أواخر القرن الحادي عشر، ثم دوقية كبرى سنة ١٨١٥. وقد ورد إسم الطبيب (سآب Saab) خطأ في مقدمة هذا الفصل: Saad.



قافلة الموتى

بخطى وئيدة، فسيكون من السهولة بمكان أن نحافظ على الساق ملفوفة بشداد غليظ.

هذا الطبيب هو في خانقين منذ سنة، ويقيم وحيداً تماماً، فالسكان متعصّبون، ورغم العلاجات التي يقدم، ومجاناً في أغلب الأحيان، لم ينجح في كسب مودّتهم. لايتمكّن من التجوال وحيداً من دون سلاح، وقد كاد أن يغتال عدة مرات وهو عائد من عيادة مرضى. وإذا ما حلّ الليل، فلا يسعه أن يخرج إلا وهو راكب حصانه، ويرافقه خادمان. وحين يمضي الى الصيد، يرافقه جنديان وخدم.

٢ تشرين الثاني (نوڤمبر)

أستيقظ في الساعة الثالثة، ونسافر في الخامسة. أربعة جنود، أحدهم عريف، هم تحت أمرتنا. وكان الطبيب سآب[٢١٧] قد قام، عن طيب خاطر، بالإتصالات الضرورية لكي يؤمن لنا حماية جيّدة، حتى إنه أرسل أحد خدّامه للتأكد من إنه لاينقصنا شيء. تبدد الليل سراعاً، ولايقدم المنظر شيئاً يذكر، فهي الصحراء دوماً. لم يبق من أثر للسهل، فنحن نجتاز أول مرتفعات الكتلة الضخمة لكُردستان الفارسي.

(٢١٧) مرة أخرى يكتب بنديه إسم الطبيب خطأً Saad وقد صححناه بما نظنه الصواب (Saab).

نحن على الحدود في الساعة الثامنة، تحرسها سيطرة شرطة (جندرمة) وموظفو مكوس (كمارك)، يسكنون قلعة صغيرة. إن هذه السيطرات مصفوفة على إمتداد مسافة ما، كل خمسمائة متر، للحراسة ومنع قوافل التهريب من العبور. يغادرنا حرّاسنا، فنستمر وحدنا في أرض قاسية وغير مزروعة. صخور صحراوية، وطريق صخري. وفي البعيد تقدّم الجبال مشهداً غريباً لمساحات أراض متوازية ذات ألوان تتغيّر من اللون الوردي حتى الأخضر. نبلغ مجرى ألوند، وترتفع بعد ذلك قرى ذات بضع بيوت مشيدّة بالحصران والقصب.

فجأة تصيبنا رائحة كريهة تزداد كلما تقدمنا، فلا نتأخر أن نلقى أنفسنا وسط قافلة غفيرة من قوافل الموتى.

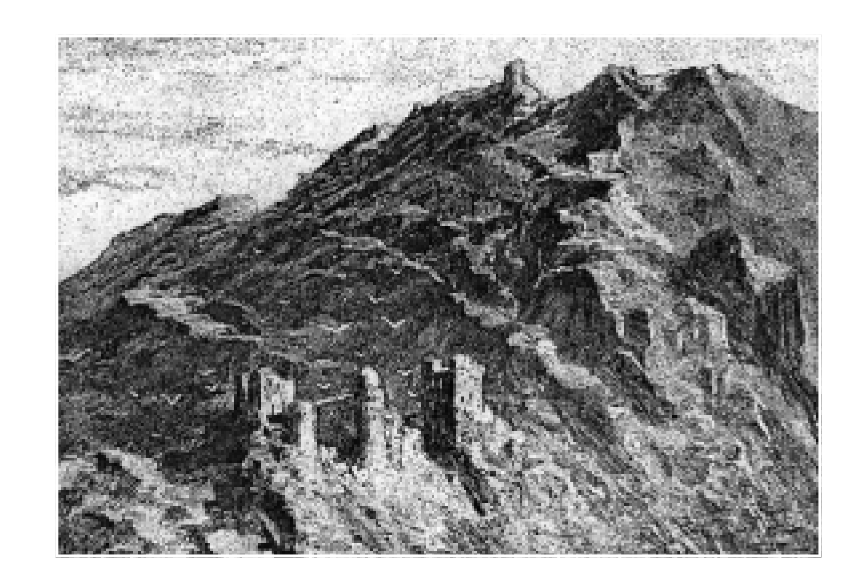
يعتقد الفرس[٢١٨] إنه للدخول الى الجنّة (الفردوس)، يكفي المرء أن يدفن قرب ضريح أحد الأولياء، سواء كان الحسين أم علياً (رض). وأن الشخص الأكثر شراً، ان استطاع أن يوفرّ ما يدفع به نفقات السفر، بعد وفاته، فدخوله الجنّة أشد تأكيداً من آخر كبير النزاهة إنما مدفون في بلده. لذا تنقل القوافل المنظمة آلاف الجثث من أبعد أطراف فارس إتماماً لهذا الأمر. توضع في صناديق خشبية صغيرة، أو تكون ملفوفة بكل بساطة في بسط أو طنافس، وتعلّق الأجساد إثنين إثنين أو ثلاثة أو أربعة على ظهر حصان. وبسب الشمس المحرقة، بوسعنا أن نفهم الرائحة التي لاتطاق، المنبعثة من هذه الأجساد في خاتمة سفر يدوم عدة أسابيع. والأجساد تنزل وتحمل في كل مرحلة، وكأنها أمتعة حقيقية. وتتوقف هذه القوافل على بعد ما لايقلّ عن خمسة أو عشرة كيلومترات عن القرى التي تسمّمها، تاركة المكان الذي تخيّم فيه فاسداً حتى المساء.

نصل قصر شيرين[٢١٩] في الساعة الحادية عشرة. وكنّا سنحطّ فيها لولا أن الخان كان قذراً جداً. وبما أن الوقت مازال مبكراً، فإننا نقرر القيام بقطع مرحلة أخرى.

نحن الآن في بلاد فارس. ورغم أن المنطقة يسكنها الكُرد، فإنها آمنة نسبياً.

(٢١٨) تركنا تسميتي (فارس) و(الفرس) على وضعهما في الرحلة كلها، كما كتبهما بنديه.

(٢١٩) Kasri - Shrin



إحدى قلاع كردستان

الأهالي محاربون ومتوحّشون، إنما نزيهون. وبقدر ما يتصّف كُرد الشمال الغربي وكُرد الأتراك بالشدّة والقسوة، بقدر ذلك يتصّف كُرد الجنوب الشرقي وكُرد فارس بالطيب والتسامح. كثيرون هم من مذهب علي الله[٢٢٠].

يكفي أن تتركهم يفعلون ما يشاؤون لكي يتركوك هم أيضاً تفعل ما تريد. التسامح الديني كبير لديهم. ورغم ذلك فصدورهم موغورة ضد الأوروپيين، وأنت تشعر في هذه المدينة الحدودية، على بعد خطوتين من تركيا، بهذا الحقد المزمن، أكثر مما في سائر بلاد فارس. لاينظر إلينا الأهالي نظرة لطف، بل لهم سحنة ساخرة مزعجة.

بينما هاملن في الخان[٢٢١] حيث تستريح الحيوانات، أمضي أنا لدى الوالي. لقد شيّد هذا الوالي، فوق مرتفع يسيطر على المدينة في الجنوب الشرقي، منزلاً جديداً. إنه من الطراز عينه، كما من الحجارة الغبراء نفسها، كسائر البيوت من هذا النوع

(٢٢٠) Ali - Allahi

(٢٢١) يكتبه بنديه هكذا: Khan

التي شاهدناها في كُردستان تركيا، ولدى الحكاريين. فهي بناية مربعة، طولها عشرون متراً، وعرضها عشرة أو خمسة عشر، لها باب واحد للدخول ونوافذ صغيرة، وسطح مستو، وفناء داخلي. تحمل هذه القصور، وهذه البيوت، إسم (خان). وموقع الخان هذا هو بشكل عجيب، لكي يحميه ضد غارات القراصنة. إنه مبني بشكل محكم على مرتفع بسيط، إنما وعر وصعب الإختراق.

يستقبلني الوالي بشكل ممتاز بعد أن أقدم له أوراقي التي لا أظن إنه أستطاع قراءتها، لكنه لاحظ الأختام الرسمية عليها، فمنحني ما طلبت منه بعد جهد جهيد، بفضل ترجمة يوفان وقاموسي الفرنسي–التركي. إنه لمشهد هزلي أن تراني ماسكاً زمام فرسي، ومثقلاً بأسلحتي وسوطي، وأنا أقلّب قاموسي للحصول على كلمة هي غير مفهومة في معظم الأحايين.

أعود الى الخان، وبعد بضع دقائق، أتسلّم من قبل الوالي صحناً يحتوي على فواكه وجبن أبيض وحليب وخبزات رقاق[٢٢٢] لكي أشكره أرسل له بطاقتي مع بعض الهدايا: سكين، بوصلة الإيپينال[٢٢٣]. يعطينا جندياً يرافقنا.

آمر بالرحيل، بيد أن رئيس أدلاء القافلة يرفض بأن يسرج حصاني، ويريد أن يمكث في الموضع. فأقول ليوفان أن يسرج الدّابة، ولكنه ما أن يضع السرج على البغل، إلاّ ويهجم عليه صاحب البغل، فيلقيه أرضاً بكل حدّة، ويسحب سكيناً، مثل وحش، يريد أن يبقر به بطن حصانه لكي لاننطلق. ليس لي إلا الوقت الكافي لكي أقفز فأصدّه عن القيام بهذا الفعل الجنوبي، وبقبضة يدي أجعله يتدحرج في الغدير. يغدو المشهد محتدماً، ويزدحم الناس. فآخذ الرجل من ذراعه، وأقوده لدى الوالي. كان التعيس يرتجف كورقة في مهبّ الريح، لأنه كان يعرف بأنه لن يسلم بأقل من خمس وعشرين ضربة عصا، لذا فلم نكد نسير مائة خطوة، إلا وكنت تراه قد ركع على ركبتي وراح يقبّل قدمي راجياً إياي أن أسامحه. فأعطف عليه. ونعود الى

(٢٢٢) هو المعروف بلافاش Lavash (لواشه): رقيقات خبز غير مختمر، يصفها بنديه في رحلته ص٩٥–٩٦. ولعل المقصود بالحليب هنا اللبن.

(٢٢٣) Epinal مركز مقاطعة Vosges على بعد ٣٦٦ شرقي پاريس. لهذا قلنا: لعل بنديه من إيپينال، إلا إنه كان يسكن پاريس على ما يبدو من مذكراته.

الخان. خلال عشر دقائق، كل شيء جاهز، فنسير في طريقنا.

لدى إجتيازنا طرقات القرية، نصادف على ظهر فرس مهيب نعشاً جميلاً موضوعاً بشكل معاكس، يرافقه فرسان مرتدين ثياباً فاخرة وبعض الجنود. إنه أحد الأسياد الكبار يرافقه أصدقاؤه الى كربلاء حيث قد طلب أن يدفن بعد وفاته. كم من أصدقاء في فرنسا يرافقون أحد أصحابهم حتى المقبرة لو إستغرق الأمر لوصولها أكثر من شهر على ظهور الجياد ؟

قصر شيرين قصبة فقيرة على الحدود الفارسية. ورغم مرور (نهر) ألوند فيها، فهي شاحبة وعميقة، لايشاهد فيها أي أثر للنبات

(وتستمر رحلة بنديه في بلاد فارس)*

ملاحق

تضمّ هذه المقتطفات شذرات جمعناها من أقسام مشتتة من رحلة بنديه مما لم يرد ضمن الأقسام المترجمة من الرحلة، وقد رأينا فيها ما يفيد ويكمل سياق الكلام.

أولاً- البريد والسفر بالخيول (الچپر) أو بالقوافل (الكروان)

نستمد هذا المقطع من مطلع الفصل الثالث من رحلة بنديه، ص٤٣-٤٤:

«إن بلاد فارس أشدّ تنظيماً، من عدة نواح، من تركيا. فالسلطة والإدارة فيها أكثر إحتراماً، وكبار الموظفين أشدّ نزاهة، ولو أن نزاهتهم نسبية نوعاً ما، كما أن خدمات البرق والتلغراف الداخلية أكثر ترتيباً، والشرطة أفضل، بحيث يستطاع السفر بأمان، الأمر الذي يتعذر في تركيا.

فقد رتبت الدولة نظاماً بريدياً، نسبة الى طرق المواصلات الرئيسة والبريد والمسافرين، بواسطة الجياد، بحيث يسمح لها أن تمضي بشكل أسرع من سير القافلة (الكروان)، إذ لايمكن للأخيرة أن تمضي أكثر من خمسين كيلومتراً في اليوم، ويكفي لإستخدام (هذه الطريقة السريعة) طلب ترخيص لايرفض البتة. وتسمى طريقة السفر هذه بالچپر (Tchapar) بينما يسمى مكان التوقف، أو المحطة بالچپرخانه. وتدفع

* أنظر محتوى مواد الرحلة.



محطة السفر بالخيول (چپرخانه)

الضريبة لدى كل مرحلة (محطة)، إذ بدفع قران واحد عن الحصان (ومعلوم بأن العملة الفارسية وقيمتها ٠,٨٠ من الفرنك، وجاييس (chais) وقيمته ٠,٥٠ من الفرنك) وذلك للفرستك الواحد (Farstak). ويمثّل الفرستك (أي الفرسخ) وحدة المسافة الفارسية، وهو قابل للتغير، بحيث إني لم أتمكن قط من التعرّف على طوله الحقيقي، فهو في بعض البلدان بمسافة خمسة كيلومترات، بينما هو ستة أو سبعة في غيرها، لذا فإني أظن بأن أفضل طريقة لإحتسابه إعتبار المسافة التي يقطعها الفارس خلال ساعة واحدة بسير جيد دونما ركض. وقد كان سفرنا الى تبريز بالخيول (الچپر).

السرج الذي أستخدمه هو سرج نظامي قوقازي إشتريته في تفليس، يزعجني قليلاً، لأن وضعه لايسمح لي أن أعتليه كما نفعل بالسرج التي عندنا (في أوروبا)، لأنه مرتفع بشكل شديد، من الأمام والخلف، وبدون تقاسيم، لذا ينبغي أن تكون منتصباً وأنت فوقه، ولايسعك أن تطوي الساق، ولا أن تسير مائل الجسم.

ثانياً- كلمة عن الكُرد وكُردستان

هذا المقطع مستمدّ من الفصل الخامس من الرحلة، ص١٠٨-١٠٠:

«وسط حجارة في حال من الفوضى، حيث الطبيعة قاسية ووحيدة، تقوم تلك القلعة، ونحن نلقى العديد من هذه القلاع في كُردستان. لقد كان يسكنها رؤساء

العشائر وهم أشبه بأسياد صغار يعيشون على سلب القوافل (القرصنة)، أو على فلاحة الأرض، وكثيراً ما يتنازعون فيما بينهم على الأغنام.



السفر بالخيول (چپر)

والكُرد، رغم نزعة البداهة، يتحلّون بمشاعر أنفة، ويبدون شديدي الإهتمام بكلامهم. فإذا ما وعدك أحد الكُرد بأنه يوصلك سليماً وصحيحاً الى مكان ما، فبوسعك أن تثق بكلامه دونما تخوّف. لكنه، إذا ما رآك غداة إنجازه الوعد، فبوسعه أن يسلبك ويقتلك.

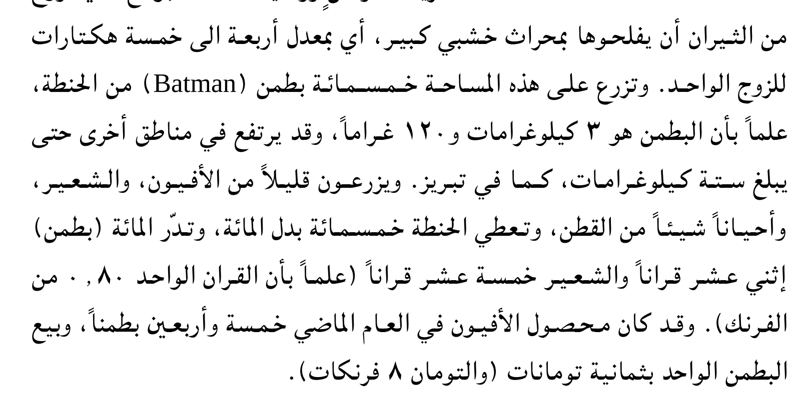
ومظهر الكردي جميل، فالأنف طويل، معقوف قليلاً، والفم صغير، والذقن دقيق، والعينان ذكيتان وحادّتان، رغم ما في نظرته من ضياع. له شاربان، ويغطّي رأسه بطاقية من نسيج أبيض (عرقجين)، يلّف حولها مناديل كثيرة، والبنطلون عريض بدون مقاس، مصنوع من قماش من المرعز الأحمر، وكثيراً ما يكون منقوشاً ومخططاً، ويرتدي سترة (جاكيت) تنحدر حتى الوسط، غالباً ما يضع فوقها رداء أطول من السترة مصنوعاً من المرعز، مشغول في الجهة الأمامية بحياكة خشنة (الشال والشبك)، ويلبسون حذاء (بوتين) من جلد أحمر، كعبه مملوء بحدائد...

وخلاصة القول، إن الكُرد طيبوّن، أقوياء، وأذكياء، ذوو شكل جميل، سيكونون، بعد أن تحتويهم الحضارة، أشدّ تفوّقاً من جيرانهم الأتراك والفرس.

ونستمدّ من الفصل الثاني عشر من الرحلة، ص ٣٤٨:

«إن كُرد منطقة كرمنشاه طيبوّن وسهلو الأنقياد. إنهم ينتسبون الى شيعة علي الله، وهذه شيعة متسامحة. يختلطون في بعض القرى مع المسيحيين، ويبدو هؤلاء أقلّ تسامحاً منهم، فإن المسيو فوم (Vaume) (الطبيب الفرنسي هناك) إذ كان

يصل مع خدمه، كان المسيحيون يوعزون الى النساء بالتستّر، بينما كان الكُرد يطلقون نسائهم طليقات. وليس للنساء حجاب».



صاحب الخيل (چپرچي)

وبعد أسطر قليلة يكمل بنديه قائلاً:

«إن قرية هومرمل (Homermelle) الواقعة على طريق سنه (Sinah) هي حقاً المثال الأكمل لقرى كُردستان، وبوسعها أن تكون النموذج.

تشمل القرية مائتين وخمسين بيتاً. ألف ومائتان من السكان، معظمهم كُرد، ومن الشيعة، يعودون بالأصل الى عشائر كرند، كوراهم، كلهور، وبعض البدو المستوطنين هناك منذ القديم.

تبلغ مواشيهم نحو ثلاثمائة رأس حيوان من الماشية، وألف وثلاثمائة وخمسين من الأغنام والماعز، وثلاثمائة حمار. ترعى الحيوانات الأرض بكل هدوء، في أراضي القرية وفي الأعالي. والأراضي جميعها ملك الدولة. تمتلك القرية، كأراضٍ زراعية، مساحة بوسع ستين زوج من الثيران أن يفلحوها بمحراث خشبي كبير، أي بمعدل أربعة الى خمسة هكتارات للزوج الواحد. وتزرع على هذه المساحة خمسمائة بطمن (Batman) من الحنطة، علماً بأن البطمن هو ٣ كيلوغرامات و١٢٠ غراماً، وقد يرتفع في مناطق أخرى حتى يبلغ ستة كيلوغرامات، كما في تبريز. ويزرعون قليلاً من الأفيون، والشعير، وأحياناً شيئاً من القطن، وتعطي الحنطة خمسمائة بدل المائة، وتدّر المائة (بطمن) إثني عشر قراناً والشعير خمسة عشر قراناً (علماً بأن القران الواحد ٨٠, ٠ من الفرنك). وقد كان محصول الأفيون في العام الماضي خمسة وأربعين بطمناً، وبيع البطمن الواحد بثمانية تومانات (والتومان ٨ فرنكات).

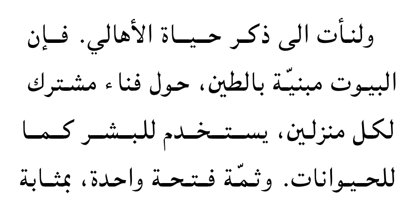
للقرية فواكه، فأهاليها يحصلون على كميات كبيرة من المشمش، والأجاص،

والتفّاح، واللوز، والخوخ، وتزرع الخضراوات التالية: البطاطة، لكنهم لايأكلونها، والحمّص، والبصل، والعدس، والباقلاء، والثوم، والبطيخ، والباذنجان، والرقّي، ويجتنى الجوز وحبّة الخضراء.

والقرية ملك الحاج محمود علي، أحد المواطنين العثمانيين، يمنح الكُرد حق السكن في أراضيه لقاء ثلث الإنتاج. هذه الضريبة الفادحة تشلّ القرية التي ينهكها البؤس والمرض... وقد يصل بعض الملاّكين الأثرياء الى تملّك أقسام كبيرة من المحافظات، فإن آغار – حسن يملك في محافظة كرمنشاه أكثر من مائة قرية من مجموع مائتين وخمسين، وبوسع ذلك أن يشكل خطراً على الحكومة.



السرج



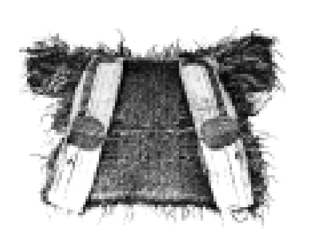
ولنأت الى ذكر حياة الأهالي. فإن البيوت مبنيّة بالطين، حول فناء مشترك لكل منزلين، يستخدم للبشر كما للحيوانات. وثمّة فتحة واحدة، بمثابة الباب، تمنح النور للغرفة. وتستخدم حفرة في الأرض وسط الغرفة كموقد وسرير، وثمّة فتحة متروكة في الأعلى فوق الحفرة، في سقف مكوّن من العيدان (المدود)، المغطّاة بتراب مسحوق. وفي الغرفة بعض آنية طينية، ومهد بدائي، ودولاب من الحديد والخشب لغزل الصوف، وسرير من أقمشة خشنة. وبإزاء المدخل فتحة أخرى تؤدي الى الأصطبل حيث يعيش شتاء الناس والحيوانات معاً، وأرضية الأصطبل بدون إنحدار، وهي مشبعة بالبول.

لقد قمت بقياس غرفتين من هذه الغرف. في الأولى كان يعيش رجل وإمرأتان وحماران، طولها ٣,٥ وعرضها ٣م. إنهم في قذارة مرذولة، إنما لايبدو عليهم بأنهم تعساء.

يستخدمون للتدفئة روث البقر المجفف على شكل أقراص، مخلوطة بتبن مسحوق،



إمرأتان كرديتان



معطف كردي



كرديان

يقوم بصنعها النساء والأطفال، وتكوّم مؤونته في زاوية ما أو قرب باب المنزل.

يجلبون الماء من الجبال بواسطة قناة. نظافة الأزقّة معدومة تماماً. والحيوانات الميتة تهمل على بعد ثلاثين خطوة من القرية، فتأتي عليها الكلاب وأبناء آوى والغربان، بهدوء. والأشجار المقطوعة تتهرّأ أمام البيوت.

الخبز هو في الأساس من الغذاء. يصنع من الحنطة والذرّة والبلوط. والطحين الذي يصاغ على شكل أوراق (رقيقات)، يوضع فوق صفائح حديدية (الساج) ويخبز، غير أن العجين لايختمر ولايتكوّن بشكل جيد، لذا يغدو (الخبز) ثقيلا وعسيراً للهضم، فلا يأكل المرء أكثر من سبعمائة وخمسين غراماً من الخبز في اليوم الواحد.

يجمع حليب البقر والماعز في آنية من جلد، ويصنع منه الزبد في حالة الإستحلاب (القشطة)، ويتغذّى الناس باللبن، ولايحتفظون إلا بالمصل (كَرا - الزبدة)، بينما يبيعون الباقي. كما إنهم يبيعون أفراخ الدجاج والبيض، إذ قلما يأكلونها، ويأكلون الرقّي والقرع والبصل والثوم مع خبز يسمونه جيميت (Tchemet) وهو غير اللافاش (لواشه Lavash). أما الرز، على شكل البِلاو (Pilaw) فهو صحن ممتاز، لايتناولونه إلا أيام الأعياد.

تذبح القرية كل يوم خروفاً بحجم إثنين وعشرين كيلوغراماً تقريباً، فتشتري كل عائلة نصف بطمن، أي نحو مائتي غرام للرأس الواحد أسبوعياً.

يتكوّن زيّ الرجال من قميص قطني ينحدر حتى السرّة، ومن بنطلون عريض يشدّ أحياناً بالكعب، ومن ثوب كبير مصنوع من القطن المخطط بالأبيض والأزرق أو الأحمر، ويشدّ على النحر بحزام، والخف كأحذية، وقبعة كغطاء للرأس مصنوعة من قماش منفوخ أو مدبب (العرقجين) يشدّ حوله منديل.

أما النساء فيرتدين قميصاً ينحدر حتى السيقان، وقميصاً طويلاً كفلاّحات مصر، ويثبتون في الرأس قماشاً كبيراً بمثابة الغطاء يتحدّر حتى الإكتاف كالشال.

جميع هؤلاء الكائنات قذرون طبيعياً، وذوو رائحة كريهة، وذلك بسبب البؤس. أمّا السحنة فجميلة، وسواء الرجال أم النساء، رغم معيشتهم في أوضاع تاعسة من حيث النظافة والصحة، فهم أصحّاء وأشدّاء. وللنساء ملامح جميلة، وأجسام سليمة



إمرأتان تجرشان القمح



الدولاب والمهد

أحذية كردية

التكوين، بل إنهن مغريات. يتزوج الرجال بسنّ العشرين أو الخمسة والعشرين، بينما البنات في نحو الثانية عشرة.

وقد حصلت في قريتين على المعدّل التالي لوفيّات الأطفال. ففي (فتح Fetah) توفي ستة أطفال من عدد سبعة قبل سن الخامسة. وفي (شيراكلي Cheragalli) توفي أربعة أطفال من عدد ستة قبل سن العاشرة.

ومنذ سنتين أنشئت المدارس في عدة قرى، بينما يواظب من مجموع مائة وخمسين طفلاً، أربعة عشر طفلاً فقط، أي أقل من العشر، لذا فإن الأمّية لدى الأهالي مطلقة، حيث إثنا عشر فقط من أفراد القرية بوسعهم أن يقرأوا ويكتبوا، وإثنان يعرفون أن يوقعوا. غير إنه لايجب تعميم هذه الحال على المدن الكبيرة» (ص٣٤٨-٣٥٣).

فهارس الصور والأشكال

فهارس الأعلام والأماكن

أ

ب، پ

ت

غ

ف، ڤ

ق

ك، گ

ل

م

ن

هـ

و

ي

محتوى الكتاب